إعـــداد

دكتورة

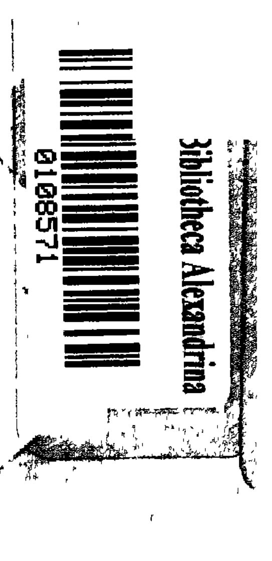
فادية محمد أبو بكر

أستاذ مساعد التاريخ القديم

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

دراسات فى

العصر الهللينستى



دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣

٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبى - ت ٥٩٧٢٠٤٦



دراسات فى العصر الهللينستى



دراسات في
العصر الهلينستي

فادية محمد أبو بكر

أستاذ مساعد التاريخ القديم

كلية الآداب - جامعة الأسكندرية

١٩٩٨

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ١٩٣٠١٦٣

٣٨١ ش قنال السويس - الشاطبي - ت ٥٩٧٢٣١٤٦


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصـــــل الأول

مصر والفتح المقدونى



أولا : حالة مصر منذ الأسرة السادسة والعشرين حتى الفتح المقدونى

لما كان أول عهد مصر باستقرار الاغريق فيها يرجع الى العصر الصاوى ، أى الى ما قبل الفتح المقدونى بعدة قرون ، وكان الاغريق قد لعبوا دورا هاما فى تاريخ مصر منذ حطوا رحالهم فيها ، فانه لكى نفهم بجلاء تاريخ مصر فى عصر البطالمة . يجدر بنا أن نستعرض فى ايجاز حالة مصر منذ العصر الصاوى .

ملوك نباتا يردون على الوادى وحدته :

عندما سيطرة أسرة لبيبة على مصر فى منتصف القرن العاشر قبل الميلاد ، انقسمت البلاد الى أمارات محلية ، ورفض كهنة آمون الخضوع لسلطن الليبيين مما حدا بهم الى الهجرة الى السودان حيث أقام كبيرهم فى نباتا ملكا جديا وجعل من نفسه وارثا شرعيا لعرش فرعون . ولم يكد الملك الشاب بعنخى يستوى على عرش نباتا حتى صح عزمه على أن ينقذ شمال وادى النيل من أيدى الغاصبين وأن يرد على الوادى وحدته وفى عام ٧٤٠ كللت مجهوداته بالنجاح .

أشور تفتح مصر :

وعندما استولت أشور على مصر فى عام ٦٧١ ولم يستطع طهراقا ، خامس ملوك نباتا ، صد هذا الغزو الاجنبى عن شمال مملكته ، انسحب جنوبا تاركا الدلتا تحت رحمة الأشوريين . وما كاد أشور حادون يعود الى نينوى ، حتى استعاد طهراقا سيطرته على الدلتا . وعندما ارتقى أشوربانيبال العرش أعاد فتح مصر فى عام ٦٦٧ ثم أقام « نخاو » أمير سايس حاكما على الدلتا وأحاطه برجال أشوريين وبذلك حال دون نجاح طهراقا فى استعادة الدلتا . وعندما أفلح نوت أمون ، خليفة طهراق ، فى غزو الدلتا ونصب نفسه فى منف فرعونا على مصر بأجمعها ، استشاط أشور بانيبال

غضبا وغزا مصر ثانية فى عام ٦٦٣ وطرد تنوت أمون فى الوجه القبلى ، ثم ترك مصر تحت أمره ابسمتيك . ومع ذلك يبدو أن تنوت أمون احتفظ بنفوذه فى طيبة حتى عام ٦٦١ ، وهو العام الذى حمل فيه أبسمتيك ألقاب الفراعنة بعد أن بسط سلطانه على مصر كلها ، وأصبح ملكها دون منازع من البحر الى أسوان .

تأسيس الأسرة السادسة والعشرين :

وهكذا أسس أبسمتيك (٦٦٣ - ٦٠٩) الأسرة السادسة والعشرين وجعل سايس حاضرتها ، ولم يلبث أن حرر مملكته من كل تبعية لأشور . وبيان ذلك أنه ازاء انهماك أشور حينذاك فى حربها مع الأم لم يعبأ أشور بانيبال بما كان جاريا فى مصر مادام أبسمتيك يدفع له الجزية ، ويحتمل أنه استمر يفعل ذلك بانتظام حتى حوالى عام ٦٥١ عند ما سحبت الحامية الأشورية من الدلتا بسبب مقتضيات حرب الأم ونشوب ثورة فى بابل ، ومن ثم توقف أبسمتيك عن دفع الجزية لأشور . وبعد حروب الأم المضنية ، كان أبسمتيك بفضل جنوده المرتزقة فى مركز أقوى من أن تتهدده شور .

استقرار الأغريق فى مصر :

وقد كان فى مصر اذ ذاك عدد كبير من الاغريق ، فانه منذ حوالى ٧٢٥ ق . م. أخذ تجار مليتوس يترددون كثيرا على مصب نهر النيل وخاصة المصب الغربى ، عند كانوب (أبى قير) ، أما لسهولة الوصول اليه من بحر ايجة ، أو لبعده عن حركة نشاط الفينيقيين . وقد ترتب على ازدياد تدفق التجارة الاغريقية أن أخذ فرع النيل الكانوبى يزداد فى الأهمية على فرعه البلوزى ، وكانت تجارة مصر مع فينيقيا قد أكسبته أهمية كبيرة فى عهد الأسرتين العشرين والثانية والعشرين ، أى فى عهد الرعامسة (حوالى ١١٩٨ - ١٠٩٠) وملوك بوباسطس (حوالى ٩٤٥ - ٧٢٥) .

تأسيس نقراطيس :

وعلى مقربة من سايس ، أحى مدائن مصر الهامة أسس تجار مليتوس محلة لهم ، أطلق عليها اسم « قلعة أهل مليتوس » . ويحدثنا استرابون بأن تجار مليتوس أقاموا محلتهم فى عصر أبسمتيك ، أى حوالى عام ٦٥٠ ق . م . ولكن من المحتما أنها أقيمت حوالى عام ٧٠٠ أو قبل ذلك ، ويحتمل أن ما حدث فى عصر أبسمتيك هو أن القلعة ازداد اتساعها ، وأصبحت تعرف باسم نقراطيس (Naucratis) . وبفضل الثروة التى عادت على مصر من تجارة الاغريق تمكن أبسمتيك من استخام عدد كبير من الجنود الاغريق والاناضوليين ساعدوه على توطيد مركزه فى مصر ، وبذلك تخلص من منافسيه ومن تهديد ملوك نباتا ومن سيطرة الأشوريين .

عطف ملوك العصر الصاوى على الاغريق :

وعندما استتب الأمر لأبسمتيك أراد أن يكافىء جنوده المرتزقة ، فاتخذ منهم وحدهم حرسه الخاص مما أساء الى الجنود المصريين حتى أن حاميتهم التى وضعها الملك عند أسوان لحماية الحدود الجنوبية هربت الى بلاد النوبة ، فقد عز عليها أن يختص الملك جنوده الاغريق بتكوين حرسه الخاص .

وقد أقام أبسمتيك لهؤاء الجنود معسكرين ، أحدهما فى ماريا بالقرب من كانوب ، والآخر فى دفنة (Daphnae = تل دفنة عند برزخ السويس) ليكونا بمثابة حصنين يصدان هجمات كل من تحدثه نفسه بالاعتداء على مصر ، وأباح أبسمتيك للأغريق أن ينشئوا مؤسسات فى سايس ونقراطليس وكانوب . وقد هدأت الحال فى مصر بفضل الحزم الذى أبداه أبسمتيك ، وسرعام ما أصبحت علاقته مع أشور علاقة الند للند ، لكن لما كان هذا الملك مدينا بمركزه فى مصر لأشور ، فانه لم ينس ذلك وبقى حليفا أمينا لأشور حتى توفى فى عام ٦٠٩ ، وخلفه ابنه نخاو الثانى (Noech II) الذى

حاول دون جدوى مساعدة أشور على بابل . ومن ثم وقف جهوده على الأعمال السلمية فى مصر ، فاهتم بشق قناة تربط النيل بالبحر الأحمر ، وأوفد بعثة لترتاد سواحل افريقيا ، ووجه عناية خاصة لتجارة مصر ، فأثرت البلاد ، وازدهرت فيها فنون السلم ، وظهر فى كل فروع الفن طراز جديد يمتاز باحياء طراز الدولة القديمة .

وعندما توفى نخاو الثانى فى عام ٥٩٣ ، خلفه ابنه أبسمتيك الثانى الذى حكم حتى عام ٥٨٨ . ولعل أهم ما يعنينا فى هذا المقام من أمر أبسمتيك الثانى هو أنه اقتفى أثر أبيه وجده فى اتباع سياسة مشربة بروح العطف نحو الاغريق . ولا جدال فى أن عطف ملوك مصر فى العصر الصاوى على الاغريق يرجع الى ما كانوا مدينين به من ثروتهم لتجارة الاغريق العسكرية ، وذلك من ناحية للذود عن حياض مصر ضد الممالك الفتية القوية فى آسيا ، ومن ناحية أخرى لدفع ما يتهدد العرش من الأخطار الداخلية .

ازدياد العطف على الاغريق يلهب شعور المصريين :

لكن ازدياد ذلك العطف ثار شعور المصريين بالتدريج ، حتى دفعهم الى الثورة على أبريس (٥٨٨ - ٥٦٦) وكان شابا متهورا ، خاضعا لجنوده الاغريق الى حد بعيد . وقد أذكى حقد المصريين عليه اخفاقه فى ميادين القتال ، فاندلع لهيب ثورة قومية معادية للأجانب ، حمل لواءها قائد مصرى يدعى أماسيس . ولم تنته هذه الثورة فى عام ٥٦٩ الا باعلانه شريكا لأبريس فى الملك . لكن ابريس قتل بعد ذلك بثلاث سنوات وخلفه أماسيس وحده على العرش .

أرتقى أماسيس العرش بوصفه عدو الأغريق ، لكنه كان أفطن من أن يحتفظ بهذه الصفة وكذلك من أن يصبح صديقا حميما للأغريق وبخاصة أول الأمر ، فنهج فى سياسته طريقا وسطا . ولكى يرضى شعور الشعب ألغى

معسكر دفنة في سياسته طريقا وسطا . ولكى يرضى شعور الشعب ألغى معسكر دفنة ونقل رجاله العسكريين الى منف ، حيث أتخذ منهم حرسا خاصا بحجة وضعهم تحت رقابته . وبالتدريج أزداد عطفه على الاغريق وضوحا ، ونستدل على ذلك من صداقته لبوليكراتس (Polycrates) طاغية ساموس وكرويسوس (Croesos) ملك ليديا ، ومن هداياه الثمينة للمعابد الاغريقية ، ومن زواجه من سيدة اغريقية من أهل قورينائية (برقة) .

وفى عهد أماسيس ساد الأمن والسلام فى البلاد ، فازدادت ثروة مصر نتيجة لرواج تجارتها شمالا وشرقا وجنوبا كما ازداد عدد سكانها ، وأنشئت عدة معابد كبيرة . وازدهرت العلوم والفنون حتى بلغت شاورا بعيدا . ومع ذلك فانه فى ذلك الوقت كانت الأمة المصرية قد شاخت وانحلت واضحت غير قادرة على الدفاع عن نفسها ، فتملكها الخوف عندما استولى الفرس على ميديا فى عام ٥٥٠ ، وعلى ليديا فى عام ٥٤٦ ، عندما استولى الفرس على ميديا فى عام ٥٣٩ ، ثم على سوريا وفلسطين بعد ذلك بقليل ، الا أن مصر كانت لاتزال مستمتعة باستقلالها عند وفاة أماسيس فى عام ٥٢٦ .

كفاح الشعب ضد الفرس

استعمر الفرس مصر سنة ٥٢٥ ق . م . بعد أن ذاقوا الويل على أيدى أبنائها الأمجاد . ولم يجدوها – كما ظنوا – لقمة سائغة أو فريسة سهلة هينة ، فقد كتب القتال على المصريين وهو كره لهم ، وكان عدوهم جبارا يمتلك موارد هائلة ، ولكنهم لم يرهبوه ، وإنما قاوموه – على نحو ما مر بنا فى الصفحات السابقة – مقاومة الأبطال الاحرار ، وأبوا عليه أن يطأ أرضهم الطيبة إلا مخضبة بدمائهم الزكية .

فمنذ فقد وادى النيل استقلاله ، وأصبح عضوا فى الامبراطورية الفارسية ، بدأ أبناؤه الأحرر كفاحهم الشعبى للتخلص من نير المستعمرين . فإن المصريين الذين بذلوا دماءهم رخيصة ذودا عن حريتهم واستقلالهم ، لم يكن منتظرا منهم أن يركنوا الى الهدوء فى ظل الحكم الاستعمارى البغيض ، فقد كانت قلوبهم تنبض بفخارها الوطنى ، وصدورهم تضطرم بنيران الحقد والكراهية للأجنبى المستعمر ، فإذا بهم يهبون فى وجهه ثائرين ، وإذا بثوراتهم تتكرر ، حتى أحالوا الوادى كله الى شعلة ملتهبة من الكفاح الشعبى المسلح .

الثـــورة الأولى

وكـان المصـريون يتـحينون الفـرص المنـاسبة للقـيام بحـركـاتهم الاستقلالية ، ولهذا تأججت نيران أول ثورة قومية ضد الحكم الفارسى فى عـام ٤٨٦ ق . م ، عندمـا كـان الملك الفـارسى « دارا » فى شـغل شـاغل بالاستعداد للزحف بقواته البرية وأساطيله البحرية على بلاد الإغريق فى قارة أوربا [١] . واشتبك المصريون وقوات الاحتلال المنبثة فى أرجاء الوادى . فأفنوها عن أخرها ، ونجحوا فى تحرير أنفسهم وبلادهم من ربقة الاستعمار ، واضطر الملك « دارا » الى تأجيل زحفه على بلاد الأغريق حتى يقضى أولا على ثورة المصريين . وقد عقد العزم على أن يتولى هو نفسه قيادة قواته الى وادى النيل .

ولكن المنية عاجلته فى سنة ٤٨٥ ق . م . فـاعتلى العرش الفـارسى بعده ابنه الملك « أجزركسيس » وبدأ هذا الملك يجهز جيشا قويا وأسطولا كبيرا لمنازلة المصريين فى ديارهم ، فلمـا اكتملت عدته فى عام ٤٨٤ق . م . زحف على وادى النيل ، فتصدى له أبناؤه الأبطال يدافعون عن حريتهم واستقلالهم ، وأبوا أن يستسلموا للملك الفارسى وجحافله الهائلة ، وإنما ثبتوا أمام سيل بشرى عرم من المهاجمين فى البر والبحر ، ولم تفلح القوات

---

(١) كان الملك « دارا » قد عزم على غزو بلاد الأغريق الأوربية وتأديبها لقيامها بمساعدة أغريق آسيا الصغرى – التابعين له – فى ثورتهم ضده . واشتبك الأغريق والفرس فى حرب طويلة تعرف فى التاريخ القديم باسم الحروب الميدنية ، بدأت بمعركة « ماراثون » التى انهزم فيها الفرس فوق الأرض الاغريقية ، وانتهت بمعركة بلاتايا البرية ، ومعركة ميكالى البحرية ، وانتصر الاغريق فى المعركتين معا ، وتخلصوا نهائيا من الاستعمار الفارسى .

وبعد هزيمة قوات « دارا » فى معركة « ماراثون » استبد به الغيظ ، وصمم على غزو بلاد الاغريق بجيش لاسبيل الى قهره ، وفى أثناء استعداده للقيام بهذا الغزو أعلن المصريون ثورتهم الاستقلالية الأولى .

الاجنبية فى احتلال أراضيهم الا على أشلائهم ، وبعد أن كبدوها خسائر فادحة .

وقد نكل الملك الفارسى بالمصريين أبشع تنكيل بعد أن احتل أراضيهم . وأقام أخاه « أخايمينيس » حاكما عليهم ، وكان رجلا غليظ القلب . اصطنع كل أساليب القسوة والعنف للقضاء على قومية المصريين وإماتة روح المقاومة فيهم ، بيد أن أساليبه الاستعمارية هذه كانت حافزا للمصريين على بذل كل ما فى وسعهم للتخلص من قبضة الفرس واسترداد استقلالهم المسلوب .

الثورة الثانية

بدأ المصريون من فورهم يستعدون لإشعال نيران ثورتهم التحريرية الثانية ، وقد واتتهم الفرصة حين اضطرت الجيوش الفارسية الى التراجع مدحورة أمام قوات الإغريق فى أثناء الحروب الميدية ، فاضطربت شئون الملك فى العاصمة الفارسية اضطرابا عظيما ، ولقى الملك « أجزركسيس » مصرعه فى إحدى المؤامرات التى شاعت فى بلاطه ، فرتقى العرش من بعده ابنه « أرتاجزركسيس » .

ولم يكن ينقص أهل مصر سوى الزعيم القادر الذى يقود ثورتهم ليخلصهم من أبغض حكم أجنبى عرفوه ، وسرعان ما عثروا على هذا الزعيم المنشود فى شخص الأمير « إيناروس » الذى أعلن الثورة على الحكم الفارسى متعونا هو وزعيم ثائر آخر يدعى « أميرتاوس » ، ووصف الشعب المصرى بجميع فئاته وطبقاته صفا واحدا خلف زعيميه هذين ، وقد عقد العزم على التخلص من ربقة الاستعمار الفارسى واسترداد كرامته الوطنية المسلوبة مهما كلفه ذلك من تضحيات .

وقد بدأ « إيناروس » بتجنيد قوة عسكرية من أبناء وادى النيل ، لكنه

وجدها غير كافية لسحق المعتدين والقضاء على حامياتهم المنبثة فى أنحاء البلد ، فاستعان بقوة أخرى من المرتزقة الاغريق فى أنحاء البلاد ، فاستعان بقوة أخرى من المرتزقة الاغريق حتى تهيأ له جيش دفاعى كبير ، ولم يكتف « إيناروس » بهذه القوة المسلحة ، وإنما بدأ يبحث عن العون الخارجى ، فتحالف هو وملك برقة ، وأوفد رسله الى ولاية « أثينا » يطلب مساعدتها لتحرير مصر ، وكانت الولايات الاغريقية قد انتهت حين ذاك من الحروب الميدية . وخرجت منها ظافرة . فكونت فيما بينها حلفا كبيرا تحت زعامة « أثينا » هو « حلف ديلوس » لذى كانت أهدافه الكبرى تنحصر فى إبعاد الخطر الفارسى عن بلاد الاغريق ، وتخريب الأراضى الفارسية نفسها انتقاما لما أنزلته الجيوش الفارسية بالأراضى الاغريقية من خراب ودمار فى أثناء معارك الحروب الميدية ، وكان طبيعيا أن تستجيب زعيمة الحلف المعادى للفرس لنداء « إيناروس » . ولهذا بعثت الى المصريين قوة بحرية لشد أزرهم فى طرد المستعمرين .

أما الملك الفارسى « أرتاجزركسيس » فقد جمع جيشا كبيرا أوفده الى مصر تحت قيادة عمه « أخايمينيس » ، والتحم هذا الجيش الفارسى وجيش مصر الثائرة فى معركة كبيرة دارت رحاها عند مدينة « بلوزيوم » على حدود مصر الشرقية . وبذل المصريون دماءهم رخيصة فى سبيل الظفر بحريتهم واستقلالهم . واستبسلت قواتهم بالرغم من ضآلتها استبسالا رائعا أمام القوات الكاسحة التى عبأها الملك الفارسى من أرجاء امبراطوريته الواسعة ، وانتصرت قوى الحق والايمان على قوى الشر والطغيان . فأنزل أبناء النيل بجيوش « الملك العظيم » — وهو لقب الملك الفارسى — هزيمة منكرة تمخضت عن مصرع الغالبية العظمى من قواته ، على حين لجأ من بقى حيا من رجاله الى الفرار من البلدان .

وهكذا كال المصريون الاحرار ضربة قاصمة للاستعمار الفارسى ،

فطار صواب « الملك العظيم » ، ولجأ الى وسيلة أخرى يحاول بها حرمان المصريين عون حلفائهم الأثينيين ، فاستغل فرصة الشقاق الذى دب بين زعيمتى العالم الاغريقى « أثينا واسبرطة » - على أثر تكوين حلف « ديلوس » - وبعث الى الاسبرطيين سفيره « ميجابازوس » يعرض عليهم عقد حلف عسكرى لغزو « أثينا » حتى تضطر هذه الى سحب قواتها من مصر ، ومن ثم يقف المصريون وحدهم فى الميدان . لكن هذه المحاولة الاستعمارية باءت بالفشل الذريع ، إذ قوبل السفير الفارسى فى إسبرطة مقابلة غير كريمة . واضطر الى العودة كاسف البال من حيث اتى .

وحين ذاك لم يجد « أجزر كسيس » بدا من قتال المصريين مرة أخرى . فجمع حشودا جديدة من أنحاء امبراطوريته ، وأعد أسطولا ضخما قوامه ثلثمائة سفينة حربية هائلة ، وأرسل هذه القوات البرية البحرية الكاسحة الى وادى النيل . ولم يفزع المصريون وحلفاؤهم الأثينيون ، وإنما خاضوا المعركة أبطالا يدافعون عن حريتهم واستقلالهم . وحاربوا حربا مريرة غير متكافئة أمام جحافل لا حصر لها . فلم تستطع القوة الغاشمة أن تدخل بلادهم الا بعد أن قاست الأهوال وكابدت أفدح الخسائر .

الثورة الثالثة

ولم يتسرب اليأس الى نفوس المصريين المكافحين . وإنما كانت الدماء الزكية التى أهرقها المستعمرون على أرض الوطن حافزا لهم على الاستماتة فى سبيل استخلاص حريتهم من برثن الملك الفارسى .

وكان « أجزركسيس » قد توفى حوالى عام ٤٢٤ ق . م . فخلفه على العرش الملك « دارا الثانى » . وحاول هذا الملك أن يجتذب قلوب المصريين بأسلوب جديد ينطوى على العطف واللين بدل أساليب البطش والعدوان التى اتبعها أسلافه . ولهذا أحسن معاملة الأهالى واحترم الآلهة المصرية وتودد الى الكهنة عله يظفر بفترة من الهدوء والاستقرار على جنبات

الوادى . بيد أن روح الكفاح التى سرت فى دماء المصريين كانت أقوى من أن تخمدها مثل هذه الأساليب الاستعمارية الخبيثة . فسرعان ما بدأ الاستعداد لجولة ثالثة ضد الاستعمار البغيض .

وتزعم حرب التحرير الجديدة مصرى ثائر يدعى « أميرتاوس الثانى » الذى جمع جيشا كبيرا من أبناء الوطن والمرتزقة الاغريق . وهاجم حاميات الملك الفارسى المنتشرة فى أرجاء البلاد فقضى عليها . ثم نادى بنفسه ملكا على مصر المستقلة حوالى عام ٤٠٤ ق . م .. مؤسسا الأسرة الثامنة والعشرين الفرعونية .

ونشط « الملك العظيم » ليقضى على ثورة المصريين ، فبعث بحشوده الهائلة الى وادى النيل لتأتيه برأس هذا المصرى الذى أعلن استقلال بلاده وتحررها من قبضة الفرس . ولكن القوات المصرية الباسلة استماتت فى الدفاع عن ارض الوطن ، فأنزلت - بالرغم من ضآلتها - هزيمة منكرة بجيوش « الملك العظيم » وأكرهتها على التراجع دون أن تظفر بشىء . ولم يستطع الملك الفارسى أن يجهز قوات جديدة لمنازلة المصريين بسبب ما كان يسود عصمة ملكه من قلاقل واضطرابات .

وهكذا تحررت الأرض الطيبة من دنس المستعمرين ، وتبوأ الفراعنة عرش آبائهم وأجدادهم الأولين ، ونعمت البلاد باستقلالها نحو سبعين عاما توارث العرش فى خلالها ملوك الأسرات الـ ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ الذين عملوا ما فى وسعهم الطامعين ، فتحالفوا هم وملوك قبرص وحكام أثينا ، ونشطوا فى تعمير ما خربته قوات الشر والعدوان .

ولكن ملوك الفرس لم ينسوا ثراء مصر وخصوبة تربتها وأهمية موقعها الجغرافى ، فقد فقدوا بفقد وادى النيل ألمع درة فى تاج إمبراطوريتهم الواسعة ، ولهذا باتوا يحلمون باسترداد هذه الدرة الغالية ، ويتحينون الفرص للانقضاض من جديد على هذا الوادى الأمين والاستيلاء

على خيراته الوافرة .

وسنحت لهم الفرصة حوالى عام ٣٨٦ ق . م . عندما عقد الصلح بين بلاد فارس والإغريق ، فاذا بمصر تفقد معاونة حلفائها الأغريق ، وتقف وحدها فى ميدان النضال ، فعبأ الملك الفارسى قواته فى البر والبحر ، وأرسلها الى مصر لتعيدها كما كانت جزءا من ممتلكاته ، لكن المصريين وقفوا لهذه القوات بالمرصاد وأنزلوا بها هزيمة مريرة ، وردوها على أعقابها دون أن تظفر من أراضيهم بشبر واحد .

ولم ييئس ملوك فارس من معاودة الكرة ، فأعد « أرتاجزركسيس أوخوس » قوة برية وبحرية هائلة ، وزحف بها على مصر فى سنة ٣٤٢ ق . م . وكان يجلس على عرش الفراعنة حين ذاك « نختنابو الثانى » آخر ملوك الأسرة الثلاثين ، وقد حشد هذا الملك قواته واشتبك بها وقوات الملك الفارسى فى حرب ضروس بذل فيها المصريون دماءهم رخيصة فى سبيل الذوذ عن حريتهم واستقلالهم . لكن الكثرة الجارفة غلبتهم على أمرهم ، فتراجعوا الى « منف » حيث لحقت بهم قوات الملك الفارسى . وبعد معركة مزيرة أخرى ، استطاعت القوات المعادية أن تحتل البلاد .

بيد أن المصريين لم يستسلموا لهذا الطغيان ، وإنما ظلوا يناوئون المستعمر حتى أحالوا حياته بينهم جحيما مستعرا بنيران الغضب والانتقام ، وظلوا كذلك الى أن تغيرت الأوضاع فى العالم القديم كله على إثر قيام الأسكندر الأكبر بغزو الشرق .

تلك هى صفحة الكفاح الشعبى ضد الاستعمار الفارسى ، وهى صفحة تفيض بضروب البطولة والتضحية ، وأنها لجديرة بابناء وادينا الأمجاد الذين جعلوا من أرضهم قبرا لغزاتهم الطامعين فيهم .

كان المصريون يقفون فى وجه المستعمرين المعتدين مسلحين

بسلاحين بتارين : سلاح الايمان ، وسلاح الحق . وكلاهما أمضى من أية جحافل يمكن أن تحشد في أى ميدان . فإذا غلبوا على أمرهم أمام الجيوش الاستعمارية الجارفة ، لم يهنوا ولم يستسلموا ، وإنما كانوا دائما يعملون جاهدين لتخليص أنفسهم من ربقة الاستعمار ، وكانوا يستعينون على بلوغ اهدافهم فى الحرية والاستقلال بالتحالف مع الأمم الحرة القوية التى كانت لاتبخل عليهم بالمعونة ، فتمدهم بالرجال والسلاح ، وتقف الى جانبهم تشد أزرهم فى معارك الشرف والاستقلال .

وكانت العلاقة بين المصريين والاغريق قوية متينة فى خلال فترتى الاستعمار الفارسى وفترة الاستقلال التى فصلت بينهما : فقد أمدت أثينا المصريين بقوة بحرية عاونتهم على حرب التحرير التى أعلنها « إيناروس » . وحالفتهم اسبرطة بعد أن انتصر « أميرتاوس الثانى » على جيوش الفرس وأعلن نفسه ملكا على مصر المستقلة . وكان المرتزقة الاغريق لايترددون فى الانضمام الى صفوف اقوات المصرية كلما دعوا الى ذلك ، وأبلى هؤلاء المرتزقة بلاء حسنا فى الحرب المريرة التى دارت بين « نختنابو الثانى » والملك الفارسى ، فلم يضعفوا قط ، وانما وقفوا الى جانب إخوانهم المصريين يبذلون دماءهم فى شجاعة وإصرار حتى اللحظة الأخيرة .

أ – مراحل تطور العلاقات بين اليونان ومصر قبل الفتح المقدونى :

يمثل فتح الاسكندر الأكبر لمصر عام ٣٣٢ق . م نقطة تحول كبرى فى تاريخ مصر العام . اذ عندها ينتهى تاريخ مصر الفرعونية ويبدأ تاريخ مصر فى العصر البطلمى والرومانى . والأحداث الكبرى فى التاريخ لاتحدث فجأة ، وانما تكون نتيجة لعوامل ومقدمات تسبقها وتنتهى اليها . فلم يكن فتح الاسكندر المقدونى لمصر عملا فرديا فجائيا وانما سبقته مقدمات وعوامل قادت الى النتيجة الطبيعية وهى فتح مصر . من أجل هذا كان من الضرورى عند كتابة تاريخ مصر فى تلك الفترة على أساس علمى أن تدرس نوع العلاقات [1] التى وجدت بين مصر وبلاد اليونان قبل فتح الاسكندر الأكبر .

لم يأت الاغريق الى مصر مع الاسكندر للمرة الأولى ، بل أن العلاقات بين الاثنين ترجع الى اقدم الحقب التاريخية ، فقد كشفت الحفائر التى تمت حتى الآن فى جزيرتى كريت وساموس عن آثار مصرية تثبت وجود علاقات بين مصر وهذه الجزيرة منذ عصر ماقبل الاسرات ، وان التقارب بينهما بلغ ذروته فى عصر الدولة الحديثة . وتؤيد هذه الآثار نقوش مصر القديمة التى تمثل وفدا من أهل كريت يقدمون لتحوتمس الثالث اوانى فضية وسبائك من البرونز ، لعلها هدايا للملك المصرى من اجل تحسين العلاقات وللسماح لهم بالتبادل التجارى مع مصر .

(١) د/م العبادى : مصر من الاسكندر الاكبر الى الفتح العربى ص ٧ وما بعدها

ولم يقتصر الأمر على كريت ، بل أن الآثار المصرية التى عثر عليها بكميات وفيرة في مناطق مختلفة من شبه الجزيرة اليونانية ذاتها تثبت ان تجارة مصر قد وصلت الى الاسواق اليونانية الهامة فى ذلك الوقت فكل اسبرطة ومركبتى وارجوس . لكن هذ العلاقات الاولى تنتهى عند نهاية الالف الثانى ق . م بعد سقوط الدولة البيونية فى كريت والدولة الميكينية فى شبه الجزيرة .

مرت بلاد اليونان فى القرون الثلاثة التالية بفترة من الفوضى والاضطراب بسبب الغزو الدورى وآثاره ، وفى نفس الوقت حثت فى مصر تطورات سياسية عنيفة قضت على الدولة الحديثة وعرضت البلاد للحكم الليبى والفارسى .

وكان لظهور اسماتيك مؤسس الاسرة ٢٦ (٦٦٣- ٦١٩ق .م) فى تلك الفترة الحاسمة ، اثر بالغ الأهمية . فقد اجلى كل الحاميات الاجنبية وكان آخرها الحامية الاشورية التى كلنت ترابط فى أرض الدلتا . وبذلك تخلصت مصر منهم نهائيا . وسار ابسماتيك نحو التقدم والرخاء فقد استمر فى احياء مجد البلاد القديم والرجوع الى ماكان لمصر من علوم وفنون وثقافة حتى رد لها شيئا من مكانتها القديمة .

يضاف الى ذلك انه أخذ يتصل بالبلاد الاجنبية لمجاورة لمصر وخاصة انه كان فى حاجة الى تكوين جيش قوى فى تلك الفترة ليدافع عن مصر وليتصدى لكل الاعداء والمماليك الناشئة التى ظهرت فى العالم وقتئذ على انه لم يكن في استطاعته ان يحقق هذا الهدف لو اعتمد على الجنود الوطنيين فقط . ومن ثم لم يسق أمام ابسماتيك وسيلة أخرى للنهوض

بالجيش الا أن يؤلف جيشا من الجنود اللذين كانوا يفدون عليه فى مصر من البلاد الاخرى، وخاصة بلاد الاغريق ، مما عرف عنهم من تقدم فى فنون الحرب والتسليح . فسهل لهم ابسماتيك الاستيطان فى مصر وكان سخيا معهم فى معاملته ، ليحقق غرضه فى أن يجعلهم يخلصون فى خدمته . فمنح [١] هؤلاء الجنود المرتزقة قطاعات من الأرض الممتدة على الفرع البلوزى للنيل (فرع دمياط) عند تل دفنه (الى الجنوب من موقع مدينة دمياط الحالية) ليرزعوها اوقات السلم ويستقروا بها . وبلغ من سخاء ابسماتيك على جنوده ان قربهم الى شخصه ومنحهم مرتبة [٢] الشرف فى جيشه . ولقد كان هؤلاء الجنود يجنون فائدة كبيرة من زراعة الارض ومن الأجور العالمية . ووصل ابسماتيك الى درجة كبيرة فى ثقته بهم حتى انه جعل الاطفال المصريين يتعلمون اللغة اليونانية [٣] بل وانشأ اولاده تنشئة يونانية .

ولما تولى أمازيس (من ملوك الاسرة ٢٦ من ٥٧٠ - ٥٢٧ ق . م) الملك بعد ذلك نقل الجنود المرتزقة واسكنهم مدينة منف . اذن لقد اقام الجنود المرتزقة عند دفنه وفى مدينة منف بينما عين حكام مصر مدينة نقراطيس [٤] شمال غرب الدلتا مركزا لاقامة التجار الاغريق .

(١) عن تفاصيل الاجور التى كانت تمنح لهم انظر :

Herod. 11 . 168 .

(2) Diod . 1 . 67 .

(3) Herod. 11 . 154, Diod. 1 . 67 .

(٤) نقراطيس هى اقدم المدن اليونانية ، انشأت حوالى القرن السابع ق . م تقع شمال غرب الدلتا . كانت مركزا تجاريا هاما ، يمكن عن طريق التحكم فى الصادرات والواردات من والى اليونان وتمتعت المدينة اليونانية وبدأت المدينة فى الاضمحلال منذ القرن الثانى . مكانها الان قرية كوم جعيف مركز ايتاى البارود .

الموسوعة المصرية ، المجلد الاول ، الجزء الثانى - كوم جعيف .

اذن يمكننا أن نفهم أهمية هذه العلاقة الوثيقة التى تمت بين الاغريق والمصريين منذ القرن السابع حتى عصر الاسكندر ، ومعرفة حقيقة الظروف التاريخية التى فى ظلها نمت واشتدت هذه الاتصالات حتى اصبحت ضرورة سياسية فى كل من مصر واليونان على السواء ، فمن البديهى انه قلما انفصلت العلاقات الاقتصادية عن السياسة فى العلاقات الدولية . وهذا هو ما حدث بين مصر وبلاد اليونان فى هذه الفترة فقد تلازمت السياسة والاقتصاد فى هذه الحقبة أيضا .

لقد كانت هناك ظروفا معينة هى التى حددت صورة الموقف السمسدولى خلال هذه القرون الثلاثة .

اولها: ان فارس قد اصبحت اقوى دولة فى العالم القديم فى القرن السابع واخضعت مصر لسطانها وكذلك كانت أكبر خطر واجهة الاغريق فى تاريخهم القديم باسره ، فقد كانت فارس عدوا مشتركا لكل من اليونان ومصر .

ثانيا : كانت مصر مركزا من أهم مراكز انتاج القمح فى العالم بينما كانت بلاد اليونان من اقلها انتاجا له ، ولهذا كانت المدن اليونانية فى حاجة دائمة الى قمح مصر .

ثالثا : انتشرت فى هذا الوقت عادة استخدام الجنود المرتزقة وكان الاغريق من خيرة هذه الجنود ، فاستعان بهم ملوك العصر الصاوى للقضاء على العناصر الليبية المتغلغلة فى صفوف الجيش المصرى آنذاك ولمقاومة العدوان الفارسى .

رابعا :كانت بلاد اليونان غنية فى مناجم الفضة وكانت قد توصلت الى

استخدامها فى صناعة العملة التى اصبحت الوسيلة العالمية للتبادل التجارى ودفع الاجور . وفى نفس الوقت لم يكن لدى مصر مناجم فضة ولذا كانت فى حاجة الى فضه الاغريق فى صورتها الجديدة وهى العملة لتسليح جيشها ودفع اجور الجنود المرتزقة .

نتيجتان هامتان لهذا التقارب التجارى السياسى يمكن أن نختم بها هذه المقدمة التاريخية عن العلاقات بين مصر واليونان .

الأولى : ان وفرة العملة اليونانية فى مصر جعل المصريون يقدمون على اصدار عملة مصرية لأول مرة . ولقد كان الرأى السائد الى زمن قريب ان الاسكندر والبطالمة هم أول من سك العملة فى مصر . ولكن اكتشاف العملة ودراستها فى السنين العشر الأخيرة تدل على انه فى عصر الاسرات المتأخرة شرع المصريون فى صناعة العملة . والنماذج التى عثر عليها من هذه العملة ذهبية فقط وتحمل على أحد وجهيها رسم حصان راقص وعلى الوجه الاخر كتابة هيروغليفية ترجمتها « ذهب جيد » .

النتيجة الثانية : انه عن طريق التبادل التجارى الوثيق أخذ الاغريق يدركون مدى ثراء مصر واهميتها كمصدر للغلال . وكان ذلك فى الوقت الذى اتجهت فيه افكار اليونان نحو غزو اسيا وهو العمل الذى حققه الاسكندر .

ولما كان الاسكندر سياسيا موهوبا وقائدا عبقريا فلابد انه ادرك اهمية امتلاك مصدر كبير للقمح لتموين بلاد اليونان من ناحية ، وجيوشه الغازية فى آسيا من ناحية أخرى ومصر ممكن أن تقوم بهذا الدور . ولعل هذا من أكبر الدوافع وراء قرار الاسكندر الخطير بعد معركة ايسوس ان يسير الى مصر اولا بدلا من تتبع الملك الفارسى المنهزم الى الشرق .

ب – الفتح المقدونى

فيليب الثانى Philippus II

(٣٥٩ – ٣٣٦ ق . م)

كان فيليب قد أرسل وهو فى سن الخامسة عشرة كرهينة الى طيبة (باقليم بويوتيا) حى أقام ثلاث سنوات . وقد أفاد من هذه الاقامة التى هذبت من طباعه القومية الموروثة التى تتسم بشىء من البدائية والخشونة . لقد كان المقدونيون على الرغم من تأثرهم بمظاهر الثقافة الاغريقية لايزالون أمة غير متمدنية . وقد وافقت اقامته وقتا كانت فيه طيبة زعيمة لبلاد الاغريق عسكريا وسياسيا (٣٧١ – ٣٦٢) . وهكذا سنحت له الظروف أن يتزود حينئذ بقسط كبير من الثقافة الأدبية والمعرفة العسكرية اذ تردد على نواديها التربونية ، وشاهد ترساناتها وخبر أنواع أسلحتها . وكان هؤلاء جميعا نماذج بالنسبة لفيليب وقدوة ، ومبعث الهام له وحافزا على أن يجعل من بلاده دولة ان لم تكن هللينية الطراز فعلى الأقل شبيهة بالدول الهللينية ، وعلى أن يحرز لنفسه مكانة مرموقة كمكانة زعماء طيبة وقادتها الذين كانوا الى جانب همتهم العالية وذكائهم المفرط يجمعون فى ثقافتهم بين المعرفة العسكرية والمعرفة الفلسفية والأدبية .

فى الواقع أن مقدونيا – كما يروى المؤرخ ليفيوس – لم تنل حظا من الشهرة الا منذ عهد فيليب الثانى Philippus (٣٥٩ – ٣٣٦) . فقد بدأ بتنظيم شئون بلاده الداخلية ، ووجد الأمة بأن شد النبلاء بدرجة أكبر الى القصر دون أن يحرمهم من أمتيازاتهم الأساسية . فقرر فيليب أن يتلقى أبناء هؤلاء الأقران مع أمراء البيت المالك تعليما مشتركا فى

البلاط الملاكى ، وقصر عليهم المناصب والمرتب الكبرى مما أبقاهم على مقربة منه . لقد جعل منهم صفوة مختارة متميزة تتمتع بامتيازات أكثر من قبل وأما والفلاحون الأحرار فعلى الرغم من بقائهم مرتبطين بقبائلهم وزعمائهم المحليين بروابط الولاء القديمة ، الا أن انخراطهم فى سلك الجندية كمشاة رفع من قدرهم وزاد من اعتزازهم القومى وجعلهم يشعرون شعورا أقوى بانتمائهم الى وطن واحد أو أمة واحدة . وهنا نلمس ما كان للجيش المقدونى من أثر وفضل فى دعم وحدة الأمة . لقد كان الفخر بالمجد القومى هو ما يحرك هذه الهيئة المحاربة . ولما كان الملك ذاته قد صار رمزا تتجسد فيه أمال الوطن ، فان هذا الشعور لم يكن منفصلا عن الولاء لشخص الملك وأسرته . كانت خدمة الملك هى واجب كل مقدونى ومناط فخره . وطن على الملك بدوره أن يخدم المقدونيين ويقودهم بوصفه زعيما أو حتى سيدا ، لكن دون أن ينسى أنه يقود رجالا أحرارا يقاسمهم أعباءهم مثلما يقاسمونه هم مجده .

ولعل أعظم مقومات نجاح فيليب - بغض النظر عن كفايته الفطرية - هو استيلاوه على أمفيبوليس فى عام ٣٥٧ ، وعلى مناجم الذهب فى جبل بنجايوس عبر الحدود الطراقية . كانت أمفيبوليس - التى تقع على الضفة الشرقية من نهر ستريمون ولاتبعد عن البحر بأكثر من ثلاثة أميال - مدسنة طراقية الأصل - استعطمرها الأثينيون عام ٤٣٧ - ثم استسلمت المدينة لاسبرطة أثناء الحرب البظلوبونيزية عام ٤٢٤ . ولم يستطع الأثينيون استردادها برغم من بذلوه من جهود عسكرية ودبلوماسية ، فظلت المدينة مستقلة . وكانت أمفيبوليس تسيطر على الممر المؤدى الى طراقيا حيث يقع أيضا على الضفة الشرقية لنهر

ستريمون جبل بنجايوس الذى اشتهر بمناجم الذهب ، حيث اشتبك الأثينيون وقتئذ مع القبائل الطراقية المحلية من أجل الاستيلاء على هذه المناجم .وكان أحد أسلاف فيليب وهو الإسكندر الأول (حوالى ٤٩٥ - حوالى ٤٥٠ / ٤٤٠) قد دفع بحدود مقدونيا الشرقية الى الضفة الغربية لنهر ستريمون بمحاذاة مجراه الأدنى (بعد ٤٧٩) . لكن فيليب الثانى هو أول ملك مقدونى ينتزع هذه المنطقة الغنية ويضمها الى ممتلكاته . وقد وطد سيطرته عليها بتأسيس مدينة فيها تحمل اسمه وهى فيليبى فى عام ٣٥٨ - ٣٥٧ .

هذه المناجم درت على فيليب دخلا سنويا يقدر بحوالى ١٠٠٠ تالنت . وصار هذا الدخل دعامة لسلطته اذ مكنه من ربط بلاده بشبكة من الطرق ، وانشاء جيش قومى دائم لأول مرة فى تاريخ بلاده ، يتألف من جنود محترفين كان أعظم من أى قوة عرفت حتى ذلك الحين . لقد استخدم اذا دهب مناجم بنجايوس - مثلما استخدم ثيميستوكليس الاثينى من قبله (٤٨٢) فضة مناجم لاوريوم (باقليم أتيكا) فى بناء القوة البحرية - للضغط العسكرى وممارسة الضغط السياسى كلما تلوح الفرصة . لقد اختار من بين الفلاحين والرعاة - وهم خامة قتالية ممتازة - أصلح العناصر ونظمهم فى شكل فيلق مشاة ثقيلى العدة (phalanx) غير كثيف . وخلع عليهم لقب « اقران الملك المشاة » (*pozetairoi*) وهو لقب فخرى منح لهم على سبيل التشريف واثارة الحماس . ويسمى الاغريق المشاة ثقيلى العدة باسك هوبليتاى (hoplitac) وهم الذين كان كل جندى منهم يتسلح بدرع ثقيل من البرونز مثبت على الكتف والذراع الأيسرين بسيور من الجلد ، ويقى صدره بزرد (thorax) من

النحاس أو الجلد ، ويضع فوق رأسه خوذا من البرونز وأحيانا من الجلد يتلى منها غطاء لوقاية الأنف والخدين ، ويرتدى وقائين برونزيين حول ساقيه . وكان الدرع الثقيل والزرد والخوذة ودرعا الساقين هى أسلحته الدفاعية ، وان كان الدرع البرونزى الثقيل هو سلاحه الدفاعى الرئيسى . وأما للهجوم فكان الجندى يحمل سيفا قصيرا من الحديد يستعمل عند الالتحام مع العدو . وأهم من ذلك حربة من الحديد طولها حوالى تسع أقدام تسمى ساريسا (sarissa) للطعن (لا للقذف أو الرمى) .

لكن فيليب جهز مشاة الفيلق المقدونى المعروفين أيضا باسم اسلحة أثينية حديثة . غير أنه جعل سلاحهم أخف نوعا من المعتاد . وزودهم أيضا بالساريسا (sarissa) التى جعلها أطول فأصبح طولها يتراوح بين ١٣ و ١٨ قدما (وذلك حسب الصف الذى يقف فيه الجندى ، فمن يقف فى الخلف تكون حربته أطول) . كان هذا الطراز من السلاح يتيح للجندى حرية تحريك يديه لاستعمال الحربة الطويلة (الساريسا) ، لأن يده اليسرى لم تعد مقيدة بالدرع البيضاوى الشكل الثقيل التقليدى الذى استبدل به ترس صغير خفيف يتدلى من عروة فوق الذراع اليسرى للجندى . كما نظم فيليب الفيلق المقدونى على نسق الفيلق الطيبى بحيث أصبح تشكيله العسكرى أكثر عمقا (ما بين ٨ ، ١٦ صفا) على امتداد خط القتال . وجدد فى التكتيك وأساليب القتال ، فوسع المسافة بين الجندى وزميله ، مع تدريب الجنود على سد الثغرات عند الضرورة . وبذلك يكون فيليب قد جمع فى جيشه بطريقة ماهرة بين ميزتين هما مرونة الحركة وقوة الحشد والتركيز .

وكان هذا الفيلق المقدونى أو الفلانكس المؤلف من المشاة ثقيلى

الحدة ، حاملى الجراب الطويلة ينقسم الى ست (أو سبع) كتائب (ألوية) تسمى كل منها تاكسيس ،وكانت كل كتيبة (أو لواء) تنقسم بدورها الى وحدات أصغر فأصغر .

كان الفيلق المقدونى هو الذى بدأ فى العادة بالهجوم حيث أنه كان مسلحا بحراب طويلة ثقيلة . وكان جنود الصفوف الخلفية يحملون حرابهم مائلة (فوق رؤوس جنود الصفوف الأمامية) ، وبعدئذ مسطحة لتسديدها والطعن بها عندما يخطون الى الأمام أخذين مواقع زملائهم القتلى فى المقدمة . لقد إستخدم الفليق أذن للأشتباك الزولى مع العدو وفتح ثغرا بين صفوفه ثم تشتيته . وعندما تأتى للحظة النفسية المناسبة يندفع الفرسان (أقران الملك) الى الأمام لتطويق جناح العدو والانقضاض عليه وتدمسره .

وبفضل ماتوافر لدى فيليب من ثروة مناجم الذهب فى بنجابوس وأنشأ وحدة من المشاة خفيفى العدة يعرفون منتكسو الدروع صدورهم وهو سلاح هللينى تقليدى . وكانوا مسلحين بتروس صغيرة خفيفة وحربة قصيرة ، ويرتدون جلبابا سميكا قصيرا من الكتان (بدلا من الصديرية أو الزرد) ، وقبعة عريضة من اللباد بدلا من الخوذة البرونزية أو الجلدية . وكان عدد المشاة خفيفى العدة يبلغ حوالى ضعف عدد مشاة الفيلق تقريبا . وكانوا ينقسمون (فى ايام الاسكندر) الى أربع وحدات تسمى كل منها (أى تضم ١٠٠٠ رجل). وكان عملهم الرئيسى هو تغطية جناحى فيلق المشاة .

وأما عن سلاح الفرسان فى الجيش المقدونى فكان يتألف من قسمين أو فرقتين احداهما فرقة الفرسان أقران الملك ثقيلى العدة . وأما

القسم أو الفرة الاخرى فهى الفرسان خفيفو العتاد الذين كان أغلبهم من الحلفاء الالليريين والطراقيين والبايونيين وعلى الأخص الثيساليين وهم أكثرهم عددا وأشدهم بطشا ، وكذلك من المرتزقة غير المقدونيين ممن يتقنون الرماية والسهم والمقلاع . كانت مهمة الفرسان خفيفى العتاد الرئيسية هى القيام بالمناوشات الأولية وتغطية هجوم الفرسان النبلاء أقران الملك ثقيلى العدة ، وذلك بمهاجمة جناحى العدو ، ويقومون أيضا بمهمة الاستكشاف والاستطلاع أو التجسس قبيل تقدم الجيش أو اثناء مسيرته .

ومن طيبة اقتبس فيليب فكرة تنسيق الحركة بين المشاة والفرسان والفصل الحركى بين جناحى الجيش بحيث أن أحدهما كان للهجوم والآخر للدفاع . ولم يقتصر فيليب على تدريب هذه القوات عسكريا ، بل درب رجالها على المشى بخطوات سريعة لمسافات طويلة ، وهم حاملون عتادهم ومؤونتهم . وأخضعهم لنظام من الضبط والربط الصارم ، وشجعهم على الاشتراك فى المباريات الرياضية . وكان فى وسع فيليب ، اذا اقتضت الظروف ، ان يلحق الات حصار فعالة بهذه القوة المقاتلة . هكذا ابتدع الملك الكقدونى نظاما عسكريا أكثر تعقيدا وجيشا قوميا أكثر كفاية من نظام وجيش ديونيسيوس الأ٫ل طاغية سراقوسة الذى كان قد جعل من مدينته أغنى دولة فى أوروبا وأقواها عسكريا (٤٠٥ - ٣٦٧) . كان تفوق جيش فيليب يرجع فى المقام الأول الى صفات جنوده العسكرية ، والكفاية القتالية التى اكتسبوها من طول الخدمة ، ومقدرة القائد وضباطه .

غير أن السلاح الذى أحرز به فيليب ومن بعده الاسكندر

انتصاراته لم يكن فيلق المشاة المتراص ثقيلى العدة المزودين بالحراب الطويلة ، أو المشاة المختارين خفيفى الحدة ، وانما كان سلاح الفرسان « أقران الملك » ثقيلى العدة المؤلف من النبلاء والذى يمثل الصفوة العسكرية ، والذى كان يعهد اليه بالقيام بالمهجمة الاخيرة الحاسمة فى المعركة .

كان ذهب مناجم بنجايوس يمثل عنصرا جوهريا فى دبلوماسية فيليب التى كشف فيها عن براعة فائقة . فعن طريق شراء الاصدقاء ، ومكافأة العملاء ، والتودد الى السفراء ، والكياسة والدماثة استطاع فيليب أن ينشىء فى كل دويلة اغريقية حزبا مواليا له . كانت هناك دويلات تخشى على مصالحهما من تهديده بالعدوان عليها . لكنه كان فى العادة قادرا على تخديرها فتهدأ وتشعر بالاطمئنان الى أن تحين الفرصة المواتية فيكيل لها الضربة القاصمة . ولم يكن لديه وازع من ضمير ، اذ لم يتورع عن الكذب والخداع ، ولم يكن ليحجم عن خرق هدنة أو نقض عهد لتحقيق هدفه وبلوغ غايته . كانت أطماع فيليب شخصية وأسرية الى جانب أنها كانت قومية . كان أكثرها من ملك وطنى لمقدونيا . لقد كان ينظر الى الاغريق — على ما يرجح — نظرته الى المقدرئيين . ذلك بأن الاغريق كان من الممكن أن يفيدوه كجنود ورجال ادارة ، وكقوم مثقفين يمكن اقتباس ثقافتهم لتمدين المقدونيين . كان هدف فيليب زيادة سطوته الشخصية ودعم نفوذ مقدونيا وانتهج فى ذلك سياسة ثابتة . فكلما غزا منطقة جديدة أدمجها فى جسم دولته النامية .

واصطدم تصميم فيليب على غزو المنطقة الساحلية المتاخمة لدولته

بمصالح عصبة خالكيديكى وأثينا . واستطاع بدبلوماسيته المعهودة تخدير خالكيديكى فلم تحرك ساكنا بينما مضى ليضم أمفيبوليس وممتلكات أثينا الاخرى بالمنطقة (٣٥٧) . واعلنت أثينا الحرب عليه لصد عدوانه (عام ٣٥٧) . لكنها كانت حربا اسمية أكثر منها فعلية ، اذا اقتصرت فى البداية على اشتباكات متباعدة بين الحين والحين . واستمرت احدى عشرة سنة انتهت بالصلح المسمى صلح فيلوكراتيس عام ٣٤٦ . كانت أثينا مكتوفة اليدين وقتئذ بحرب أخرى مع أعضاء الحلف الاثينى الثانى الذين تمردوا عليها (٣٥٧ - ٣٥٥) . اذ انشقت عليها خيوس ورودس وبيزنطة وقوس ودويلات اخرى . ولم يتبق فى يد أثينا بعد نهاية هذه الحرب (حرب الحلفاء) سوى جزيرة يوبويا ، وبعض جزر الكيكلاديس وجزر شمال البحر الايجى ، وسوى جزء من طراقيا . وثمة عامل آخر كان له تأثيره فى ضعف أثينا وهو ما كانت تنفقه من رصيدها الاحتياطى لمعاونة فقراء المدينة واعانتهم لمشاهدة المسرحيات بالمجان . وكان ذلك يشكل عبئا ثقيلا على خزانة المدينة وان كان من حسن حظها أن تولى أمرها بعد حرب الحلفاء يوبولوس الذى أدار شئونها المالية ادارة رشيدة جنبتها متاعب جمة وبدهى أن انشغال اثينا « بحرب الحلفاء » قد استغرق كل وقتها فلم تشارك مشاركة جدية فيما كان يجرى من أحداث داخل بلاد الاغريق . لقد منعها هذا الانشغال من القيام بدور فعال فى الحرب المسماة « بالحرب المقدسة الثالثة » التى نشبت حينئذ (٣٥٦) ، وهى حرب ترتبت عليها آثار خطيرة . لكن ينبغى قبل أن نستعرض هذه الحرب أن نشير الى أن فيليب قد اتبع انتصاره بآخر اذ زحف جنوبا واستولى على بيدنا وسيطر على شمال ثيساليا (شتاء عام ٣٥٧ - ٣٥٦) ثم دمر بوتيدايا احدى مدن

خالكيديكى- فى العالم التالى (٣٥٦) ، وهو العام الذى ولد فيه ابنه الاسكندر . واتجه شرقا حيث ستولى على الجزء الأكبر من طراقيا . وحقق بذلك حلم مقدونيا القديم بمد حدودها الطبيعية الى البحر . كما ترتب على احتلاله لخط ساحلى طويل أن زاد دخله من المكوس الجمركية العالية ، مما أتاح له ن يبنى سفنا لمهاجمة سفن أثينا فى شمال البحر الايجى وضرب تجارتها .

مقدونيا وبلاد الاغريق فى زمن الحرب المقدسة الثالثة :

كانت طيبة التى تحدثنا عن زعامتها لبلاد اليونان فى الفترة ما بين معركة ليوكترا (عام ٣٧١) ومعركة مانتينما (عام ٣٦٢) ، لاتزال تطمع بعد المعركة الاخيرة فى دمج مدن بويوتيا تحت زعامتها . وقد لقيت فى ذلك مقاومة شديدة وعلى الاخص من أورحومينوس . عدوتها التقليدية فى نفس الاقليم . كذلك أخفقت محاولاتها لفرض ارادتها على جارتها المتخلفة فوكيس . غير أن طيبة كانت قد أحرزت أثناء فترة زعامتها على بلاد الاغريق (٣٧١ - ٣٦١) السيطرة على « حلف دلفى الأمفكتيونى » ، وهو حلف كان فى الأصل ذا طابع دينى يتألف من بعض دويلات بأقاليم وسط بلاد الاغريق وشمالها الشرقى ولاتبعد عن معبد أبوللون فى دلفى الذى كانت حمايته هى الهدف الأصلى من تكوين هذا الحلف . وقد اكتسب الحلف الأمفكتيونى على مر الزمن أهمية ولم تعد أهداف مقصورة على الشئون الدينية . وكان يضم ١٢ دويلة لكل منها صوتان فى مجلس الحلف . وقد استغلت طيبة سيطرتها على الحلف واستخدمته كأداة لتحقيق أعرافها وضرب خصومها والتنكيل بهم . وحدث فى عام ٣٥٦ أن وضع أهل فوكيس أيديهم على سهل

كريسا (الذى يقع بين دلفى وكيرا) وبدأوا يزرعونه لأنفسهم . فعلوا ذلك لأنهم لم ينسوا أنهم كانوا قديما يسيطرون على شئون معبد دلفى على الأقل حتى « الحرب المقدسة الثانية » (٤٤٨ ق.م) . وكان سهل كريسا ملحقا بدلفى ومقدسا للاله أبو للون وموقوفا على عبادته . واغتنمت طيبة الفرصة للانتقام من غريمتها فوكيس فدعت مجلس الحلف الأمفكتيونى للانعقاد وطالبت بمعاقبة أهل فوكيس المعتدين الذين انتهكوا حرمة السهل المقدس . ونجحت فى استصدار قرار من الحلف بادانة فوكيس بتدنيس المكان والزامها بدفع تعويضات عما ارتكبته ، مع توجيه انذار باشهار الحرب عليها .فرارا باعلان الحرب رسميا على فوكيس فى خريف عام ٣٥٥ .

ونكل فيليب بالأسرى الفوكيين الذين وقعوا فى يديه ، ذ ألقى بحوالى ٣٠٠٠ منهم فى البحر عقابا لهم على نهب دلفى ومعبدها . وكان العقاب رهيبا أحدث رد فعل بين الرأى العام الهللينى . وبقى فيليب بعد انتصاره قائدا أعلى للجيش الثيسالى ، ورابطت بعض السفن المقدونية فى خليج بجساى ، ووضعت حاميات مقدونية فى بعض مواقع من ثيساليا وازداد دخل الملك المقدونى من حصيلة المكوس المجباة من السفن المارة بموانى ثيساليا . هكذا توطدت سيطرة مقدونيا التامة على اقليم يونانى هام كثيساليا . وقد حاول فيليب أن يشق طريقه نحو بلاد الاغريق الوسطى . لكن فوكيسبزغم هزيمتها استطاعت بقيادة خليفة أونومارخوس ومعاونة حلفاء كاسبرطة وأخيا وعلى الأخص أثينا التى أمدتها بقوة لايقل عددها عن ٥٠٠٠ جندى من المشاة ثقيلى العدة ، تمكنت من حماية ممر ترموبيلاى واعاقة الملك المقدونى . من اجتيازه .

ولعل فيليب نفسه لم يصر على اقتحامه حتى لايظهر فى بلاد الاغريق وهو شاهر سيفه . ورأى أن من الحكمة التريث ورفع يديه مؤقتا وقفل راجعا الى مقدونيا فى صيف عام ٣٥٢ .

فيليب والحدود الطراقية :

وبرغم ما أحرزه فيليب من نجاح كبير فى بلاد الاغريق ذاتها الا انه كانت لاتزال أمامه مشكلتان عويصتان تتطلبان حلا عاجلا . كانت احداهما هى مشكلة علاقته بحلف أو « عصبة خالكيديكى ش التى تتاخم مقدونيا وكانت أشبه بالعضو الغريب فى جسم مملكته . كانت هذه المشكلة ملحة تتطلب حلا جذريا . وكانت العصبة الخالكيديكية تتألف من مدن يونانية مستقلة . فكيف يمكن اخضاعها لارادة لفيليب وادماجها فى جسم مملكته وهل يمكن تحقيق ذلك مع احتفاظ هذه المدن بخصائصها الجوهرية وباستقلالها الذاتى على الأقل ؟ وأما المشكلة الثانية فكانت تتمثل فى ضرورة توسع مقدونيا فى اتجاه الشرق ووسائل تحقيقه . ذلك بأن نهر نيستوس الصغير (فى شرق مقدونيا) لم يكن بشكل حدودا طبيعية بالنسبة لدولة متزايدة فى القوة كمقدونيا . وكان لابد من مد الحدود الشرقية الى ذلك المضيق الذى يفصل بين أوروبا وآسيا وهو مضيق الدردنيل . لكن ذلك كان يتطلب وسائل لم تكن ميسورة لفيليب . كان يتطلب أسطولا بحريا أو بالاحرى مساعدة دويلات المدن الاغريقية ولاسيما أثينا أقوى هذه الدويلات بحريا . وكان التوسع نحو الشرق يترتب عليه شىء اخر هو حتمية الاصطدام بالفرس . لقد أدرك فيليب أنه لايستطيع الاستغناء عن الاسطول الاثينى . وليس من المحتمل أنه كان يستهدف وقتئذ بناء امبراطورية تشمل كل شبه جزيرة

البلقان . وأيا كان الأمر فمن المؤكد أنه كان يميل فى ذلك الوقت الى أرجاء تصفية حسابه مع الغريق ، ومع أثينا بوجه خاص الى أطول مدة ممكنة . ولقد تسلل فيليب في أول الامر الى بلاد الاغريق تسللا سلميا أى لم يدخلها الا مدعوا . ولم يكن له فى ذلك كل الاختيار . وعندما أرغم فى آخر الأمر على أن يخوض مع بلاد الاغريق صراعا سافرا فان ذلك يعزى بالدرجة الأولى الى مناوءة ديموسثنيس الخطيب والسياسى الاثينى ، وعداوته المريرة له . لقد عبأ الخطيب الاثينى قوى الهللينيين ضد الملك المقدونى « المتبربر » . ومن ثم فقد استحال التوصل الى تسوية . كان الخلاف عقائديا أو ايديولوجيا . وكان يزداد مع الأيام عمقا واتساعا الى أن أصبح من المستحيل تسويته .

وقد أشرت من قبل الى الوضع الذى آلت اليه اثينا بعد الحرب المسماة بحرب الحذفاء (٣٥٧ - ٣٥٥) . كانت أحوالها الاقتصادية وقتئذ سيئة . وقد اسند الاشراف على الخزانة المسماة بحزانة الترويح أو الترفيه التى يتألف رصيدها المال الاحتياطى ، اسند الى يوبولوس . وكان ينفق منه على الترويح عن المواطنين الاثنيين بمعنى منح المحتاجين منهم اعانة لتمكنيهم من حضور الحفلات المسرحية وعلى الاخص حفلات ديونيسوس الكبرى . كانت حكومة اثينا ترى أن من واجب الدولة كفالة العيش للمواطنين ، والأمن ، والترفية عنهم أيضا . وقد يبدو ذلك لنا غريبا نحن المحدثين . لكن الحفلات المسرحية كانت تشكل جانبا من العقائد الدينية أو بالاحرى كانت جزءا من الطقوس الدينية . وبمرور الزمن أصبح هذا حقا مكتسبا للمواطنين المحتاجين ولايجوز الانتقاص منه بل كان من يجترىء على المساس « برصيد الترفيه » أو تحويله الى

غرض آخر يتعرض للمتاعب ويمكن أن تقام عليه دعوى انتهاك القوانين . ومن حسن حظ اثينا أن يوبولوس وزير هذه الخزانة – ان جاز التعبير – كان رجلا نزيها قديرا أحسن ادارة الشئون المالية وأقال أثينا من عثرتها ، فزاد من رصيد الاحتياطى الخاص بالترفيه ، وضاعف الدخل العام ، وتوسع فى المبانى والمنشآت العامة دون أن يفرض ضرائب جديدة . بل أنه اعاد أيضا تنظيم سلاح فرسان أثينا ودعم قوتها البحرية . وكان فى سياسته معتدلا فكان من أول دعاة الصلح من الحلفاء وكان ينصح بانتهاج سياسة أقرب الى المهادنة أو التهدئة منها الى المخاطرة ، وتجنيب أى تدخل أو مغامرات عسكرية توسعية . وكان يعاونه سياسى أمين أخر هو فوكيون الذى ظل ينتخب قائدا سنوات طويلة . واشتهر بالتحفظ بل بالترفع عن الدهماء . وكان يعارض سياسة التهور والحرب ، ويؤمن بعدم جدوى مقاومة قوة عسكرية ضخمة مثل مقدونيا .

وأما ديموسثنيس (٣٨٤ – ٣٢٢) فقد بدأ حياته معلما للبلاغة وكاتب خطب وقضائيا ثم اشتغل مساعدا للمدعين العموميين فى المحاكمات الرسمية العامة . وقد شق طريقة بفضل مقدرته الخطابية الفائقة الى مسرح السياسة . وقد أبدى تأييده للاجراءات المالية التى اتخذها يوبولوس والقى فى عام ٣٠٤ خطابا دعا فيه الى ضرورة دعم الاسطول الاثينى وكان هذا الخطاب المسمى « سيموريا » أول خطاب سياسى له فى الاكليسيا (الجمعية الشعبية) . وكان يتضمن تأييدا لسياسة يوبولوس . ولم يكن هناك فى ذلك الوقت سبب يدعو ديموسثنيس الى معاداة فيليب . لم تكن نظرته قد اتسمت بعد ذلك الشمول الذى اتسمت به فيما بعد . كانت لاتزال محدودة كنظرة معظم

بنى وطنه من الأثينيين . ولم تخطر بعد على باله فكرة تجميع صفوف الاغريق أو حث دويلات المدن اليونانية على الوقوف جبهة واحدة . ويتبين ذلك من خطبته التى ألقاها بالجمعية الشعبية فى العام التالى (٣٥٣) مناشدا الأثينيين التدخل لحماية أهل « ميجالوبوليس » من عدوان اسبرطه . فهى خطبة لاتزال متسمة بضيق الأفق المحدود بعالم دويلة المدينة . وكان يهدف من وراء هذه الخطبة المسماة باسم « أهل ميجالوبوليس » الى حث بعض مدن البلوبونيز كارجوس وسيكيون على نبذ تحالفها مع طيبة والانحياز الى جانب أثينا . وسنلاحظ ما يطرأ على فكر ديموسثنيس من تطور وعلى نظرته السياسية من تغيير اذ تكتسب بالتدرج لمحة مثالية وتزداد عقيدته السياسية صلابة . وكان ذلك من شأنه أن يباعد بينه وبين رجل مثل يوبولوس ، بل أدى فى آخر الأمر الى وقوع خلاف بين الرجلين . وقد ذكرت أن لم يكن هناك فى ذلك الوقت سبب يدعوه الى معاداة ملك مقدونيا لأن نقطة التحول لم تبدأ الا بعد بضع سنوات عندما هاجم ديموسثنيس فيليب عام ٣٥٠- ٣٤٩ فى الخطبة المسماة « بالفيليبية الأولى » .

لم تكن مصالح أثينا فى الواقع ترتبط بالجنوب بل بالشمال أى بمنطقة طراقيا (شبه جزيرة طراقيا) ومضيق الدردنيل والبسفور . ومع أنها عقدت محالفة مع الأمير الطراقى كرسبلبتيس (٣٥٧- ٣٥٢) الا أنها كانت تميل الى الارتباط بالأمير الآخر أمادوكوس وبالمدينتين اليونانيتين الأخريين برينثوس وبيزنطة . على أن التنافس بين هذه القوى كان يشكل نوعا من توازن القوى الذى يحفظ لاثينا مصالحها فى تلك المنطقة الحيوية . وقد أعاد القائد الاثينى خاريس السيطرة الاثينية على

خرسونيسوس (شبه الجزيرة) الطراقية وفى عام ٣٥٢ واستولى على مدينة سيستوس على الدردنيل ، وأسكن مستعمرين أثينيين فى شبه الجزيرة . لكن فيليب المقدونى قام فى آخر عام ٣٥٢ أو أوائل ٣٥١ بحملة خاطفة غزا فيها طراقى حتى الموقع المسمى سور هيرا . وخلق بذلك وضعا جديدا بل تغير الموقف هناك تغيرا تاما . وقد بادر الأميران الطراقيان الى عقد محالفة مع الملك المقدونى . ومع أن المرض أقعده عن استغلال انتصاره استغلالا تاما الا أن المنطقة التى تقع بين نهر نيستوس وبين البحر الاسود (باستثناء شبه الجزيرة الطراقية) صارت تعتبر منطقة نفوذ مقدونية .

وتلقت أثينا صدمة من جهة أخرى فى الشمال . ذلك بأن فيليب بدأ يشدد ضغطه على « عصبة خالكيديكى » فغزا مدينة ستاجيرا Sta-geira (مسقط رأس الفيلسوف أرسطو) ودمرها فى عام ٣٥٠ . وأخذت سفن القرصنة المقدونية تجوس خلال شمال البحر الايجى وتتعرض لسفن أثينا ملحقة بالتجارة الأثينية أضرارا بليغة . ولم يعد من الممكن السكوت على أعمال الملك المقدونى فألقى ديموسثنيس فى عام ٣٥٠ (أو ربيع ٣٤٩) خطبته ضد فيليب المسماة بالفيليبية الاولى (philippica) فى الجمعية الشعبية الاثينية (الاكليسيا) . ولأول مرة يقف منه موقف المناوءة السافرة . كان هذه الخطبة - على نحو ما ذكرنا - نقطة التحول الحاسمة فى موقفه من الملك المقدونى [1]. ومع هذ فان مبادىء ديموسثنيس السياسية لم تتبلور تماما ولم يتحول هو الى عدو لدود لفيليب المقدونى الا بعد « صلح فيلوكراتيس » (عام ٣٤٦) الذى

(١) تنتمى خطب ديموسثنيس السياسية الكبرى الى الفترة ما بين ٣٥٠ ، ٣٤٠ ق . م .

سنتعرض له بعد حدث أن فر من مقدونيا بعض خصوم للملك ولجأوا الى أولينثوس (Olyntrus) وغيرها من مدن خالكيديكى . وطالب فيليب بتسليم الهاربين . ورفضت أولينثوس . وبذلك تهيأت له الفرصة التى كان يترقبها .

واخيرا صحت أثينا من غفوتها الطويلة وبادرت بعقد مخالفة مع عصبة خالكيديكى وأرسلت اليها نجدات تحت قيادة خاريس وخاريديموس . وهكذا نشبت « الحرب الاولينثية الاولى » بين فيليب من ناحية والعصبة الخالكيديكية وأثينا من ناحية أخرى (٣٤٩- ٣٤٨) . وقد ألقى ديموستنيس خطبة السياسية الثلاث المسماة بالأولينثيات (Olynthiaca) فى تلك الفترة (بين خريف ٣٤٩ وربيع ٣٤٨) . حيث نبه الى تزايد قوة مقدونيا واستفحال خطرها وضرورة الاستعداد لمواجهة هذا الخطر فى الشمال بعزيمة أقوى وجهد عسكرى أكبر من ناحية أثينا . وقد لمح فى « الأولينية الاولى » الى ضرورة استخدام الرصيد الاحتياطى بخزانة الترفيه (Theorikon) فى الجهود الحربى (stratiotika) . ثم دعا الى ذلك صراحة فى الخطبة الثالثة لمساعدة اولينثوس عسكريا . لكن الحملة الاثينية التى ارسلتها اثينا لنجدة أولينثوس لم تسفر عن شىء ولم تحدث أى تأثير فعال . وكان انتصار فيليب ساحقا وتاما . بل لقد نجح فى حمل يوبويا (ماعدا مدينة كاريستوس Carystos) على التخلى عن أثينا والتمرد عليها ونبذ التحالف معها مهددا بذلك طريق السفن الأثينية الى شمال البحر الايجى والدردنيل الذى كان بمثابة شريان حيوى لحياة اثينا الاقتصادية . وسقطت أولينثوس فى يد العاهل المقدونى فى عام ٣٤٨ ودمرها تدميرا وباع أهلها كعبيد فى أسواق مقدونيا . وأسكن فى

موقعها مستعمرين مقدونيين . وفقدت مدن خالكيديكي الأخرى استقلالها وأدمجت في جسم الدولة المقدونية . ولسنا في حاجة الى تأكيد أهمية سقوط خالكيديكي وزعيمتها أولينثوس في يد مقدونيا . فالى جانب الكسب المادى المترتب على غزوها ، فان ادماجها كمركز قديم من مراكز الثقافة اليونانية في مقدونيا كان من شأنه أن يبدل الصورة في الشمال تبديلا ويخلق وتصورا جديدا بالنسبة للعلاقة بين الوجود الاغريقي والوجود المقدوني هناك ، وأن يرجح بالضرورة الكفة المقدونية .

ولم يكن ديموسثنيس مسئولا عما أحرزه الملك المقدوني من انتصارات ضخمة ، فكثيرا ما نبه بني قومه من خطر فيليب وحذرهم من مغبة التراخي والتقاعس ، وحثهم على بذل مزيد من الجهد العسكرى لدعم الجبهة الشمالية . لكن انتصارات فيليب كانت متلاحقة . وقد وجد ديموسثنيس أن أثينا ربما تكون في حاجة الى فترة من الراحة تلتقط فيها أنفاسها وتستجمع قواها وتعد نفسها للحظة الصراع الحاسمة مع الملك المقدوني . ولذلك لم يمانع الخطيب الكبير في الاشتراك في السفارة أو الوفد الذى أرسلته أثينا الى مقدونيا للتفاوض مع فيليب في عاصمته بللا في مستهل عام ٣٤٦ . كان الوفد المؤلف من عشرة يضم أيضا ايسخينيس حوالى ٣٩٠- بعد ٣٣٠ ، وهو خطيب مفوه ، وفيلوكراتيس أحد الساسة المعتدلين . وقد أحسن الملك المقدوني استقبال السفارة أو الوفد الاثيني واحتفى بهم . وقد لوحظ أن أيسخينيس قد أصبح بعد عودته من أقوى دعاة التفاهم مع فيليب وبالتالى اصبح عدوا لدودا لديموسثنيس الذى هاجم زملاءه في الوفد بعد عودته موعزا

بايثارهم مصلحة فيليب على مصلحة وطنهم . والقى ديموسثنيس خطبة سياسية في المحكمة بمناسبة الدعوى التى أقامها على آيسخينس واتهمه فيها بفساد الذمة (حتى قبل ذهابه الى بللا) والارتشاء لحمل الشعب الأثينى على عقد معاهدة غير مشرفة مع فيليب . وتحمل هذه الخطبة التى ألقيت عام ٣٤٤ عنوان « السفارة » (المخادعة) وعلى الرغم من قوة الادعاء الا أن الادلة غير مقنعة تماما . لذلك برئت ساحة ايسخينيس الذى رد عليه بخطبة تحمل نفس العنوان أو بالأخرى عنوان « السفارة » (المنخدعة) بغلبية ضئيلة . وقد وسع هذا الاتهام بالخيانة تقريبا شقة الخلاف بين الرجلين وأدى الى خصومة استمرت سنوات طويلة تبادل فيها الخطيبان الكبيران السباب الذى انحدر أحيانا الى حد الخوض في الشئون الخاصة . وبذلك ضاعت الحقيقة وسط أوار المعركة الكلامية ولم يعد من اليسير استجلاء الحقيقة من ثنايا التهم المتبادلة . ويتجه الرأي الآن الى عدم تبرئة أى من الطرفين تبرئة تامة . هناك غبار على مسلك الرجلين وان تفاوتت كثافته . لكن بينما كان ديموسثنيس صاحب عقيدة سياسية واضحة ، لم يكن لخصمه يسخينيس مثل هذه العقيدة أو المبدأ .

وكان من أشد أنصار فيليب الكاتب السياسى الأثينى ايسوقراط (٤٣٦ - ٣٣٨) الذى كتب عدة رسائل سياسية . وقد وجه احداها « الى فيليب » عام ٣٤٦ ودعاه الى تزعم بلاد الاغريق فى حملة انتقامية كبرى ضد الفرس الذين يجثمون على صدر الاغريق فى ساحل آسيا الصغرى . كانت سياسته مناقضة تماما لسياسة ديموسثنيس . وكان من الطبيعى ان يكيل له س الحزب الوطنى ش المتطرف تهمة المهادنة بل

التواطؤ مع فيليب . لكن ايسوقرط لم يكن - على وجه اليقين - مخدوعا أو خائنا بل كان مؤمنا بضرورة توحيد دويلات المدن اليونانية الممزقة . ولم ير بأسا فى انضوائها تحت زعامة رجل قوى واحد مثل فيليب . كان يرى فى ذلك فرصةً لقيام كل الاغريق بهجوم - على الفرس ، والانتقام منهم (لما ارتكبوه من تخريب للمعابد وغيرها فى الحروب الفارسية القرن الخامس ق . م) وتنفيذ الهدف الذى لم يتمكن الزعيم الاثينى كيمون Cimon (٥١٢ - ٤٤٩ ق . م) من تحقيقه ، وعلى الاخص تحرير المدن اليونانية على الساحل الايونى من براثن السيطرة الفارسية . ويتبين من منشوراته أو رسائله السياسية (وهى ذات صبغة أدبية ايضا) انه كان من دعاة الترحيب بالاجانب المثقفين بالثقافة اليونانية فى المجتمع الهللينى لأن المعيار - فى رأيه - ليس هو العنصر أو المولد وانما هو الثقافة . ذلك هو معيار الهللينية . ولما كان فيليب - وهذا صحيح - مثقفا بالثقافة اليونانية فليس ما يمنع من انضواء الاغريق جميعا تحت لواء مقدونيا ، واتحادها بدلا من الفرقة والتمزق ، للقيام بحملة ضد الفرس تحقق اغراض الاغريق .

لقد فشلت الحملة التى كانت أثينا جردتها لمساعدة ثوار مصرضد الحكم الفارسى عند منتصف القرن الخامس (٤٥٩ - ٤٥٤) . واستفاد الفرس من الخلاف الذى كان قائما بين أثينا واسبرطة ، اذ طعن الاسبرطيون اثينا فى ظهرها وهى تحاول استنقاذ مصر من قبضة الفرس (عام ٤٥٧ق . م) فى تلك الحملة . ثم طعن الاثينيون اسبرطة فى ظهرها عندما كانت الأخيرة تحاول طرد الفرس من الساحل الأيونى اثناء فترة زعامتها (عام ٣٩٣) . فاذا اتحد العالم الهللينى بدلا من هذا

الانقسام الضار ، فلن يتعذر عليه غزو بلاد الفرس . ولن تعترضه عقبات عسكرية جسيمة . وقد أثبتت ذلك تجربة س العشرة آلاف » جندى من المرتزقة الاغريق الذين استأجرهم قورش الفارسى لمساعدته فى اغتصاب العرش من أخيه الأكبر فى عام ٤٠١ فقد زحفت هذه القوة المتواضعة دون اعتراض من الساحل الغربى لآسيا الصغرى (من سرديس) عبر الاناضول حتى أرض بابل وواجهت كل القوات التى حشدتها حكومة الامبراطورية الفارسية . ولولا مقتل قورش نفسه فى معركة كيناكسا لاستطاعت هذه القوة من المرتزقة الاغريق أن تحقق الانتصار . لكن هذه القوة لم تجد مبرر لبقائها بعد موت من استأجرها مغادرت أدراجها من أرض بابل وسارت عبر جبال أرمينيا وعبر أراضى جبلية موحشة الى ساحل البحر الأسود فى شرق الاناضول (طرابيزون) وتمكنت من الانسحاب برغم محاولات الجيش الفارسى والقبائل المحلية لقطع طريق العودة عليها . فلو ضوعفت مثل هذه القوة العسكرية الهللينية ثلاث أو أربع مرات ، ومساندتها كل بلاد الغريق المتحدة فان مشروع غزو الامبرطورية الفارسية قد يحالفه النجاح .

كان مشروع الغزو الكبير من وجهة النظر الهللينية مشروعا معقولا . فلماذا يستمر الاغريق فى مقاتلة بعضهم بعضا فى حروب مدمرة بينما هم فى استطاعتهم توحيد الصفوف والقيام بحملة لفتح « مجال حيوى » فسيح فى الشرق واستغلال امكاناته . ان بلاد الاغريق كانت فى القرن الرابع ق . م . مثلما كانت فى القرن الثامن ق . م – تعانى من تضخم عدد السكان . ونشطت حركة الاستعمار (٧٥٠ – ٥٥٠) ولم يستطع استعمار شواطىء غرب البحر المتوسط والبحر الأسود ولا الثورة الاقتصادية

التى ترتبت عليه أن تمدها بما تحتاجه من مئونة مستديمة كافية لاطعام أفواه الاغريق المتزايدة . لكن غزو بلاد الفرس قد يتيح للمستعمرين الغريق المجال الحيوى الواسع على أساس احتفاظهم بالاراضى أو استيطانهم فيها . لقد كان المشروع عمليا ويمكن تنفيذه . لكن أكان هناك ما يبرر القيام به سوى حق الاغريق فى الانتقام ، وهو حق مشكوك فيه ؟

لقد كان يوجد على أيام ارسططاليس الشهير بأرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢) بعض مفكرين هللينيين ينادون بأن الأعريق كان لديهم حق طبيعى فى الغزو لأن الاغريق ولدوا أحرارا بينما ولد غير الاغريق عبيدا .وبعبارة أخرى كان هؤلاء المفكرون ، ومن بينهم أرسطو نفسه ومن قبله أفلاطون (٤٢٩ - ٣٤٧) يستحلون فتح بلاد الفرس أو بالأحرى بلاد البرابرة ، واسترقاق أهلها بل كانوا يستحلون ابادتهم . لكن النظرية باطلة وتنم عن ضيق الافق والتعصب الجنسى والتمييز أو التفرقة العنصرية . وليس أدل على ذلك من ان كاتبا من مدرسة الطب الهبوقراطية (وهو أبقرط من جزيرة قوس قرب ساحل آسيا الصغرى) قد لاحظ فى بحث له عن تأثير البيئة على الطباع ، لاحظ قبل ذلك بحوالى مائة عام ، أن غير الهلليينيين أو البرابرة الذين يعيشون فى الاقطار الوعرة التضاريس ، كانوا كالاغريق تماما فى قوة العزيمة وحب الحرية . وقد أبدت الاحداث التالية لغزو بلاد الفرس على يد الاسكندر والاغريق ، صحة هذه النظرية ودقتها . ان النظرية القائلة بحق الاغريق الطبيعى فى فرض السيطرة أو السيادة على الاجناس « الدنيا » لم يكن فى حقيقة الأمر سوى تلمس العذر أو البحث عن ذريعة لمعاودة ما فعلته اسبرطة باضطهاد

رعاياها من أشباه العبيد وما فعلته أثينا باضطهاد المدن اليونانية التي اخضعتها للجزية في حلف ديلوس وان كان القياس مع الفارق .

هذه الانتصارات التي أحرزها فيليب أزعجت خصومه في أثينا وأرقت بالهم وكان في مقدمتهم ديموسثنيس الذى لم تذق عيناه النوم منذ تلك اللحظة . ولم تسعفه وقتئذ ال فصاحته وذلاقة لسانه فألقى في الجمعية بالخطبة الفيليبية الثانية (عام ٣٤٤) كاشفا فيها النقاب عن خداع فيليب ومخاتلته ولؤمه ومراوغته ، ومقارنا فيها بين وحدة هدف الملك المقدوني وتصميمه ، وانقسام رأى الاثينيين وترددهم . لكن فاته أن يقول ان سياسته الخرقاء أو الحمقاء هى المسئول عما حدث الى حد كبير . وأرسل فيليب الى اثينا وفدا يدعوها لايفاد بعثة الى دلفى لتمثيلها في المهرجانات البيثية الدورية ويخطرها بانتخابة عضوا في الحلف الامفكتيوني ولكن أثينا رفضت بايعاز من ديموسثنيس - تلبية مثل هذه الدعوة التي تنم عن الصلف والصفاقة . وكان هذا الرفض بمثابة احتجاج أمام الاغريق جميعا على دخول فيليب حلف دلفى الامفكتيوني . وقد بدا لبعض خطباء لحزب الوطني المناديء لفيليب أن يتحدوا فيليب تحديا سافرا . لكن ديموسثنيس نفسه أدرك عدم جدوى ذلك واضطر الى تهدئه الخواطر التي اثارها هو نفسه بخطبة الحماسية وسياسته الحمقاء . فدعا الاثينيين الى قبول نتائج هذه السياسة العقيمة التي حملهم هو على سلوكها . لقد ضحى بأوروبوس (بين اتيكا وبويوتيا) وأمفيبوليس (في الشمال)، وانشقت الجزر على اثينا . كان من الحماقة - على حد قوله - أن تخوض أثينا حربا ضد كل البلاد الاغريق من أجل « شبح دلفى » . وهذا التهكم المرير الذى ختم به

ديموسثنيس خطبته يكتنف عن الغيظ المكبوت فى صدره والمرارة التى امتلاء بها قلبه بل المهانة التى اضطر الى ابتلاعها . لكن من الغريب ان ديموسثنيس سيصبح منذ ذلك الحين الموجهة للرأى العام الأثينى والمتحكم فى سياسته .

بلاد الأغريق ومقدونيا من صلح فيلوكراتيس حتى مصرع فيليب :

بالزعيم القبلى بليوراتوس (Pleuratos) . وقد هيأ له انتصاره ، هذا الفرصة لاعادة النظر فى تنظيم ثيساليا المتاخمة لمقدونيا ولا لليريا وقد بدأ فى عام ٣٤٤ بأن أدمج جماعاتها القبلية العشر فيما يشبه الحلف الفيدرالى (Koinon) . لكن ثبت عدم جدوى هذا التنظيم فعاد فى عام ٣٤٢ وقسم الاقليم كله اداريا الى اربع وحدات ادارية (tetrarchia) لكل منها مركز مدنى أو عاصمة ، ولكل منها حاكم يعين بموافقة فيليب . ثم انتخب فيليب أرخونا (archon) أى حاكما على كل ثيساليا عام ٣٤٢ ان لم يكن قبل ذلك (عام ٣٤٤ ؟) . وقد تجنب لقب تاجوس (tagos) الذى كان مألوفة فى ثيساليا ولكنه يدل على معنى الاستبداد بل أن كل كلمة « طاغية » فى العربية منقولة عن هذا اللقب اليونانى . وقد ظلت ثيساليا منذ هذا التاريخ (٣٤٢) مشدودة الى عجلة مقدونيا حتى معركة كينوس كفلاى عام ١٩٧ (ق.م) عندما الحقت روما الهزيمة بفيليب الخامس سليل فيليب الثانى .

الصراع بين فيليب وديموسثنيس :

وقد زاد هذا الاجراء من قلق الأثينيين ، وتراءى لديموسثنيس أن يفعل شيئا مضادا . فقام بجولة فى عام ٣٤٣ فى البلوبونيز لاثارة الخواطر ضد العاهل المقدونى وحث المدن التى استكانت أو انحازت الى مقدونيا

على الانفضاض من حول فيليب . وقد رافقه في جولته هذه صديقه هيجسيبوس الذى اشتهر بكراهيته لفيليب حتى لقب بلقب يحمل هذا المعنى . وقد احتج الملك المقدونى على نشاط ديموسثنيس المعادى السافر في البلوبونيز وتحريضه مدنها على التمرد عليه . لكن ديموسثنيس لم يكترث باحتجاجه . وقد تراءى لديموسثنيس وقتئذ (٣٤٣) أن يلجأ الى خطة جديدة وهى التعاون مع الفرس لضرب فيليب . ولم يكن هناك سياسى اثينى يستطيع ان يجاهر بعقد محالفة رسمية مع ملك الفرس فى ذلك الوقت . ومعهذا فقد اقترح ارسال وفد الى بلاط الملك أردشير الثالث . لكن هذه الخطوة التى تكشف عن اليأس والحيرة ، لم تسفر عن شيء . وحضر فى الوقت نفسه الى اثينا وفد مقدونى برئاسة بيثون البيزنطى لكى يعرب عن رغبة فيليب فى تعديل بعض نصوص صلح فيلوكراتيس وازالة بعض « الشوائب التى تشوه جماله » – وعلى الأخص لطلب الملك المقدونى لكانت تنازلت بذلك تنازلا رسميا تاما عن حقها فى أمفيبوليس وبيدنا وبوتيدايا . لاعجب اذن أن اثينا لم تحرك ساكنا . وجدير بالذكر أنه تخلل ذلك النزاع بين فيليب واثينا ظهور منشور أو رسالة سياسية بقلم سبيوسبوس رئيس المدرسة الفلسفية الافلاطونية (المسماة بالأكاديمية) وفيها يؤيد دعوى فيليب بحقه فى أمفيبوليس . ويعزز الكاتب رسالته بحجج مستمدة من الأساطير . واستمر حبل المفاوضات المتعثرة متصلا دون الوصول الى اتفاق نهائى (حتى صيف عام ٣٤٢) .

وفى صيف عام ٣٤٣ عقد فيليب مع الفرس معاهدة صداقة وعدم اعتداء بمعنى ان يترك له الفرس حرية التصرف فى أوروبا وعلى الاخص

في كل طراقيا على أن يترك هو للفرس حرية التصرف في اسيا (الصغرى) . وتدل المعاهدة على بعد نظر العاهل المقدوني ودهائه لأن المعاهدة كانت الى جانب انها أطلقت يده في طراقيا جعلت ظهره محميا في حالة نشوب الصراع المتوقع مع بلاد الاغريق والقيام بحملة ضدها لفرض سيطرته التامة عليها . وفي شتاء عام ٣٤٣ - ٣٤٢ اتجه فيليب الى ابيروس (في جنوب غرب مملكته) اذ انتهز فرصة قيام بعض الاضطرابات ونصب الاسكندر المولوسي ، شقيق زوجته ، ملكا على ابيروس . وضم ابيروس الى منطقة كاسوبيا ، واصبح قاب قوسين أو أدنى من اقاليم غرب بلاد اليونان كأمبراكيا وأكارنانيا وأيتوليا . وبذلك أمن جنبه الغربي . وكان هذا امرا حيويا بالنسبة لامتلاك ثيساليا نفسها .

ووقع في شتاء عام ٣٤٣ - ٣٤٢ حدث بالغ الأهمية سيمتد تأثيره الى بلاد الاغريق ومقدونيا اذ غزا ملك الفرس ، أردشير الثالث الملقب أوخوس ، مصر وبلغ عاصمتها ممفيس ، وقمع ثورة المصريين التي استمرت قرابة ستين عاما . وأعاد مصر للمرة الثالثة الى حظيرة الامبراطورية الفارسية . وقد أثار توسع الفرس وازدياد نفوذهم قلق فيليب . ولعل ذلك قد دفعه الى مراجعة نفسه في موقفه من بلاد الاغريق اى جعله اكثر استعدادا للتفاهم مع أثينا وانتهاج سياسة اللين معها . كان على نحو ما ذكرنا في حاجة الى الاسطول الاثيني وتأمين ظهره اذا خرج في حملة ضد الفرس في المستقبل . لذلك اقترح فيليب في ربيع عام ٣٤٢ أن يتحول صلح فيلوكراتيس الى صلح أو سلام عام ينسحب على كل بلاد الاغريق . لكن الجو في اثينا لم يكن مهيئا لقبول عرضه . كان الجو قد أصبح مشحونا بالهواجس ، متوترا ، وتسوده هستيريا الحرب

بتأثير ديموسثنيس وانصاره من المتطرفين فى الحزب الوطنى كالخطباء هيبريديس وهيجسبوس وليكورجوس . ويتضح ذلك من « الفيليبية الثالثة » التى ألقاها ديموسثنيس عام ٣٤١ ، وهى أورع خطبه السياسية . وتتميز هذه الخطبة بسعة الافق والنظرة السياسية الشاملة . فهى ليست مجرد دفاع عن مصالح اثينا وحدها بل هى دفاع عن حرية بلاد الاغريق بأسرها ، تلك الحرية التى أصبحت فى كفة القدر ويتهددها الخطر . كانت الاعصاب فى أثينا مشدودة وينعكس ذلك على خطبة اخرى تحمل اسم « هالونيسوس » وهى جزيرة صغيرة عرضها فيليب انئذ على أثينا . ورفض الحزب الوطنى المناوىء لمقدونيا قبولها واصفا الجزيرة بأنها هدية تافهة عديمة القيمة ، وقائلا فى سخرية بأن فيليب انما يرد لاثينا ما كانت تملكه بالأمس .

تحرك فيليب نحو الدردنيل :

وتحول فيليب مرة أخرى شرقا الى طراقيا (يونيو عام ٣٤٢) . ولم يكن هذا التحول يعنى انصرافه عن الصراع الوشيك على زعامة بلاد الاغريق نفسها . وقد أنجز فيليب فى طراقيا هذه المرة عدة أعمال هامة اذ أخضع امراءها المحليين ، ونظم كل المنطقة الواقعة بين نهر نيستوس وساحل البحر الأسود فى شكل ولاية مقدونية ونصب عليها أحد قواده واليا ، على غرار الولايات الفارسية ووطد غزوه لطراقيا بانشاء مستعمرات مقدونية . وقد أمدته طراقيا بموارد اقتصادية وبشرية كبيرة . وعقد محالفة مع هرمياس أمير اتارنيوس ، وهى مدينة باقليم ميسيا فى شمال غرب الأناضول (فى مواجهة جزيرة ليسبوس) . ويمكن الافتراض بأن فيليب قد جالت بخاطره فكرة عبور الدردنيل فى يوم من الايام واقتحام اسيا

الصغرى وان هرمياس كان مستعدا ليسهل له طريق الغزو بأن يجعل من امارته رأس حربة للملك المقدونى . لكن من العسير الأن التيقن من نوايا فيليب وقتئذ نحو الامبراطورية الفارسية وحقيقة أهدافه . لكن من المؤكد ان ضعف الامبراطورية الفارسية - برغم انتصارها القريب من مصر - لم يخف على رجل ثاقب النظر كفيليب . ومع هذا فقد كان من المستبعد ان يشرع في الحملة ضد الفرس قبل ان يفرغ من تصفية حسابه مع الاغريق .

وقد أثار تحرك فيليب نحو مضيق الدردنيل موجة من القلق الشديد بين خصومه فى أثينا. وطالب ديموسثنيس فى خطبته « الفيليبية الثالثة » بدعم الجهاز العسكرى وشن الحرب برا وبحرا وبث الدعاية ضد فيليب بين المدن المحايدة . وذهب ديموسثنيس الى منطقة بحر مرمرة حيث بدأ الخطر يطل برأسه . وبرغم أن بيزنطة لم تكن منذ عام ٣٦٤ صديقة لاثينا اذ تحالفت مع طيبة ثم تعاونت مع الدويلات المنشقة على أثينا الا أنها وجدت أن هطر فيليب عليها أكبر ، ولذلك وافقت على عقد معاهدة دفاعة مع اثينا (٣٤١) . وكان هذا عملا عدوانيا ضد فيليب لأن بيزنطة كانت متحالفة معه منذ عام ٣٥٢ . كذلك عقدت اثينا معاهدة دفاعية مع أبيدوس (على الدردنيل) ثم محالفة مع « عصبة يوبويا » وزعيمتها خالكيس (٣٤١) . لكن خيوس وورودس رفضت الانضواء في حلف مع اثينا مما أصاب ديموسثنيس بخيبة أمل . وكان من المتوقع أن تتحرك بلاد الفرس وتمد يد المساعدة لاثينا لكنها لم تتحرك لأن هرمياس ، أمير أتارنبوس ، كان قد غدر به وأصبح فى قبضة الفرس ، ومن ثم فقد استبعد الفرس قيام مقدونيا بغزو اسيا الصغرى .

ولم يقف فيليب المقدونى مكتوف اليدين بل رد على التحرك الاثينى بأن حاصر مدينة برينثوس الواقعة على ساحل بحر مرمرة أى داخل منطقة النفوذ المقدونى (ربيع عام ٣٤٠) . وبرغم ان فيليب استخدم فى حصارة لتلك المدينة أحدث اجهزة الحصار الا أنها استعصت عليه واتاح اعتداؤه الصارخ على بيرينثوس للخطيب الاثينى فرصة احراز نجاح باهر فى ميدان السياسة الخارجية . فقد دعا ديموسثنيس الى عقد حلف اغريقى تحت زعامة اثينا لمناهضة عدوان فيليب .(٣٤٠) ، وكان الحلف دفاعيا والقصد منه توحيد بلاد الاغريق لمواجهة تهديدات فيليب ودرء خطر الغزو المقدونى . ولم تشترك فى الحلف بويوتيا التى تشغل موضعا حساسا فى قلب بلاد الاغريق . وشدد فيليب حصاره على بيرنثوس لكن المدينة ظلت صامدة . وتلقت نجدات من بيزنطة ومن حاكم ولاية فريجيا الفارسية عبر الدردنيل . لقد أساء فيليب الى اثينا بانتباكه خرسونيسوس (شبه الجزيزة) الطراقية لأنها كانت منطقة تخضع لسيادتهابمقتضى معاهدة صلح فيلوكراتيس . وأرسلت اليه أثينا محتجة . ورد فيليب بأنها ارتكبت ضده اعمالا عدوانية كثيرة تستوجب العقاب . كان ذلك بمثابة الانذار . لكن القطيعة بين الملك واثينا لم تحدث الا عندما تصاعد بالصراع لقد عجز عن الاستيلاء على بيرنثوس فاشتد حنقة ثم تحول فجأة الى البسفور وهاجمت سفنه . قافلة اثينية محملة بالقمح أثناء عبورها المضيق وسطت عليها كما يسطو القراصنة . ثم ضرب الحصار على بيزنطة التى أتتها النجدات من رودس وخيوس ، وارسلت اثينا على الفور قطعا بحرية تحت قيادة خاريس ثم فوكيون . كانت بيزنطة هى مفتاح تجارة اثينا فى البحر الأسود وذلك يفسر سبب تصرف اثينا فى هذه المرة بسرعة وهمة . وقد بلغ الغضب فى اثينا ذروته

وحمل الرأى العام على الملك المقدونى حملة شعواء .

كان فيليب يدرك ما للاغريق من تفوق كبير عليه فى البحر . ومع هذا فلم يتوقف عن القيام بعمليات بحرية جريئة . واقتحمت سفنه البحر الاسود واهبطت للعدو بعض مناوراته . لكن السفن الاثينية بقيادة خاريس قامت بسد المدخل الجنوبى لهذا البحر عند البسفور . ولم يسفر حصار فيليب لبيزنطة عن نتيجة فقد استعصت عليه مثلما استعصت عليه بيرينثوس من قبل . وكاد الملك لأول مرة يفقد صوابه لقد تحول فجأة عن هذا الميدان الى آخر فقام بحملة ضد الاسكيثيين (Scythi) عند مصب الدانوب لكى يؤدب زعماءهم العصاة ويسترد الجيش المقدونى ثقته بنفسه (٣٣٩) . وعاد فيليب من حملته الخاطفة منتصرا وان كان ق فقد كل اسلابه وغنائمه . لكنه اشتبك أثناء عودته مع قبائل التربالليين Triballi وكاد ينهزم بل أصيب هو نفسه بجرح بليغ كان ذلك العام (٣٣٩) عاما سيئا بالنسبة للعاهل المقدونى ، اذ هبطت مساعيه على شواطىء مرمرة ، وكان الفضل فى ذلك يرجع الى ما بذله خصمه ديموسثنيس من جهود فائقة استحق عليها الثناء من الدولة والشكر من الدويلات التى انقذت من براثن المقدونى . لقد اتضح لفيليب ان لامناص من أن يخوض حربا جادة ضد اثينا نفسها .

الحرب المقدسة الأخيرة ودخول فيليب بلاد الاغريق :

ولكى يحول فيليب دون حدوث تقارب بين اثينا وطيبة فقد رأى أن يستخدم أو بالاخرى يستغل حلف دلفى الامفكتيونى لتحقيق غرضه ووجد فى أهل أمفيسا Amphussa ، وهى مدينة فى اقليم لوكريس الاوزولية (العزبية) وتسيطر على الطريق المؤدى من دوريس الى خليج

كريسا . واستخدمت لمدينة كمطية ذ تقدمت فى خريف عام ٣٤٠ بشكوى الى مجلس الحلف الأمفكتيونى ضد اثينا . وفيها تتهمها أمفيسا بأنها كانت أثناء الحرب المقدسة الثالثة قد علقت درعين من الذهب (عليهما نقش يخلد ذكرى انتصار اثينا على الفرس وطيبة فى معركة بلاتيا عام ٤٨٠ ق . م) علقتهما اثينا فى معبد ابوللون قبل ان يتم تكريسه رسميا اى بدون اجراء المراسم الدينية اللازمة . لكن ديموسثنيس استطاع بمهارته الدبلوماسية ان يحبط المناورة المكشوفة ويفسد على فيليب خطته . بل ردت اثينا كيده الى نحره فتقدمت الى مجلس الحلف بشكوى مضادة اتهمت فيها أمفيسا بأنها هى التى انتهكت قدسية دلفى لأنها قامت بزراعة جانب من سهل كيرا وهو سهل كان قد تقرر منذ الحرب المقدسة الأولى فى القرن السادس (حوالى ٥٩٠ زمن سولون) تقرر ألا يجرى فيه محراث وأن يبقى دائما غير مزروع والقى ايسخينيس .دائما غير مزروع . والقى ايسخينيس - الذى وكلت اليه هذه المهمة - القى فى اوائل عام ٣٣٩ خطابا امام مجلس الخلف الامفكتيونى هاجم فيه أمفيسا وألهب المشاعر ضد اهلها اللوكريين وطالب بطردهم فورا من السهل المقدس . وفى اليوم التالى زحف اهالى بعض مدن الحلف ودلفى . لمساعدة الاله (ابوللون) واستخلاص أرضه المقدسة . وحرقوا بلدة كيرا المتاخمة للبحر واثناء عودتهم هاجمهم اهل مدينة أمفيسا . وعندئذ دعى مجلس الحلف الامفكتيونى الى اجتماع خاص فى ثرموبيلاى للنظر فى معاقبة اهل أمفيسا اللوكريين .

وكان المرء يتوقع ان تقف اثينا الى جانب الحلف الامفكتيونى وتقود الحرب ضد امفيسا واللوكريين . لكن ديموسثنيس استطاع بما له

ولاثينا للمحالفة مع مقدونيا أم ستنضم الى اثينا وترغم الملك المقدونى على أن يقاتل قوات طيبة واثينا المؤتلفة ، وهو الاتحاد القوى الوحيد الذى كان من الممكن قيامه حينئذ فى بلاد الاغريق ؟

وعملا بنصيحة ديموسثنيس خرج من أثينا وفد كان الخطيب الكبير أحد اعضائه . واتجه الوفد الى طيبة . وقد خرج معهم ديموسثينس لأن اللحظة كانت خطيرة وتشكل بالنسبة لحياته أزمة لانه اما ان يتحقق آنئذ الهدف الذى جاهد طوال السنوات الاخيرة من أجله أو لايتحقق ابدا .

كان الهدف الاول لفيليب انجاز المهمة التى أتى من أجلها بوصفه زعيما للحلف الامفكتيونى . وقد ارتكبت الاثينيون وحلفاؤهم منذ البداية خطأ استراتيجيا جسيما بتوزيع قواتهم . صحيح أنهم أحرزوا انتصارين غير كبيرين فى البداية . لكن فى النهاية تمزق شمل العشرة آلاف جندى من المرتزقة الذين أنفذتهم اثينا للدفاع عن امفيسا . وسقطت امفيسا نفسها فى يد الملك المقدونى وكذلك ناوباكتوس Naupactus الميناء الهام على الخليج الكورنس فى لوكريس الغربية .

معركة خيرونيا (٢ أغسطس ٣٣٨) :

وبعدئذ تقدم فيليب نحو حدود بويوتيا عبر الطريق التاريخى الذى شهد من قبل عدة جيوش وهى تجتازه . وكانت جيوش الحلفاء (اثينا وطيبة وغيرهما) ترابط فى انتظار المعركة الفاصلة عبر هذا الطريق عند

بلدة خيرونيا التى تشغل مساحة أربعة اميال بين التلال ونهر كيفيسوس ، وتقع في أقصى جنوب بويوتيا وترجع شهرتها الى وقعها على هذا الطريق الموصل من الشمال الى الجنوب . وليس لدينا آلاف وصف شامل موثوق به لمعركة خيرونيا التى حدثت فى يوم ٢ أغسطس (آب) عام ٣٣٨ ق . م . وكان فيليب يقود جيشا يتألف من ٣٠,٠٠٠ مشاة ، و٢٠٠٠ فرسان . وكان جيش الحلفاء (اثينا وطيبة وغيرهما) يتألف من حوالى نفس العدد . وفى الجبهة المقدونية كان الفرسان الثيساليون وغيرهم من حلفاء مقدونيا يقفون فى الجناح الايمن ، وأما فيلق المشاة المقدونى (الفلانكس) فكان يحتل القلب بينما كان الفرسان النبلاء كاملوا العدة يحمون جناحه الأيسر . وفى الجبهة الاغريقية كان جيش طيبة يقف فى الميمنة بينما اتخذت قوات فوكيس والاخيين والكورنثيين وغيرهم مراكزها فى الوسط . واصطف الجيش الاثينى فى الميسرة . وكان يتولى قيادة الجيش المقدونى رجل واحد خبير بفن الحرب هو فيليب نفسه . وكان ابنه الاسكندر البالغ من العمر ١٨ سنة يقود الفرسان ثقيلى العدة فى الجناح الأيسر . ولم يكن يقل عن أبيه خبرة ، فضلا عن ذكائه المفرط ، وأما الاغريق فلم تكن لديهم خطة أو بينهم وحدة . كان لواء الجيش الطيبى منعقدا على ثياجنيس بينما كان يتولى قيادة الجيش الاثينى ثلاثة قواد من بينهم خاريس .

وعندما نشبت المعركة استطاع الجيش الاثينى أن يقهر المرتزقة وقوات الحلفاء فى ميمنة الجيش المقدونى ويرغمهم على الارتداد عن

من تأثير قوى ان يقنع الاثينيين بعدم الاشتراك فى الحرب ضد اللوكريين ، بل انه ندد بأيسخينيس امام الجمعية وانتقد مسلكه الذى يؤدى الى اقحام اثينا فى حرب امفكتيونية (مقدسة) ، ودعا الى ضرورة بذل الجهد لوقف مثل هذه الحرب . كان هدف ديموسثنيس ينصب وقتئذ على تجنب أى خلاف مع طيبة صديقة اللوكريين . وعلى ذلك فقد استجاب الاثينيون لمشورة ديموسثنيس ولم يشتركوا فى اجتماع المجلس الامفكتيونى الذى قرر فرض عقوبات على أهل أمفيس اللوكريين وسعى الى نفيذ هذه العقوبات كذلك امتنع أهل طيبة عن المشاركة فى أى عمل عدوانى ضد اللوكريين الذين كانت تربطهم بهم دائما صداقة وتحالف . وبذلك آلت القيادة فى آخر « حرب مقدسة ش الى الثيساليين . وانقضى عام فى غارات متفرقة غير مجدية . واخيرا دعا الحلف الامفكتيونى فيليب الى التدخل مرة أخرى بوصفه قائدا اعلى للحلف ونصيرا للاله أبوللون (خريف عام ٣٣٩) . ومثلما كانت الدعوة فى الوقت المناسب جدا كذلك كانت نتيجتها خطيرة جدا الى درجة ان البعض يرتاب فى أن يكون الملك نفسه هو الذى دبر الحادثة كلها ، وان عملاءه تولوا تنفيذها لكن ليس لدينا اى دليل على ذلك . واذا كان لابد من القاء تبعة ما حدث على فرد ، فان هذا الفرد لم يكن ايسخينيس بل ديموسثنيس نفسه الذى ادت سياسته الى دخول فيليب بلاد الاغريق فى هذه المرة .

ولم يضع فيليب الوقت بل زحف دون تباطؤ الى الجنوب وعبر على وجه السرعة ممر ثرموبيلاى . وتقدم بعد تأمين ظهره نحو فوكيس ثم انحرف شرقا عبر وادى كيفيسوس ، وبلغ ايلاتيا وهى مركز استراتيجى

هام فى اواخر عام ٣٣٩ . كانت ايلاتيا تسيطر على أسهل طريق بين وادى سبرخيوس وثرموبيلاى وبين وادى كيفيسوس الذى يؤدى بدوره الى بويوتيا نفسها . وتوقف فيليب عند ايلاتيا واعاد تحصينها لأنها كانت قد تهدمت في نهاية الحرب الفوكية . ومن هناك أنفذ قوة لاحتلال موقع على الطرف الجنوبى للممر المؤدى الى امفيسا (الواقعة الى الجنوب الغربى من ايلاتيا) .

وقد اثار نبأ احتلال فيليب لمدينة ايلاتيا موجة من الدهشة والذعر في اثينا ، وقد وصف ديموسثنيس كيف تلقت أثينا النبأ في المساء ، وما ان طع الفجر حتى كان المواطنون قد تدفقوا على النيكس ، وهو مكان انعقاد الجمعية الشعبية (الاكليسيا) . تجمعوا هناك حتى قبل ان يعقد مجلس الخمسمائة (البولى وهو مجلس الشورى) اجتماعه التحضيرى . ونادى المنادى طالبا الكلام ممن يريد الكلام ويدلى برأيه فى الموقف المتأزم . ولم يتقدم أحد الى منبر الخطابة . وخيم على الشحد بأنه رهيب . واخيرا وقف ديموسثينس وتكلم . فوصف وجود فيليب المقدونى فى ايلاتيا بأنه تهديد مباشر لاثينا . وكانت طيبة التى لاتبعد عن ايلاتيا بأكثر من ٤٠ ميلا فى الجنوب الشرقى مهددة هى الاخرى قبل اثينا . لكن ديموسثنيس لم يكن على يقين من موقف طيبة . وقد أكد الشعب بأن رسل فيليب قد أبلغوا أهل طيبة بأن اثينا هى هدف الملك المقدونى وقد طلبوا منهم التعاون معه أو على الأقل يسهلوا له طريق المرور عبر بويوتيا . واضاف ديموسثنيس بأنه اذا صح ذلك فان فيليب انما يستهدف منه أن يفصح أهل طيبة عن حقيقة موقفهم نحوه . كان مصير كل من فيليب واثينا يرتهن بموقف طيبة ، فهل ستبقى طيبة على

مواقعهم . لكن ذلك أدى الى تخلخل الخط الاغريقى . لقد انحصر الصراع الحقيقى بين فيلق المشاة المقدونى والفيلق الطيبى . وكان فرسان الاسكندر هم الذين حسموا المعركة اذ قاموا بهجمة أخيرة حاسمة طوقوا فيها جنب الفيلق الطيبى . وسقط قائد الفيلق الطيبى قتيلا فى المعركة ، وأبيدت « الكتيبة المقدسة » الشهيرة وهى فى مواقعها عن بكرة أبيها . وطوق الجيش الاثينى وبقية الحلفاء الاغريق وشتت شملهم فارتدوا على أعقابهم لائجين الى ليباديا . وانتصر فيليب انتصارا ساحقا وغمره فرح شديد أخرجه عن اتزانه اذ أطلق لمشاعره العنان فراح يغنى وهو يتفقد الساحة المخضبة بالدماء أناشيد النصر والسخرية من العدو . لقد كشف اثناء انغماسه فى الصخب والعربدة عن أعماق نفسه ، وازاح النقاب . فى تلك اللحظة عن طبيعته الاصيلة المتبريرة التى طفت على السطح وطغت على المسحة الرقيقة من الثقافة الهللينية .

وقد سقط فى معركة خيرونيا قتيلا ١٠٠٠ أثينى ، وسقط ٢٠٠٠ أثينى أسرى فى يد فيليب . وكانت خسارة طيبة أفدح فى القتلى على ما يرجح . وكان انتقام فيليب منها أرهب فبينما سمح بنقل رفات القتلى من الاثينيين الى مدينتهم واطلق سراح الاسرى الاثينين بدون شرط ، أرغمت طيبة على افتداء قتلاها وأسراها على لسواء .

الاتحاد الهللينى :

وفى ديسمبر من عام ٣٣٨ دعا فيليب كل دويلات المدن الاغريقية الى مؤتمر عام انعقد فى كورنثة . واستجابت كل الدويلات

للدعوة ما عدا اسبرطة . ورأس فيليب أول مؤتمر لبلاد الاغريق المتحدة . واعلن قيام الاتحاد المسمى « بالاتحاد الهلليني ، الذى ارتبط مع فيليب بمحالفة أو حلف دفاعى هجومى . واعلن الصلح أو السلام العام (koine eirene) كان ذلك تحقيقا لحلم ايسوقراط . اكثر كتاب اثينا دراسة بعلم السيسة ، الذى امتد به العمر ليسمع عن خيرونيا ويهنىء فيليب بانتصاره ومات بعد أيام من تلك المعركة قرير العين بأن وحدة بلاد الاغريق قد أصبحت مؤكدة . لكن ايسوقراط كان مخطئا فى اعتقاده بأن النزعة الانفصالية التى كانت على الدوام وبال على الاغريق سيقضى عليها انتصار مقدونى واحد . بل ان الدويلات الاغريقية نفسها لم تكن مستعدة للاعتراف بمقدونيا كزعيمة للهللينية ، لأن مقدونيا كانت لاتزال – فى نظر الاغريق – خارج نطاق الدول الهللينية الحقة ، وان كانوا ق اذعنوا لجبروت قوتها العسكرية رغم أنفهم ورضخوا لسيادتها مكرهين .

كان مؤتمر كورنثة (شتاء عام ٣٣٨) الذى دعا اليه فيليب بمثابة جمعية تأسيسية لانشاء اتحاد هلليني جامع على نحو لم يسبق له مثيل من قبل فى بلاد الاغريق . وقد توج باعلان سلام عام (koine ecrene) وهو اتجاه يرتبط ويتمشى مع الأفكار التى كانت سائدة فى القرن الرابع . وكان هذا السلام العام أهم من الاتحاد الجامع بالنسبة لحياة الاغريق السياسية .

وانشىء للاتحاد الهللينى الجامع أو « اتحاد جامعة الدول

الهللينية » مجلس تمثل فيه كل دويلة تمثيلا يتناسب مع أهميتها .
وكانت الدويلات الصغرى يدمج بعضها فى البعض الآخر فى مجموعات
لكل منها صوت واحد . ولم يكن لفيليب صوت فى مجلس الاتحاد
الهلليني الجامع أى أنه لم يكن عضوا فيه . كان هذا الاتحاد اذن من
الناحية القانونية فى شكل اتحاد غيدرالى مرتبط برباط التبعية لزعامة قوية
(ملك مقدونيا) .

قرار اعلان الحرب على الفرس ومصرع فيليب :

وقد ارتبط باقرار « السلام العام » اجراء آخر وهو قيام محالفة
دفاعية هجومية بين فيليب من ناحية والاتحاد الهلليني الجامع من ناحية
أخرى ، وبهذه المحالفة أو الحلف الدفاعي الهجومي كانت ترتبط زعامة
فيليب على بلاد الاغريق لمدى الحياة .

ولم يتخذ قرار اعلان الحرب على بلاد الفرس الا فى مؤتمر
كورنثة التالى فى ربيع عام ٣٣٧ عندما تقدم فيليب باقتراح أو مشروع
القيام بحملة ضد الفرس انتقاما منهم لما احدثوه من تخريب فى معابد
الآلهة اليونانية فى الحروب الفارسية فى القرن الخامس ق . م . ولانجاز
مشروع ضخم كتلك الحرب فوضى مجلس الاتحاد الهلليني الجامع
لفيليب سلطات كاملة خاصة ، ومنحه لقب قائد (بلاد الاغريق)
مفوض بكامل السلطة . وفى ربيع العام الثانى (٣٣٦) أرسلت قوة تحت
قيادة بارمنيون وأتالوس لتعبر الدردنيل تمهيدا للقوج الرئيسية التى كان
فيليب يعتزم قيادتها الى اسيا . وقد حدث ذلك فى وقت حرج بالنسبة

للامبراطورية الفارسية اذ كان ملكها أردشير الثالث (أو خوس) قد مات في عام ٣٣٨ . وخلفه على العرش اصغر ابنائه الذى كان العوبة فى يد رجال البلاد . واخيرا انتزعه دارا الثالث (كودومانوس) الذى يمت بصلة قوابة لأسرة الاخيمينيين المالكة .

لكن فيليب لم يقدر له أن ينزل فى اسيا ابدا اذ اغتيل فى صيف عام ٣٣٦ أثناء الاحتفال فى العاصمة القديمة ايجاى بزواج ابنته من الاسكندر ملك ابيروس . ولايزال اغتياله أمرا مبهما . لكن فى أكبر الظن انه اغتيل لأسباب شخصية . وكان فيليب قبل موته قد غضب من زوجته أوليمبياس أم الاسكندر ورحلت مع ابنها الى ابيروس . وتزوج فيليب من كليوباترة بنت اخت اتالوس وانجب منها ولدا . وقيل أن علاقة الاسكندر بأبيه قد ساءت وقتئذ . وقد ثارت الشبهات حول اوليمبياس فى مصرع زوجها . لكن لايوجد دليل يؤيد ذلك كما لايوجد دليل على علم الاسكندر بالمؤامرة التى أودت بحياة أبيه . وقيل ايضا انه الفرس كان لهم ضلع فى المؤامرة .

هكذا لقى فيليب مصرعه فى سن السادسة والاربعين . وقد حجبت شهرة ابنه شهرته . ومعلوماتنا عن أعماله وأخلاقه مستمدة من فم ديموستنيس الاثينى الد اعدائه لأن تاريخ فيليب الذى كتبه المؤرخ ثيوبومبوس قد ضاع ولم يصلنا منه سوى شذرات . لكن ما لدينا من معلومات يكفى للحكم بانه كان واحدا من اعظم الحكام فى العالم القيم ويبرر وحكم ثيوبومبوس بأنه أوروبا (يقصد البلقان) لم تنجب

رجلا أعظم منه . لقد أودى به سلوكه الشخص وربما علاقاته النسائية واندفاعه . لكن عمله حقيقة واقعة . فقد وحد البلقان وربطها ببلاد الاغريق تحت قيادة واحدة ، وهو عمل لم يستطع احد من بعده القيام به . كذلك وضع أسس البناء الذى شاده الاسكندر من بعده ومهد لحقبة جديدة فى تاريخ الانسانية .

جـ - الاســــكندر الأكبــــر
(٣٢٣ - ٣٣٦)

الحملة على الشرق (٣٣٤ - ٣٢٣) :

ولد الاسكندر عام ٣٥٦ (ق . م) وتتلمذ على أناكسيمنيس معلم البلاغة (من الامبساكوس) وأرسطو الفيلسوف (من ستاجيرا) من ٣٤٢ حتى ٣٣٦ . واشترك مع أبيه وهو فى سن الـ ١٨ فى معركة خيرونيا عام ٣٣٨ . وأعتلى عرش مقدونيا فى سن الـ ٢٠ بعد اغتيال أبيه فى عام ٣٣٦ . وهو ثالث من حمل اسم الاسكندر فى أسرة ايجيوس . فهو الاسكندر الثالث . ويلقب عادة بالاسكندر الاكبر أو س الاسكندر ذى القرنين » . وكان شديد التعلق بأمه أوليمبياس وكان لها تأثير روحى كبير فى حياته . وورث عنها صفات كما ورث عن أبيه صفات مناقضة . وفى أكبر الظن انه لم يكن له يد على مصرع فيليب ولم يعرف على وجه اليقين من الذى قتله . ويعتبر عهده فاتحة عصر جديد فى التاريخ . وقد غيرت فتوحاته مجرى التاريخ .

زحف الاسكندر الى بلاد الاغريق التى ابتهجت لمصرع ابيه اذ تصورت طيبة وأثينا وأيتوليا والبلوبونيز أن الساعة قد حانت للخلاص من سيطرة مقدونيا . ويبدو ان الرشوة الفارسية كانت لها دور فى اثارة الاغريق ، زحف اليها الاسكندر بسرعة فعادت الى صوابها . وفى كورنثه (خريف ٣٣٦) أختير الاسكندر قائدا عاما للحملة المشتركة (بين مقدونيا وبلاد الاغريق) ضد الفرس . وعاد الاسكندر الى مقدونيا . وقد رأى أن يؤمن أولا حدود

مقدونيا الشمالية حيث تمردت بعض القبائل المتبربرة (الطراقيون والتريباالليون والجيتيون . فسار اليها في حملة تأديبية وقمع تمردها وأخضعها (٣٣٥) . وفي تلك الاثناء بلغت بلاد الاغريق شائعة عن مقتل الاسكندر في حملته الشمالية . وصدقت بعض المدن الشائعة وبدأت تتمرد وتشق عصا الطاعة . وكان وقتئذ في اليريا فزحف ثانية الى الجنوب بسرعة خاطفة الى طيبة التي تحالفت مع أثينا مثلما فعلت من قبل في معركة خيرونيا . واستصدر من مجلس الاتحاد الهلليني قرارا بتدمير طيبة لم يدمر منزل الشاعر الغنائي بنداروس Pindaros اجلالا لذاكراه . وقتل ٦٠٠٠ من مواطني طيبة وبيع منهم ٣٠,٠٠٠ كعبيد . كان تدمير طيبة في عام ٣٣٥ على يد الاسكندر بمثابة انذار رهيب لغيرها من دول المدن اليونانية . لكن معظم الاغريق ظلوا على عنادهم ولم يتصوروا ملكا مقدونيا تؤول اليه السيادة على مدن عظيمة الشأن ذات ماضي مجيد كأثينا . واستمر ديوسثنيس (برغم صفح الاسكندر عن أثينا تقديرا لمركزها الثقافي) يحمل لواء المعارضة وينادى بمقاومة الاسكندر ويندد بأنصار مقدونيا وعملائها . لكن دون جدوى . لقد أصبح الكابوس حقيقة وجمت مقدونيا على صدر بلاد الاغريق . وانتهى العصر الكلاسيكي (الذهبي) ، عصر دولة المدينة اليونانية المستقلة كل الاستقلال . انتهى الى غير رجعة . وبدأت فترة جديدة . ولم تشهد فترة من فترات التاريخ الغربي تغييرات سياسية أضخم مما شهدته فترة المائة والخمسين سنة التي أعقبت جلوس الاسكندر على عرش مقدونيا .

من الدردنيل حتى برسيبوليس (٣٣٤ - ٣٣١) :

فى مستهل ربيع عام ٣٣٤ خرج الاسكندر بوصفه ملكا لمقدونيا ، وزعيما للاتحاد الهللينى (المسمى أحيانا حلف كورنثة) ، وقائدا عاما للحملة الانتقامية المشتركة ضد الفرس على رأى جيش مقدونى اغريقى يبلغ عدده حوالى ٣٠,٠٠٠ مشاة ، ٥٠٠٠ فرسان فضلا عن ٧٠٠٠ مشاة و ٦٠٠ فرسان و ١٦٠ سفينة أسهم بها الاتحاد الهللينى (حلف كورنثة [1]) . وخرج معه عدد من العلماء والأدباء مثلما حدث فى حملة نابليون على مصر فيما بعد . وعبر الدردنيل . وكان الاسكندر معجبا بعصر البطولة ، عصر الحرب الطروادية ، وبالأبطال الاغريق الاسطوريين من أمثال أخيا (Achilleus) بطل الالياذة ، ملحمة هوميروس ، كان فى الواقع يتشبه بأخيل ويتصور حملته على الشرق كحملة الاغريق من قبل على ذروادة (فى الشرق) . كان الاسكندر كأمه ذا نزعة خيالية . وكان يحمل معه نسخة من الالياذة بل اتخذ لنفسه صديقا حميما وهو هيفايستيون (Hephaestion) مقتديا فى ذلك بأخيل وصديقه الحميم باتروكلوس (Patroclus) لذلك اتجه بعد عبوره الدردنيل ونزوله بآسيا الصغرى ، اتجه الى موقع طروادة ، وزار المكان تحية لذكرى أخيل الذى قتل ودفن هناك كما ورد فى الاساطير .

---

(١) وترك انتباتروس كحاكم على مقدونيا وكنائب له بلقب « قائد أوروبا » أثناء غيابه وتحت امرته قوات يبلغ عددها حوالى ١٢,٠٠٠ جندى مشاة و ١٥٠٠ فرسان

جرانيكوس واسـوس (٣٣٤ - ٣٣٣) :

التحم الاسكندر مع الجيش الفارسي وانتصر عليه في معركة نهر جرانيكوس Granicus (باقليم ميسيا) بآسيا الصغرى عام ٣٣٤ واستولى على معظم مدن ساحل ايونيا ثم حشد قواته في جورديوم Gordium (باقليم فريجيا) فى العالم التالى (٣٣٣) وفى هذه المعركة كاد الاسكندر يلاقى مصرعه لولا مبادرة صديقه كليتوس (Cletitus) الى تلقى الضربة عنه . ومنها سار جنوبا الى قيليقية (Cillicia) و بعدئذ عبر مصر جبال حمان فى شمال سوريا حيث احرز فى معركة اسوس (Issus) انتصاره الثانى على داراد الثالث (كودومانوس) ملك الفرس فى نوفمبر عام ٣٣٣ . وفر دارا بعد الهزيمة تاركا أسرته التى وقعت فى يد الاسكندر . وقد عامل الاسكندر زوجة وبنات الملك الفارسى معاملة كريمة وردهن اليه .

وأصبح أمام الاسكندر طريقان فاما أن يتجه شرقا متعقبا جيش الفرس وأما أن يزحف جنوبا للاستيلاء الساحل الفينيقى . واختار الاسكندر الطريق الثاني . ذلك لأن الأسطول الفارسى (وقوامه سفن فينيقية) كان يربض وراء ظهره . ولم يكن فى استطاعته الوقوف فى وجه هذا الاسطول الذى كان من الجائز أن يقطع عمله تماما طريق الاتصال بمقدونيا لو توغل بجيشه فى قلب آسيا . لذلك آثر الاستيلاء على شواطىء شرقى البحر المتوسط حيث توجد قواعد الاسطول الفارسى . فاذا استولى على قواعده فأن هذا الاسطول يصبح عاجزا عن متابعة عملياته العسكرية . لهذا اتجه الاسكندر جنوبا واستولى دون عناء مدن الساحل الفينيقى ، لكن صور استعصت عليه واستمر حصاره لها لمانية أشهر وأخيرا سقطت بعد أن كبدته

خسائر مادية وبشرية كبيرة . ثم مضى فى طريقه واستولى على غزة بعد مقاومة عنيفة ورفح وبلغ حدود مصر الشرقية .

وكان الاسكندر قبل أن تسقط صور قد واجه مشكلة تتطلب قرارا حاسما . ذلك بأن دارا ملك الفرس كتب اليه عارضا عليه يد ابنته (ستاجيرا) وعقد محالفة بينهما . متنازلا له عن الممتلكات الفارسية غربى الفرات . وكان العرض مغريا . ولو كان الاسكندر قبل العرض أو كان قد قتل عند نهر جرانيكوس حيث لم ينقذه سوى كليتوس من طعنة صوبها اليه الوالى الفارسى ، اذن لتغير وجه التاريخ . لكن أطماع الاسكندر زادت من بعد اسوس . وعندما صارحه بارمنيون ، أحد قواده المخلصين ، بأنه لو كان فى مكانه لقبل عرض دارا ، أجاب الاسكندر وكذلك كنت أفعل لو أنى كنت بارمنيون .

الاسكندر فى مصر (٣٣٢ - ٣٣١) :

وكانت مصر ولاية فارسية لكنها كثيرا ما سببت للامبراطورية الفارسية متاعب جمة باضطراباتها وثوراتها . وقد احتلها الفرس ثلاث مرات قبل الفتح المقدونى : المرة الأولى عام ٥٢٢ حتى ٤٩٠ . وكان التنافر شديدا بين الفرس والمصريين لاختلاف العقائد الدينية . وقد استغل الاغريق ذلك فكانوا يؤيدون ثورات المصريين ضد الفرس على نحو ما فعلوا عندما ثاروا على الحكم الفارسى بقيادة زعيم من أصل ليبى يدعى اناروس (Inaros) فى عام ٤٦٠ اذ أرسل الأثينيون حملة بحرية الى مصر لمساعدة الثوار (٤٥٩ - ٤٥٤) . لكن هذه اللحظة باءت بالفشل . وأما الاحتلال الفارسى الثانى فقد استمر اربعين عاما (٤٤٨ - ٤٠٨) وظلت مصر بعد ذلك مستقلة فى

الواقع حتى غزاها الفرس للمرة الثالثة وخلعوا آخر فرعون وطني قبل الفتح المقدوني بحوالي عشر سنوات (٣٤٢) ثم طردهم منها الاسكندر (٣٣٢) .

دخل الاسكندر مصر في خريف عام ٣٣٢ . وسقطت بيلوزيوم Pe-lusium (الفرما) . وأدرك الوالي الفارسي مازاكيس (Mazakes) عبث المقاومة فاستسلم دون قتال في نفس العام . ودخل الاسكندر ممفيس Memphis (ميت رهينة قرب البدرشين قرب التقاء فرعي الدلتا) ، عاصمة مصر الفرعونية ، حيث نهج نهجا يختلف تماما عن نهج الفرس ، فقدم ولاءه للآلهة الوطنية ، واعتبره المصريون وريثا للفراعنة ، وقبلوه ملكا على الفور . واحتفل الاسكندر كهلليني أصيل بانتصاره فأقام مهرجانات رياضية وموسيقية اشترك فيها عدد من الفنانين الاغريق . ومن ممفيس زحف الاسكندر شمالا بمحاذاة الفرع الكانوبي (فرع رشيد الآن) . ولعله مر في طريق بنوكراتيس (Naucratis) أقدم مدينة يونانية في مصر (أوائل القرن السادس ق .م)[1] عند كوم جعيف الحالية (قرب كفر الزيات) . وتابع سيره الى بلدة كانوبوس (Canopus) (أبو قير الحالية) . وعندما بلغ الشريط الساحلي الرملي الواقع بين البحر وبحيرة مريوط (في الطرف الشمالي الغربي من الدلتا) ، وعند قرية مصرية قديمة تسمى راقودة (Rhakoti) أسس الاسكندر مدينة اغريقية (Polis) تحمل اسمه ولاتزال ، وهي مدينة الاسكندرية (Alexandreia) في يناير ٣٣١ ق . م . وخطط المدينة المهندس دينوقراطيس Dinocrates (من مدينة ميليتوس على ساحل آسيا الصغرى الغربي) .

---

(١) عصر أماسيس من ملوك الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٣ - ٥٢٥) .

وكان التخطيط على غرار التخطيط الشائع فى تأسيس المدن فى ذلك الوقت أى الشوارع المتقاطعة طولا وعرضا على نحو يشبه رقعة الشطرنج . ولاندرى ما اذا كانت راقودة تضم بين سكانها وقتئذ جالية يونانية صغيرة . وليس هذا بالأمر المستبعد . كما لاندرى ماهى المنشآت التى بناها الاسكندر فى المدينة . لكن لابد من أنه زودها بالمؤسسات الضرورية لمدينة يونانية. ولعله شيد معبدا للربة ايزيس . وهل أمدها الاسكندر بأجهزة الحكم المألوفة فى دول المدن اليونانية ، وهل كان ينتوى بعد عودته أن يتخذ منها عاصمة لملكه [1] . وماهو هدفه من تأسيس الاسكندرية أصلا . هذه اسئلة يختلف الباحثون فى الاجابة عنها . بل أن قلة من المؤرخين ينكرون أن الاسمندرية أسست على غرار دول المدن اليونانية الحقة (Polis) .

وتابع الاسكندر سيره متجها نحو الغرب بمحاذاة الساحل الشمالى حيث بلغ موقع مرسى مطروح الحالية حيث يقال أنه أسس مدينة باسم برايتونيوم Paratonium ، وان كانت معلوماتنا عنها لاتزال طفيفة . ومنها انحرف جنوبا ضاربا فى قلب الصحراء قاصدا واحة الاله آمون (المعروفة الآن باسم واحة سيوه) حيث كان لهذا الاله معبد . مضى الاسكندر الى هذا المعبد ليستلهم وحي الاله المصرى آمون الذى كان معبده هناك معروفا للاغريق بل مشهورا بأنه مركز للنبوءة (منذ القرن الخامس ق . م) كمعبد الاله أبوللون فى دلفى . وأما لماذا فعل الاسكندر ذلك معرضا جيشه للهلاك فى قلب الصحراء ، وما هى الاسئلة التى وجهها للاله آمون (أى لكهنته) فى قدس أقداس معبده (الذى دخله وحده) ، وماهى الاجابات التى تلقاها ، فهذه كلها مشاكل يختلف فى تفسيرها المؤرخون . ولعلها تظل

(١) ثم عدل عن ذلك وقرر أن يتخذ من بابل عاصمة للامبراطورية ؟ .

بدون حلول أو تفسيرات مقنعة لأن الاسكندر - على نحو ما ذكرنا - دخل وحده قدس أقداس معبد آمون ، وتلقى وحده اجابة كاهنة ، واحتفظ بسرها لنفسه . وكتب الى أمه أوليمبياس في مقدونيا يقول انه لن يبوح بما سمعه في المعبد الا لها بعد عودته من الحملة . لكنه مات في بابل ولم يعد أبدا الى مقدونيا فدفن سره معه . لكن لعل الاسكندر كان يستهدف من الزيارة استشارة الآله آمون في بعض الأمور كالاستفسار عن مصير الحملة ضد الفرس وكاغتيال أبيه ، أو الحصول من الآله على شيء يرضى به نزعته الرومانتيكية (الخيالية) كتصريح بأنه ابنه مثلا مما يدعم به سلطانه في مصر ويستغله للدعاية على الصعيد الهلليني الدولي .

ومع هذا فنحن على يقين من أمور واحد وهو أن كاهن آمون حيا الاسكندر كأبن للاله (آمون) . وتلك كانت عند المصريين تحية تقليدية تؤدى لكل ملك على مصر . وقد غدا الاسكندر ملكا على مصر . فهو خليق بهذه التحية ، وخليق بالتالي بلقب فرعون . لكن الاسكندر لم يكن على بينة من ذلك . ومن ثم فقد ترك هذا الحادث في نفسه أثرا قويا عميقا . وكرجل شديد الاحترام للآلهه (مثل هيراكليس) واسع الخيال ، مرهف العاطفة ، فقد تملكه شعور بأنه يحظى برعاية سماوية خاصة . وتصور منذ ذلك الحين بأنه مرتبط بآمون برابطة خاصة ، وأن هذا الاله قد اصطفاه بسبب يؤثره لصفاته على سواه من البشر . كما تصور أن حملته على الشرق ماهى الا رسالة الهية . وأخذ التصور أو هذه الفكرة تزداد نضوجا ونضجا خلال السنوات التالية .

– مصـــر في عصر الاســكندر الأكبر :

منذ منتصف القرن السادس ق . م . ظهرت دولة فارسية جديدة على مسرح السياسة في الشرق الأوسط بسطت نفوذها فشملت امبراطوريتها معظم اجزاء الشرق الأوسط بما في ذلك آسيا الصغرى وسواحل سوريا وفينيقيا وفلسطين ومصر التى فتحها تميز سنة ٥٢٥ ق . م . ومن ذلك الوقت ومصر تارة تخضع لحكم الدولة الفارسية وتارة أخرى تثور عليها .

وكان المصريون يتحينون الفرص المناسبة للقيام بحركاتهم الاستقلالية ، ولهذا كانت أول ثورة قومية ضد الحكم الفارسى عام ٤٨٦ ق . م . وقد نكل الملك الفارسى بالمصريين ابشع تنكيل بعد أن احتل اراضيهم وكانت الاساليب الاستعمارية حافزا للمصريين على بذل كل مافى وسعهم للتخلص من قبضة الفرس واسترداد استقلالهم . ومنذ ذلك الوقت ومصر تارة تخضع لحكم الدولة الفارسية وتارة أخرى تثور عليها ، وفى ثوراتهم ضد الحكم الفارسى وجدوا العون كل العون من الاغريق ، فقد أمدهم الاثينيون بقوة بحرية كبيرة ، ولم يتوان الجند الاغريق عن الانتظام فى صفوف الثوار المصريين كلما طلب اليهم ذلك ، على حين كانوا يرفضون الاشتراك فى صفوف القوات الفارسية التى تحتشد لاخماد الثورات المصرية .

وظلت علاقة المصريين بالاغريق قوية وطيدة طوال اعوام الاستعمار الفارسى لوادى النيل . برغم كل التفكك والانحلال الذى كانت بلاد الاغريق تعانيه آنذاك [illegible] استطاعت مقدونيا ان توحد الاغريق وان تخلق

منهم قوة متماسكة ، عزم ملكها فيليب المقدوني على القيام بغزوة كبرى يحطم بها الامبراطورية الفارسية ، ولكن الاقدار لم تمهله ، فقضى نحبه قبل ان ينفذ مشروعه العظيم تاركا المهمة لابنه وخليفته الأسكندر الأكبر .

في هذا الوقت كانت الامبراطورية الفارسية تعاني من دائين خطرين .

الاول : سوء الادارة في الولايات التابعة لها .

الثاني : تربع على عرشها ملك ضعيف هو دارا الثالث ، ولهذا سرعان ما انهارت الامبراطورية الفارسية امام عبقرية الاسكندر الفذة .

استطاع الاسكندر الاكبر - وقد ورث عن ابيه جيشا ضخما - قيادة الاغريق في حرب شاملة ضد الفرس انتقاما لما ارتكبوه في بلاد الاغريق لمدة قرن ونصف تقريبا ، رغم ما كان يكتنف ذلك من صعاب ، وقد كان الفرس يعتمدون على موارد امبراطورية لاتنضب وسيادة البحار ، على حين كانت موارد الاسكندر الاكبر ضئيلة نسبيا ، لكن سرعان ما انهارت الامبراطورية الفارسية أمام عبقرية الاسكندر الذى رأى أن خير وسيلة للقضاء على سيادة الفرس البحرية هي الاستيلاء برا على قواعد الاسطول الفارسي الواحدة بعد الاخرى ، ولعل ذلك يفسر عدم تتبعه للملك الفارسي شرقا نحو عاصمته صوصه بعد ان انتصر في معركة ابسوس سنة ٣٣٣ق . م . وانما انحدر جنوبا فاستولى على سوريا وفينيقيا وفلسطين ثم اتجه الى مصر استكمالا لمحاصرة الاسوطل الفارسي بالاستيلاء على جميع السواحل في شرق البحر المتوسط التي يمكنه ان يلجأ اليها ، وحتى يضع يده على موارد مصر الغنية كمصدر هام للغلال يمكن معه استخدامها لتموين المدن

اليونانية وجيوشه الغازية [١] .

على أى حال حينما احتل الاسكندر المقدونى مصر فى عام ٣٣٢ ق . م وضع بذلك نهاية للحكم الفارسى فيها ، الـذى ظلت ترزح تحت نيرانه نحو من قرنين تقريبا ، ووضع مصر بذلك على ابواب مرحلة حضارية جديدة .

ولعل اتجاه خطة الاسكندر جنوبا وعدم تتبعه للملك الفارسى والقضاء عليه هو انه اراد محاصرة الاسطول الفارسى عن طريق الاستيلاء على سواحل شرق البحر الابيض المتوسط - كما سبق القول - وقد وردت هذه الخطة فى خطبه التى القاها الاسكندر بنفسه [٢] .

وصل الاسكندر الى بلوزيوم على رأس جيشه ووضع بها حامية عسكرية ثم سار عن طريق النيل الشرقى الى هليوبوليس ومنها الى منف . لم يجد مزاكس [٣] الوالى الفارسى على مصر اذ ذاك بدلا من التسليم ، لأنه ادرك عدم وجود قوات تحت لواءه وان فينيقيا وسوريا قد استسلمت واصبحت فى ايدى المقدونيين . وفى منف سلمه الوالى الفارسى خزينة الدولة وبها ٨٠٠ تالنتا [٤] وكل الاثاث الملكى . وتسلم الاسكندر ايضا قلعة الملك ومعسكر الحراسة بها .

وجدير بالملاحظة ان المصريين لم يخفوا عواطفهم نحو الاسكندر بسبب المصائب التى جلبها عليهم الفرس ، بل وجدوا فيه المحرر والمنقذ من هذه الدولة . وكان اول ما فكر فيه الاسكندر عندما استقر فى منف هو اظهار

---

(١) د / ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عهد البطالمة جـ١ ص ١٦ ، ١٧ .

(2)Arrian II. 17 . 4 .
(3) Arrian III. 1 . 2 .
(4) Quintus Curtius, IV. VII .

احترامه للديانة المصرية ، ولذلك نراه وقد قدم القرابين فى معبد الاله بتاح والعجل المقدس آبيس . بل ويقال انه توج فرعونا فى معبد الاله بتاح طبقا للطقوس الدينية المصرية .

ولعل الاسكندر اراد بتشبهه بالتقاليد المصرية وتقديم القوابين الى بتاح وابيس ضمان ولاء المصريين له ، خاصة وانه من بين الاسباب التى اثارت حفيظة المصريين على الفرس انتهاكهم حرية الديانة المصرية ، كذلك لم ينسى الاسكندر حضارته الهيلينية فاقام فى منف حفلا اغريقيا رياضيا وموسيقيا اشترم فيه بعض من اشهر الموسيقيين والممثلين فى العالك الاغريقى[1] .

ولم تكن منف التى اتى اليها الاسكندر بلدة جديدة بالنسبة لليونانيين ، فمنذ القرن السابع كانت هناك اعداد ضخمة من الجنود المرتزقة اليونانية فى خدمة الجيش المصرى ، وكان لهم مكان خاص بهم على فرع النيل البلوزى ثم نقلهم امازيس الى منف . وهكذا عند قدوم الاسكندر اليها وجد بها عناصر اجنبية ، ولكن كيف كان حالهم بعد مجىء الاسكندر ؟ لعلهم كانوا يأملون فى بداية عصر جديد بالنسبة للكيانة الهيلينى فى مصر مثلما آمل المصريون بحضور الاسكندر كمحرر لهم من العبودية الفارسية ومحافظ لهم على حقوقهم الدينية .

ادرك الاسكندر ذلك جيدا فحاول التوفيق بين الهدفين ولعل ذلك كان دافعا له لاقامة برنامج مزدوج ، فقدم القرابين للعجل أبيس المصرى والاله

---

(1) Arrian, III. 1. 4 .

بتاج واقام احتفالا رياضيا وموسيقيا على الطريقة اليونانية [1] .

ترك الاسكندر منف فترة من الوقت ليقوم برحلته فى الشمال الغربى الى معبد الاله آمون فى سيوه . فاتخذ الفرع الكانوبى من النيل حتى الساحل ، ثم تتبع الساحل غربا حتى وصل الى قرية تعرف باسم راقودة - (راكتوتيس) [2] ، تواجهها فى البحر جزيرة فاروس ، والى الجنوب منها تقع بحيرة ماريا (مريوط) . هناك قرر الاسكندر تأسيس مدينة الاسكندرية [3] وهى تعتبر اعظم واخلد اعمال الاسكندر فى مصر بل وأمر [4] ان تتخذ عاصمة لمصر بدلا من العاصمة القديمة منف . وقد أصبحت فيما بعد اعظم عواصم العالم الاغريقى فى ذلك العصر .

وتروى المصادر القديمة انه لم تتوافر كمية كافية من الجير لتحديد موقع اسوار المدينة الجديدة ، فاستعانوا بالدقيق الذى كان مخصصا لمؤنة الجنود لاتمام التخطيط مما اعتبر فالا سعيدا يبشر بما ستصيبه المدينة من الرخاء والرفاهية [5] . قام الاسكندر بتحديد النقاط الرئيسية للمدينة فبين مكان انشاء السوق ، وعدد المعابد لكل من الالهة اليونانية وكذلك لايزيس المصرية ، كما يؤكد اريان [6] . وهو بذلك يضمن رضاء كل من اليونانيين والمصريين ، كما انه قام بتحديد الحدود الدقيقة لخطوط الدفاع الخارجية للمدينة .

(1) U. Wilcken, Alexander der Grosse, P. 107 .
(2) Arrian, III. 1.5 .
(٣) د / مصطفى العبادى : المرجع السابق ص ٢٠ .
(4) Justinus x. II. 13 .
(5) Strabo, xVII, 6 .
(6)Arrian III, 1 5 .

لكن لنا أن نسأل الان ماذا فعل الاسكندر بهذا الموقع ، ولماذا اسس عنده اخلد اعماله ؟ ولماذا قرر نقل عاصمة البلاد من منف الى الاسكندرية ؟

لعل الاسكندر اراد باتخاذ الاسكندرية عاصمة للبلاد بدلا من منف رفع شأن الكيان الهيمليني فى مصر ، فان اختيار هذه العاصمة الجديدة يتناسب واهدافه العهد الجديد .

ولعله كان يهدف ايضا ان تكون الاسكندرية ثغرا مقدونيا فى البحر الابيض المتوسط ، لاسيما انه لم يكن لمصر على شواطىء هذا البحر مينا، جديرا باهميتها وغناها . ولعل هدفه لم يكن اقتصاديا فحساب بين كان ايضا حربيا وحضاريا ، بان يجعل من الاسكندرية قاعدة بحرية تدعم سيطرته على بحر ايجه وشرق البحر الابيض المتوسط ، ومركزا لنشر الحضارة الاغريقية بين ربوع الشرق القديم . وجاء اختياره لموقعها مؤيدا لذلك ، وازاء هذه الاعتبارات قرر الاسكندر انشاء هذه المدينة التى اصبحت اعظم عواصم العالم الاغريقى .

بعد ذلك قام الاسكندر ومعه بعض اتباعه برحلته المشهورة الى وحى آمون فى سيوة والذى كان يحتل لعدة قرون نفس مكانه وحى دلفى باليونان كواحد من المعابد التى اكتسبت شهرة كبرى فى السرافة والوحى . لذلك فان هذه الرحلة كانت من الأهمية بمكان اولا بالنسبة لليونانيين باعتبار أن آمون سيوه هو احد أهم المعابد المشهورة بالعرافة ، كما أنه بالنسبة للمصريين وهذا هو الاهم ، كانت هذه الرحلة تبين الاهتمام الكبير من قبل

(1) P.M.Fraser,Ptol. Alex. P. 250 .

الاسكندر، بالالهه المصرية كما تؤكد انه بانتسابه لأمون اصبح له شرعية الحكم .

عاد الاسكندر الى منف بعد رحلته الى وحى أمون ، حيث تفرغ بعد ذلك لاعادة نظام الحكم والادارة على اسس جديدة . نراه يمنح مصر استقلالا داخليا [1] وذلك بان قسم مصر الى قسمين تحت امرة حاكمين هما بتسيس ودولوابسبس وهما مصريان ، ووضعت الاقاليم المتأخمة للدلتا تحت اشراف اثنين من الاغريق الاول : ابولوينوس حاكما على ليبيا والثانى : كليومينيس النقراطيسى حاكما على المقاطعة العربية (شرق الدلتا) ، وكلف كليوميتيس بان يفرض على الحاكمين المصريين ان يرعيا فى حكمهما التقاليد المصرية القديمة وبأن تحصل الضرائب منهما بعد جمعها ، كما عهد الاسكندر الى كليومنيس ايضا بالاشراف على انشاء مدينة الاسكندرية .

هذا هو ملخص النظام الذى وضعه الاسكندر لحكم مصر قبل ان يغادرها فى ربيع سنة ٣٣١ ق . م . ليواصل حربه ضد الملك الفارسى فى الشرق ونظرة سريعة الى هذا النظام تكشف لنا نقصا ظاهرا ، وهو عدم وجود منصب حاكم عام للبلاد . وانما وزعت السلطة بعناية شديدة بين المشرفين على الادارة والشئون العسكرية والمالية وكان اريان [2] اول من لاحظ هذه الحقيقة وفسرها بأن الاسكندر فعل ذلك عامدا ليمنع أى حاكم بمفرده من أن يقوى سلطانه ويتمكن من الاستغلال بمصر . ومما تجدر ملاحظته من هذه النظم التى وضعها الاسكندر انها تمتاز بثلاثة ظواهر اولها :

(١) د : ابراهيم نصحى ، المرجع السابق ، جـ١ ص ٣٢

(2) Arrian , III. 5 . 7 .

الحب والعطف اللذين ابداهما الاسكندر نحو المصريين فاختار من بينهم حاكمي الوجهين البحرى والقبلى ، ولعله اراد بذلك ضمان ولاء المصريين له . والظاهرة الثانية انه لم يعين حاكما عاما للبلاد ، بل عمد الى تقيم السلطة بين عدد من الافراد لتفادى خطر استقلال واحد بالسلطة فى مصر مما يتعارض ومصلحة امبراطوريته . أما الظاهرة الثالثة وهى تدلنا على مدى مايتمتع به الاسكندر من ذكاء ، تخص الشئون المالية ، فان الاسكندر لم يرغب ان يقوم بجمع الضرائب موظفين جدد ، فيشعر المصرى بأنهم اجانب أو دخلاء يقومون بجمع المال ، ولكن يدفع الشعب ضرائبه لأهل بلدته وهم مشرفو الاقاليم وهؤلاء بدورهم الى كليومنيس .

هكذا كان الاسكندر فى مصر وحينما ذهب الى فينيقيا فى عام ٣٣١ق . م . لم يعد مرة أخرى الى مصر ، لكن عاد جثمانه بعد وفاته حيث دفن فى منف ، وظل بها فترة لايعرف مداها ، ويقال ان بطلميوس الثانى نقله الى الاسكندرية .

من برسيبوليس حتى هندوكوش (٣٣١ - ٣٢٧) :

خرج الاسكندر من مصر في ربيع عام ٣٣١ متعقبا دارا الذى أتاح له الاسكندر بعروجه على مصر فرصة التقاط أنفاسه وتجميع قواته . وكان دارا قد حشد جيشا كبيرا فى جوجاميلا (Gangemela) التى تقع فى السهل المحصور بين الضفة الشرقية لأعلى نهر الدجلة ومدينة أربيلا Arbelia الأشورية [1] . وفى معركة جوجاميلا (التى تسمى أحيانا معركة أربيلا) التحم الاسكندر بالجيش الفارسي ومزقه تمزيقا ، وفر دارا الثالث الى قلب آسيا (اكتوبر ٣٣١) . وبعدئذ انحدر الاسكندر مع الدجلة وتحول الى بابل (Babylon) على الفرات . ثم انحرف شرقا الى سوسا Susa (شوشن عاصمة الفرس القديمة) [2] ثم انحدر جنوبا الى برسيبوليس Persepolis (اصطخر) عاصمة « فارس » (٣٣٠) حيث كان يوجد القصر الضخم الفسيح وكنوز الفرس وتحفهم النادرة . وقد دمر الاسكندر – دون مبرر – جانبا من برسيبوليس بعد استسلامها له . وفى اوائل ٣٣٠ غادر عاصمة الفرس واتجه شمالا الى اكباتانا Ecbatana (همدان) [3] وزحف شرقا لمطاردة فلول جيش دارا وبلغ هيركانيا Hyrcania عند الطرف الجنوبى الشرقى من بحر قزوين . وفى اقليم بارثيا Parthia (جنوب شرقى بحر قزوين) سمع أن دارا قد قتل بيد بيسوس (Bessus) والى باكتريا (حول بلخ) . وكان فى طريقه يؤسس مدنا تحمل اسمه . ثم تابع الاسكندر زحفه شرقا حتى ارتكابا (اقليم أريا Areia) وانحدر جنوبا مع النهر الى

---

(١) هى تل جوبل وتقع على بعد ٣٥ كم شمالى شرقى الموصل .

(٢) سوسا عاصمة « عيلام » .

(٣) اكباتانا عاصمة « ميديا » .

درانجيانا (Drangiana) ثم انحرف شمالا الى جند هـار باقليـم أواخوسيا Arachosia = كندهـار واتجـه بعدئـذ شمـالا حتى بلـغ موقـع كابول (عاصمة أفغانستان الحالية وتابع سيره حتى باكترا Bactra (بخ) فى اقليم باكتريا بين نهر جيحون Oxus وجبال باروباميسوس Paropamisos (هندوكوش) (شمـال افغانستان وغـرب تركستان الروسية).[1] وهـناك قبض على بيسوس قاتل دارا وأعدمه ومنها سار شمالا الى مراكاندا Marakanda (سمرقند) (٣٢٩ - ٣٢٧) حيث قضى قرابة عامين فى فتح اقليم سوجد يانا Sogdiana (أزبكستان الحالية) الواقع شرقى نهر سيحون (Jaxartes) واقليم باكتريا (حول بلخ) .

غزو حوض السند (٣٢٧ - ٣٢٦) :

العـودة (٣٢٥) :

وبعدئذ انحدر الاسكندر جنوبا الى كابول واتجه شرقا الى حوض السند وبلغ تاكسيلا Taxila (روال بندى) على نهـر السند . ثم سار جنوبا . ومات حصانه الشهير بوكيفالوس فأسس مدينـة باسـمه تخليدا لـذكره وهـى بوكيفالا (Bucephala) على ضفاف نهر هيداسبيس Hydaspes (جيلام) عام ٣٢٧ . ولم يلق مقاومة حتى بعد عبوره نهر السند (Indus) . لكنه لقى مقاومة عندما اقتحم مملكـة الأمـير الهـندى باورافا (بوروس Poros فى اليونانية) الذى كان يسيطر على المنطقة الشرقية شـرقى نهر هيداسبيس . وانـزل به الاسكندر الهـزيمـة عـام ٣٢٦ ولكـنه سمح له

---

(١) يشمل اقليم باكتريا (مع شمال سوجديانا) مرو وجزء من خراسان وبلـغ وبخارى وفرغانة .

بالاحتفاظ بمملكته . وكان آخر منطقة بلغها هي منطقة هيفاسيس Hy-phasis (سوتلج الحالية) . وهنا انتهت مسيرة حملته نحو الشرق . ان أصاب التعب والاجهاد جنوده وعلى الأخص المقدونيين بسبب طول الرحلة وعنائها . واضطر الاسكندر الى العودة (٣٢٦) وركب نهر هيداسبيس جنوبا حتى مصبه مع جزء من قواته بينما زحف الجزء الباقي بمحاذاة ضفتي النهر في فصيلتين . وبلغوا جميعا شاطيء المحيط الهندى حوالى منتصف عام ٣٢٦ . ومن هناك أرسل الاسكندر القائد نيارخوس (Nearchus) على رأس اسطول ليبحر به بمحاذاة الساحل حتى الخليج العربى .

وأما الاسكندر نفسه فقد سار مع بقية قواته برا عن طريق الجنوبى عبد جيد روسيا (Gedrosia) ومر بمدينة برسيبوليس وبلغ سوسا فى اوائل عام ٣٢٥ . وبعد أن أعطى قواته قسطا من الراحة اتجه عند نهاية ذلك العام (٣٢٥) شرقا مرة اخرى الى اكباتانا (همدان) فى اقليم ميديا حيث مات صديقه الحميم هيفايستيون (٣٢٤) . ثم قفل الاسكندر راجعا الى بابل حيث مرض بالحمى ومات فى يوم ١١ يونيو عام ٣٢٣ .

تأليه الاسكندر :

ولنتوقف هنا لحظة نستعرض فيها بعض احداث فى الحملة كان لها دلالتها وفى مقدمتها ما يقال عن ذلك التغيير الذى طرأ على سلوك الاسكندر . فقد لوحظ انه بدأ يتشبه بالفرس ويرتدى زيهم بل ويقلد بعض عاداتهم . وقيل انه زين رأسه بما يشبه التاج الفارسى (tiara) . ولاشك فى أنه أعجب ببعض الشخصيات الايرانية وغيرها ممن التقى بهم . وأبلغ من ذلك دلالة هو أنه بدأ يطالب زملاءه المقدونيين بأن يؤدوا له التحية على

الطريقة الفارسية ، وأن يحنوا هاماتهم له عند الدخول عليه تبجيلا له أو ينبطحوا أرضا أمامه على نحو ما كان رعايا الفرس يفعلون عندما يدخلون على الملك الأكبر . وبعبارة أخرى طالبهم الاسكندر بالسجود له (Proskynesis) . وقد أثار ذلك دهشة اقرانه من القواد ورجال حاشيته . بل أثار سخريتهم واستنكارهم . وقد استجاب البعض وتردد البعض الآخر فى الاستجابة ورفضت قلة رفضا باتا منكرة عليه هذا التحول فى اخلاقه . ولم يكن السجود فى الواقع يعنى عند الفرس أى نوع من التأليه للملك لأن الفرس لم يؤلهوا ملوكهم . لم يكن يعنى عندهم سوى الاحترام البالغ أمام الملك الأكبر . لكنه كان يعنى غير ذلك عند المقدونيين والاغريق . كان السجود عند هؤلاء يوحى بمعنى العبادة ، وأنه من حق الآلهه وحدهم الذين لاينبغى أن يسجد الا لهم . وأما السجود أو حتى الانحناء أمام بشر فيتضمن معنى المهانة والذلة والعبودية . وعندما دعى كالليستنيس Callisthenes - وهو ابن شقيقة أرسطو والمرافق للحملة [1] عندما دعى ليسجد أمام الاسكندر ، رفض قائلا ان العادات الآسيوية (الايرانية) ينبغى ان تظل مقصورة على الآسيويين . وقد كلفه هذا الرفض حياته .

ومع أن الاسكندر لم يكرر المحاولة ولم يصر على سجود زائريه بعد ذلك الا أننا نتساءل عن مغزى المحاولة ، ومدى جديتها . وبعبارة أخرى نتساءل عن هدفه من الاقدام على تلك الخطوة . وهل صحيح أنه كان يعتزم اقامة حكمه على أساس من الحق الالهى ؟ وهل صحيح أنه كان يهدف الى أن يكون الها للامبراطورية لأنه بذلك وحده يستطيع أن يحكمها بسهولة ويسر

---

(١) هو مؤرخ الحملة . وكان من مدينة أولينثوس .

وأن يؤلف بين عناصرها البشرية المتباينة غير المتجانسة ؟ ويرى بعض الباحثين أن ذلك كان هدفه . ويربطون بين طلب السجود له وبين زيارته لآمون فى معبده (بواحة سيوة) . ويقولون ان الاسكندر لم يهدف فقط من وراء زيارته لمعبد آمون استشارة الاله المصرى عن مصير الحملة أو الاستفسار من الأله عن مقتل ابيه فيليب أو الظفر منه بما يرضى نزعته الخيالية ، وانما أراد أن يظفر منه بما يمكن أن يدعم سلطانه يؤكد نسبه اليه فيستغل ذلك — كما ذكرنا — للدعاية على الصعيد الهلليني الدولى . ولكن ألم يتوقع الاسكندر ماقد يثيره مسلكه من اعتراض بل امتعاض فى صفوف المقدونيين والاغريق ؟ لقد كان الأمر هينا فيما يتصل بمصر حيث نصب الاسكندر رسميا كفرعون . وكفرعون كان لابد من تحيته كابن لآمون شأنه فى ذلك شأن من سبقوه من الفراعنة . وقد ذكرنا من قبل أن الاسكندر لم يدرك — على ما يرجح — كنه هذه التحية ومغزاها ، وربما لم يكن قد أمن بعد بصلته أو نسبة لهذا الاله . لكن هذا الحادث — كما أسلفنا — ترك فى نفسه أثرا قويا عميقا . وكرجل شديد الخيال روماتيكى النزعة عميق الايمان من الناحية الدينية ، فقد تصور منذ زيارته للواحة المصرية (سيوه) أنه مرتبط بأمون برباط خاص . وقد نسب الى الاسكندر ما معناه « ان آمون هو أبو البشر جميعا . لكنه يصطفى أفضل البشر ويجعلهم ابناءه المقربين . ولعل الاسكندر بدأ يعتقد أن ثمة صلة بينه وبين هذا الاله أقوى من تلك التى بين الاله وبين عامة البشر ، وأنه صار تحت رعاية آمون الذى ينصحه ويرشده . بل تصور أن الحملة رسالة الهية أو حتى بنوة روحية . ولقد سكت عملة تحمل صورة الاسكندر وتبرز من رأسه قرنان يرمزان الى الكبش وكان الكبش هو الحيوان المقدس للاله المصرى آمون . ومن هنا جاء تلقيبه « بالاسكندر

ذى القرنين » . وقيل أيضا ان الاسكندر أوصى قبيل وفاته بأن يدفن الى جانب أبيه آمون فى واحته (سيوه) .

لهذا يرجح بعض المؤرخين أن فكرة اقامة الحكم على أساس من الحق الالهى اختمرت فعلا فى رأس الاسكندر بل ان فكرة الالوهية نفسها قد رسخت فى ذهنه بحيث أنه لم يعد يأبه بأى معارضة أو امتعاض من جانب المقدونيين والاغريق . ولم يعد يحفل بتقاليدهم أو نظرتهم الى الحاكم وطبيعة سلطته . وهى نظرة كانت تختلف عن نظرة كثير من الشرقيين ، اذ لم تتضمن فكرة حق الملوك الالهى ، كان الاغريق والمقدونيون قد فصلوا منذ زمن بعيد بين الدين والدولة . ويسوق هؤلاء المؤرخون أدلة أخرى تؤيد اعتناق الاسكندر لنظرية الحق الالهى كسند للحكم . يقولون أن الاسكندر قد تأثر بالافكار التى كانت شائعة فى عصره كأفكار الكاتب السياسى الأثينى ايسوقراط (Isocratos) الذى كان من أنصار توحيد دويلات المدن اليونانية تحت زعامة فيليب الثانى ، والقيام بحملة مشتركة ضد الفرس تحت قيادته . فقد كتب الى فيليب ، والد الاسكندر ، يقول له فى احدى رسالته :« انه اذا انتصر (فيليب) على الامبراطور الفارسى وغز املاكه فلن يتبقى أمامه الا أن يصبح الها » ، ومن المؤكد أن الاسكندر اطلع على هذه الرسالة التى نشرها ايسوقراط وعرفها كل الاغريق حينئذ . وكانت مؤلفات ايسوقراط رائجة وتقرأ فى كل مكان . وقد أخذ الاسكندر – على ما يرجح – بنصيحة أخرى لهذا الكاتب ، وهى نصيحة كانت موجهة الى أبيه : وهى ضرورة انشاء مدن على النمط اليونانى فى آسيا بعد فتحها .

فأسس الاسكندر عدة مدن يونانية الطراز فى ايران وكالاسكندرية فى مصر .

لعل الاسكندر قد تأثر فى هذا المجال بأفكار كتاب آخرين ممن تتفاولوا بالشرح نظرية الحكم الملكى . ومن بين هؤلاء الكتاب الفيلسوف أرسطو الذى يصف فى كتاب السياسة (Politika) منزلة الملك بأنها كمنزلة الاله بين البشر ، وأن مثل هذا الشخص (أى الملك) لاينبغى أن يخضع لارادة الآخرين بل ينبغى أن يعطيه الآخرون بمحض اراداتهم وعن طيب خاطر . ومن المعروف ان الاسكندر تتلمذ على أرسطو الذى لقنه بلاشك بعض الأفكار السياسية وفى مقدمتها نظرية الحكم الملكى . صحيح أن الاسكندر لم يظل على تمسكه بكل الافكار التى لقنها له أرسطو فقد نبذ بعضها فيما بعد . فلم يأخذ مثلا بنظرية الاستعلاء العنصرى أو أن الاغريق ولدوا أحرارا بينما ولد البرابرة (الشرقيون) عبيدا ، وانه يجب استرقاق الاخيرين أو ابادتهم . اذ سرعان ما تبين للاسكندر فساد هذه الفكرة وبطلانها فنبذها اثناء حملته بعد توثيق معرفته بالفرس وغيرهم من الشعوب الشرقية . وبذلك ارتفع الاسكندر فوق مستوى استاذه فى هذا الصدد على نحو ماسنرى بعد قليل . وفى الحق أن نظرية ايسوطراط وارسطو عن حق الملوك الالهى كانت قد بدأت تروج فى ذلك الوقت وتجد لها انصارا . فنجد مفكرا آخر وهو ديوتوجنيس (Diotogenes) ، وهو أحد اتباع مدرسة فيثاغورس الفلسفية ينادى بنظرية مشابهة عن الحكم الملكى المستند الى الحق الالهى فيقول ما معناه أن موقف الملك من الدولة كموقف الله من العالم ، ومن ثم فلايجب أن يقدم حسابا عن اعماله لأى شخص . ثم يضيف الى هذا قوله « وحيث أن الملك هو تجسيد للقانون الذى يسود الدولة فمن الواجب أن ننظر اليه كما ننظر للاله بين البشر » .

لايستبعد أذن أن يكون الاسكندر قد وقع تحت تأثير هذه الافكار السياسية عن طبيعة الحكم الالهى ، ثم شجعته زيارته لمعبد آمون وما تلقاه من اجابة ، شجعته على اخراجها الى حيز التنفيذ نبدأ بتطبيقها أثناء وجوده فى اقليم باكتريا (٣٢٩ - ٣٢٧ ق . م) عندما طلب من جميع رفاقه السجود له عند مقابلته . لقد طالبهم بالسجود (Proskynesis) ولم يطالبهم بتأليهه (apothesis) . ثم جاءت الخطوة الأخيرة فى ٣٢٤ أى قبل وفاته بعام واحد عندما أصدر كرسومين كلاهما موجه الى المدن اليونانية . وقد طلب فى أحداهما من هذه المدن اعادة بعض المنفيين السياسيين اليها ، وطلب فى الآخر من هذه المدن . صراحة الاعتراف به الها ، وقد أثار هذا الطلب ردود فعل مختلفة فى بلاد اليونان . ففى أثينا - مثلا - نجد الخطيب ديموسثنيس يدعو الاثينيين الى اجابة مطلب الاسكندر فيما يتصل بتأليهه كوسيلة لمساومته على عدم اجابة المطلب السياسى الآخر (الخاص بارجاع المنفيين) وأما فى اسبرطة فقد قال الاسبرطيون « فليصبح الاسكندر الها اذا شاء أن يكون الها » . وقد وافقت المدن اليونانية على تأليه الاسكندر بدافع من الخوف ، فضلا عن كونه زعيم الاتحاد الجامع (حلف كورنثة) الذى يملك القوة لتنفيذ مطالبه . ومن ناحية أخرى : ماذا يضير لو أضيف اله جديد الى مجموعة الآلهه اليونانية ؟ أن هذا لم يكن بالأمر العسير على قوم لم يعرفوا عقيدة التوحيد (Monathcism) بل كانوا ينظرون الى تعدد الآلهه (Polytheism) على أنه أمر طبيعى . لكن من الواضح ان الاسكندر بمسلكه هذا قد بدأ يمزج الدين والسياسة على أساس ان الاول دعامة للثانية ، فهو من الناحية السياسية كان لايستطيع ولا كان من حقه أن يطلب الى المدن اليونانية - كزعيم

للاتحاد الهلليني - أن تسمح للمنفيين السياسيين بالعودة لأن هذا كان يعتبر تدخلا في الشئون الداخلية لهذه المدن وهو مالا يتفق مع مبادىء «السلام العام» التى أقرها مؤتمر كورنثة . لكن اذا كانت هذه المبادىء تلزمه كملك للمقدونيين بعدم التدخل فى الشئون الداخلية للمدن اليونانية ، فانها لم تكن ملزمة له كاله للاغريق يملك الحق فى التصرف كيفما يشاء . وأيا كانت الدافع الى موافقة هذه المدن على مطلب الاسكندر فانها (أى المدن اليونانية) كانت تدرك أن تأليه الاسكندر لايمكن أن يكون مجردا من المغزى السياسى ، وأن الاسكندر الاله لايمكن أن يكون شخصا منفصلا عن الاسكندر الزعيم السياسى .

لقد تأثر الاسكندر اذن بالمفهوم الشرقى للحكم القائم على أساس من الحق الالهى . ولعله كان يعتزم أن يقيم حكمه على أساس هذا المفهوم ، ولو أن خطواته لاخراج الفكرة الى حيز التنفيذ قد اتسمت بالتردد والحذر بسبب معارضة المقدونيين والاغريق وعدم هضمهم للفكرة . واذا كانت المدن اليونانية قد سلمت بالأمر الواقع واستجابت لرغبته فى اعتباره الها ، فقد فعلت ذلك كرها لا طوعا وتحت وطأة سيطرته الشديدة ، وهى سيطرة لم تتمكن هذه المدن برغم مختلف المحاولات من التخلص منها.

لكن كيف كان ذلك النوع من الحكم القائم لى الحق الالهى يتفق مع مفهوم الحضارة الهللينية التى كانت دولة المدينة اليونانية الحرة تشكل

اطارها الرئيسي وتمثل وعاءها التي ازدهرت فيه ؟ كان الاسكندر معجبا بالثقافة اليونانية وقد خرج في حملته ضد الفرس كنصير لهذه الحضارة وحامل لوائها بل حامي حماها . وأسس وهو في طريقه عدة مدن على النمط الاغريقي . وكان يرى في أثينا خير ممثل لهذه الحضارة وكانت المدينة تحتل في نفسه منزلة رفيعة . غير أن هذا كله لم يؤثر - على مما يبدو - فى نظرته الى الحكم الديمقراطي ، ذلك الحكم الذى كانت أثينا من ناحية أخرى تمثله خير تمثيل . كان الاسكندر يرى فى الحكم الديمقراطي ما يتعارض وسلطته كملك . ينزع بالضرورة الى الأوتوقراطية (الاستبداد) لهذا لم يكن متحمسا للحكم الديمقراطي أو النظام الشعبى الذى كان سائدا فى كثير من دويلات المدن اليونانية . ويبدو أن اعجابه بالحضارة الهللينية كان اعجابا ثقافيا عاطفيا أكثر منه سياسيا واقعيا . كان يعيش بخياله فى « عصر بطولة » بلاد الاغريق ، وعالم الحرب الطروادية . ولعله لمس أوجه الشبه بين حملته ضد الفرس وحملة الاغريق القدامى ضد طروادة . ولقد روى - كما ألمعنا من قبل - أنه كان يحمل فى أثناء الحملة نسخة من الالياذة . وعندما نزل بآسيا الصغرى زار موقع قبر أخيل ، بطل الحرب الطروادية ، وصديقه باتروكلوس عند مكان طروادة ، وقدم القرابين اجلالا لذكرى بروتيسيلاوس ، أول بطل اغريقي سقط فى الحرب الطروادية (حوالى ١٢٠٠ ق . م) . لقد كان اعجاب الاسكندر ببلاد الاغيرق الهومرية يفوق اعجابه ببلاد الاغريق المعاصرة له . وكان يعيش - كما ذكرنا - فى الجو الهومرى مع ابطال الالياذة . وفى عصر الحرب

الطروادية كأن نظام الحكم ملكيا اذ كان أجاممون (قائد عام الحملة الطروادية) ملكا على ميكيناى ، وأخوه منيلاوس ملكا على أسبرطة ، ونستور ملكا على بيلوس (قرب نوارينو) . هذا على سبيل المثال لا الحصر. وفى أيام هوميروس نفسه (القرن التاسع ق . م .)[1] كان الحكم الملكى قد بدأ يتحول الى حكم ارستقراطى . وعلى أى حال فكلا النظامين كان أبعد ما يكون عن النظام الديمقراطى وأقرب ما يكون الى الحكم الفردى أو الاقلية . وليس من المستبعد أن يكون موقف الاسكندر من دويلات المدن اليونانية قد تأثر أيضا بانطباعاته عن الجو الهومرى القديم . لكن اذا كان الاسكندر لم يسلك طريقا واضحا وصريحا ازاء المدن اليونانية لاعتبارات كثيرة فان مسلكه كان واضحا ازاء الممتلكات الفارسية التى استولى عليها بحد السيف اذ أن حكمه فيها كان امتدادا للحكم الفردى المطلق الذى كان سائدا فيها من قبل .

الاسكندر والامبراطورية العالمية :

كان الاسكندر وان حمل لواء الحضارة الهللينية واعتبر وريثا لها ، هو أول من خرج بالتفكير اليونانى من حيز البحر المتوسط الى « حيز القارات» . وبعبارة أخرى كان أول من نبه أذهان الاغريق الى فكرة الامبراطورية وما يستتبعها من السيطرة على العالم المأهول وقتئذ أو المعمور (Oikoumene) وما فيها من شعوب وعناصر مختلفة . وفتوحاته الواسعة هى أوضح دليل على تبلور هذه الفكرة فى ذهنه . وقد أفصح عنها فى مناسبتين لا تدعا مجالا للشك هى رفضه اقتراح دارا الثالث بأن يتنازل له (دارا) عن ممتلكاته

(١) لم يشهد هوميروس الحرب الطروادية التى وقعت قبله بحوالى أربعة (فى آخر القرن الـ١٣ أول القرن ١٢ ق . م) أى حوالى ١٠٠٠ ق . م .

الواقعة شرقى الفرات ، وأما المناسبة الثانية فكانت الرسالة التى بعث هو بها الى دارا الثالث عقب انتصاره عليه فى معركة اسوس عام ٣٣٣ . وفيها يصف نفسه « بسيد آسيا » ويمضى الاسكندر قائلا له لقد انتصرت عليك واصبحت أمتلك أراضيك بفضل الآلهة . وهكذا يجب أن تراسلنى الآن باعتبارى ملك آسيا العظيم . وحاذر من أن تكتب الى كما تكتب الى ند (نظير) لك . لكن اذكر دائما ، عندما تلتمس منى مطلبا الى سيد كل ما تملكه » . هكذا نرى ان الاسكندر لم يشأ أن يقف بفتوحاته عند حد الفرات . ونسمع منه بوضوح نبرة الامبراطورية ونغمة السيطرة على كل الشعوب التى تقطن الولايات الفارسية سواء فى افريقيا أم فى آسيا .

كان الاسكندر أول من صاغ فكرة الوحدة بين البشر فى قالب واضح . كان الناس جميعا – فى نظره – أخوة لأنهم جميعا ابناء الاله . وقد أشرنا الى اعجابه بالفرس وغيرهم من الشعوب وتقديره لصفاتهم ومحاكاته لبعض عاداتهم . وقد اعتمد فى مصر على بعض المصريين وعينهم حكاما قبيل رحيله عنها . واعتمد على الايرانيين بل هدد مرة عندما تمرد عليه جنوده المقدونيون بتأليف فرقة عسكرية منهم . وبل أن ثقته بالمقدونيين تزعزت وارتاب من بعض قواده المقدونيين ، وأمر بقتل عدد منهم ، قتل بارمنيون ، قائده الامين ، وابنه فيلوتاس فى عام ٣٣٠ . وقتل صديقه كليتوس (الذى انقذه فى جرانيكوس) اثر نزاع شخص وهو ثمل عام ٣٢٨ . وأمر باعدام كاالليستنس (ابن أخت أرسطو) لارتيابه من أنه كان ضالعا فى مؤامرة هرمولاوس عام ٣٢٧ ، وقد كلف هذا الاسكندر عداوة مدرسة ارسطو الفلسفية (المشائيين) بعد وفاته .

وليس أدل على نبذة فكرة التفرقة العنصرية واتجاهه الى توحيد شعوب الامبراطورية من سلوكه في حياته الخاصة . فقد تزوج من روكسانه (Roxana) احدى اميرات باكتريا (ابنة أوكسيارتيس Oxyartes الذى قاوم غزو الاسكندر لاقليمة مقاومة عنيفة) . تزوج روكسانه - التى وصفها البعض بأجمل نساء آسيا) من عام ٣٢٧ ، وهى التى انجب منها ابنه الوحيد الاسكندر (الرابع) الذى ولد بعد وفاة أبيه ببضعة أسابيع . وفى الحفل الكبير الذى اقامه الاسكندر فى سوسا عام ٣٢٤ (قبل وفاته بسنة واحدة) دعا قواده وضباطه الى الزواج من ايرانيات . وتزوج هو نفسه - للمرة الثانية - لأغراض سياسية - من ستاجيرا (Sta cira) ابنه الملك دارا (لدوافع سياسية) نفس العام (٣٢٤) . ولم تنجب منه . ومع هذا فقد أثار هذا الزواج غيرة روكسانة . واقترن حوالى ثمانين من قواده وضباطه بزوجات آسيويات (ايرانيات أو فارسيات) . ولم يكن هذا كله مجرد مظاهرة سياسية وانما كان عملا رمزيا ، أى يرمز لفكرة الاسكندر بوجوب « اقتران آسيا وأوروبا » . وفى رأى مؤرخ حديث توفر معظم حياته على دراسة الاسكندر أن الاسكندر هو أول من نادى بفكرة أو مبدأ الاخاء الانسانى ، وانه كان يهدف الى بناء امبراطورية تجمع كل العناصر والأجناس على قدم المساواة تحت حكمه مع التسليم بتفوق الحضارة الهللينية .

لكن الاسكندر لم يجد - على ما يبدو - بين قادته من يشاركه هذا التفكير أو يفهم أهدافه البعيدة . وقد بترت مشروعاته بطبيعة الحال بعد وفاته - قبل الأوان - فى بابل عام ٣٢٣ . لكنه كان مع هذا قد انجز منها ما يكفى لتغيير مجرى التاريخ ، وأصبحت قوة الظروف وحدها كفيلة باحداث الامتزاج بين أوروبا وآسيا .

لقد دار الزمان على ملوك الفرس وأصبحت امبراطوريتهم الشاسعة تخضع من أقصاها الى أقصاها [1] لحكام مقدونيين يتمتعون جميعا بقسط من الثقافة الهللينية ، ولا مناص لهم من الاعتماد فى بناء جيوشهم على سواعد المرتزقة الاغريق ، وفى بناء دولهم على رجال الاقتصاد والأدارة الاغريق ، وعلى العلماء للدعاية لممالكهم ودعم مركزها الثقافى والادبى والحفاظ على مظهرها الهلليني . وقد تدفق المهاجرون الاغريق على الشرق بحثا وراء الرزق . وحملوا معهم أساليب معيشتهم ونظمهم السياسية وتقاليدهم الاجتماعية ، وفنونهم وآدابهم ، واخيرا وليس آخرا لغتهم اليونانية

---

(١) ترك الاسكندر حاميات فى وادى السند . وبعدئذ استولى عليها الملك الهندى شاندرا جوبتا (Chandragupta) . من أسرة ماوريا Maurya (٣٢٢ - ٢٩٨ ق . م) الذى ضم أيضا أراضى فى غرب وادى السند أخذها من سليوكوس الاول (نيكاتور) فى مقابل بعض الفيلة ليستخدمها الاخير فى حربه ضد انتيجونوس « الاعور » ثم أعقبه فى الحكم حفيده أسوكا Asoka (٢٧٣ - ٢٣٢) الذى غزا كثيرا من الاراضى . لكنه استبشع القتل ومنظر الدماء وتحول الى راهب أو ناسك بوذى . واعتنق مذهب جوتاما Gautama البوذى . وكرس بقية حياته لنشر هذا المذهب فى الهند وخارجها .

وقد سقطت أسرة « ماوريا » على يد المغتصب الاغريقى ديميتريوس (Demetrius) ملك باكتريا (حول بلخ) فى حوض نهر اوكسوس Oxus (جيحون) فى عام ١٨٣ ق . م . وقد عبر جبال هندوكوش وغزا البنجاب . ولمدة ١٦ عاما (١٨٣ - ١٦٨ ق .م) ظلت المنطقة الفسيحة الممتدة من وادى جيحون الاعلى (فى الشمال الغربى) حتى حوض السند الأعلى موحدة تحت حكم هذا الملك الهلليني . لقد نجح فى امبراطورية هللينية هندية فى هذا المكان البعيد عن قلب العالم الهلليني . وكانت أطول عمرا من امبراطورية الاسكندر التى تفتت من بعده .

وفى عام ١٦٧ ق . م أرسل الملك السليوكى (أنطيوخوس الرابع) حملة تأديبية بقيادة ابن عمه يوكراتيدايس قضت على ديميتريوس وأطاحت به . فانقسم الشرق الاقصى الهلليني الى عدة دويلات أخذت تتطاحن حتى طغت عليها جحافل البدو الغزاة المعروفين باسم ساكاس (Sakas) والتوخاريين (Tokharians) من آسيا الوسطى .

التى اكتسبت - بعد الاختلاط مع الشرقيين - طابعا جديدا وأصبحت لغة عامة أومشتركة (Koine) ، بل اصبحت لغة دولية (Lingua franca) وعلى الأخص بين الطبقات المثقفة الاغريقية والمتأغرقة وفى المعاملات الرسمية والتجارية وحلت فى الشرق الادنى محل « الارامية » . وكما تأثر الشرق بالحضارة الهللينية تأثر الاغريق فيه بالحضارات الشرقية سواء فى مصر أو سوريا أو العراق أو ايران أو حتى فى حوض السند . ذلك أن هؤاء المهاجرين الاغريق - وقد ابتعدوا عن موطنهم الأصلى ، واستقروا بين المصريين أو الآسيويين - لم يجدوا مفرا من أن يوائموا انفسهم مع البيئة الجديدة . ولم يجد الحكام المقدونيون أو الاغريق مناصا من اشراك رعاياهم الوطنيين فى ميادين العمل الحكومى ، وأن يخضعوا هم أحيانا للمؤثرات الشرقية ، وذلك على الرغم من عدم رضاهم أو تبرمهم من سياسة الاسكندر التى كانت تقسم بعدم التعصب ، وتحبذ المساواة ، وتعامل الفرس كنظراء للاغريق .

وثار بعد موت الاسكندر سؤال : هل يحتفظ بوحدة امبراطوريته ؟ وكيف؟ ومن يتولى السلطة العليا فيها (أن تقسم الى ولايات مستقلة ؟ وتغلبت فكرة التقسيم . لكن هذا بدوره أدى الى نشوب صراع طويل بين خلفائه وأبناء خلفائه .



الفصل الثانى

العصر الهللينستى

الفصل الثانى

العصر الهللينستى

أولا - ملامح العصر الجديد :

اصطلح المؤرخون على تسمية العصر الباكر من الحضارة اليونانية أو الاغريقية بالعصر الهللادى (Helladic) ، وهو يقابل عصر « الحضارة الميكينية » على وجه التقريب ، وعلى تسمية العصر الذى أعقب العصر الاغريقى المظلم أو الوسيط (١١٠٠ - ٧٥٠ ق . م) وعلى الأخص العصر الكلاسيكى (٥٠٠ - ٣٥٠ ق . م) بالعصر الهللينى (Hellenic) . ولفظ هللادى مشتق من هللاس (اسم بلاد الاغريق) ، ولفظ هللينى مشتق من هللين (أى اغريقى) . وأما هللينستى فهو لفظ مصطنع ولايمكن تفسيره الا بأنه تحميل للفظ هللينى فوق طاقته بل هو خروج على أصول الاشتقاق . لكن القصد من اللفظ اطلاقه على عصر يتميز عن العصور التى سبقته من وجوه كثيرة . وهذا مبرر معقول لهذا الاشتقاق اللغوى غير المعقول . فالقصد اذن هو ابتكار صفة تجنبا للبس والخلط . ان هلليستى صفة لاتختلف فى معناها اللغوى عن الصفتين الاخريين هللادى وهللينى . لكنها صيغت للدلالة على ذلك العصر الذى سادته نظم سياسية وأحوال اجتماعية وظروف اقتصادية ومظاهر حضارية جديدة نتيجة لفتوحات الاسكندر الاكبر (٣٣٤ - ٣٢٣ ق .م) . ذلك بأن هذه الفتوحات قلبت ميزان القوى قلبا ، وزحزحت مركز الثقل من مكانه ، وغيرت الأوضاع تغييرا جذريا ، وفتحت آفاقا جديدة . فى الحق ان تأثير هذه الفتوحات لم يكن عسكريا أو اقتصاديا بقدر ما كان حضاريا . لقد فتح الاسكندر باب الشرق على مصراعيه أمام الاغريق الذين تدفقوا عليه وأقاموا مسالك فيه ،

وهاجروا اليه زرافات ووحدانا . وقد نقلوا معهم أساليب معيشتهم ، وأنظمتهم السياسية ، ولغتهم ، ومقومات ثقافتهم ، واختلط الاغريق فى الشرق بسكانه الذين كانوا يختلفون عنهم اختلافا جوهريا ماديا وروحيا . ومن هذا الاختلاط الذى تفاوت فى الدرجة من مكان الى مكان ، نشأ نوع أو لون جديد من الحضارة يسمى « بالحضارة الهللينستية » . فكأن المقصود بلفظ هللينستى هو شيء ليس هللينيا صميما أو ليس هللينيا « كلاسيكيا » بل هلليني فى بيئة جديدة متأثر أو مصطبغ بصبغة غير هللينية وفى الغالب صبغة شرقية : ايرانية أو سورية أو عبرية أو مصرية أو هندية .

وقد ذكرت أن هذا العصر المسمى بالهللينستى يبدأ بعد موت الاسكندر غير أنه ليس هناك فى الحقيقة اتفاق تام بين المؤرخين على بدايته . فمثل هذا التحديد عسير لأن التغيير لم يحدث فجأة بل مضت فترة طويلة قبل أن يتحقق بصورة كاملة . وفى رأينا أن ارهاصات هذا العصر الهللينستى قد لاحت فى الافق حتى قبل الاسكندر وفتوحاته . ومن يستعرض تاريخ بلاد البلاد الاغريق منذ بداية القرن الرابع ق . م . يسترعى نظره ما طرأ على حياة الاغريق من تغيير عما كانت عليه فى القرن الخامس ، العصر الكلاسيكى الصميم ، يسترعى نظرة تلك المظاهر التى أسلفت الاشارة اليها وكان أبرزها نمو روح الفردية وبداية تحرر المواطن الاغريقى من سيطرة دولة المدينة . نلمس ذلك فى اتجاهه الفكرى ، وسلوكه ، وعقائده . ونلمسه فى الفن الاغريقى . ونلمسه أيضا فى سلوك دول المدن الاغريقية بعضها ازاء البعض الآخر . كانت الاحوال السياسية سيئة والعلاقات متدهورة ، وكذلك كانت الأحوال الاقتصادية . ولم تخف حدة الخصومات ، ولم تنقطع الحروب

الطاحنة بين دويلات المدن الاغريقية بل ازدادت ضراوة . لقد أتضح بالدليل القاطع فشل نظام دولة المدينة السياسي واتض عجزه عن مواجهة الظروف المتغيرة . لقد أجهض هذا النظام . وأخيرا أجهزت عليه مقدونيا فى معركة خيرونيا (Chaerones) عام ٣٣٨ ق . م .

لذلك يعتقد بعض المؤرخين أن هذه المعركة الحاسمة كانت ايذانا بانتهاء عصر « دولة المدينة » (Polis) الحرة المستقلة التي كانت أبرز ظاهرة في العصر الهلليني بل أنها كانت منه بمثابة الروح لقد أفل نجم دولة المدينة السياسى التى لم يعد نظامها بالملائم في الظروف التى استجدت . وقام على انقاضه نظام الدول أم الممالك الكبيرة التى نسميها (بعد الاسكندر) بالممالك الهللينستية . لعل معركة خيرونيا كانت بالفعل هى الحد الفاصل بين العصرين الهللينى والهللينستى من الناحية السياسية . لكن العصر الهللينستى بكل ما يحمله من معنى حضارى لم يبدء بداهة الا بعد الاسكندر بفترة يختلف مداها باختلاف المناطق ، ومدى استجابتها المؤثرات الهللينية التى وفدت اليها .

وماذا عن نهاية هذا العصر ؟ ليس هناك اتفاق أيضا على هذه النهاية . ففى رأى بعض الباحثين أنه ينتهى بمعركة أكتيوم وسقوط مصر ، آخر الممالك الهللينستية ، فى يد الرومان عام ٣٠ ق . م . فكأنه انتهى – وفقا لهذا الرأس – بسقوط مصر وسقوط الجمهورية الرومانية نفسها وقيام الامبراطورية الرومانية (٢٧ ق . م) . لكن هذا الرأى – على وجاهته – لايحظى باتفاق جميع المؤرخين . ولاشك فى أن روما باخضاعها لكل الممالك والدول الهللينستية وتحويلها الى ولايات رومانية عند حوالى التاريخ

المذكور ، قد أحدثت تغييرا جوهريا فى نظم هذه الممالك من الناحية السياسية . لكن روما لم تأت هذه الممالك بحضارة رومانية متميزة ، أو بعبارة أخرى لم تفرض روما ذاتها كانت مصطبغة بالحضارة الهللينية . كانت الهللينية هى الأعرق والأرقى والأوسع انتشارا ولاسيما فى الشرق . وكانت أرسخ قدما فى مدن الشرق عندما جاءته روما . لذلك لم تحاول روما المساس بهذه الحضارة الهللينية . ولاينبغى أن ننسى أن الحضارة الهللينية كانت أقرب الى الرومان من حضارات الشرق القديم . لذلك احتضنت روما هذه الحضارة ودعمتها لكى تكون لها سندا فى احكام قبضتها على الشرق ، ولاعجب أنها كانت تعامل الاغريق معاملة أفضل من معاملتها للشرقيين .

ولم يكن للحضارة الهللينية نفسها جذور عميقة فى ذلك الشرق لأنها وجدت هى الاخرى عندما وفدت اليه حضارات أعرق ، وهى الحضارات المحلية الموغلة فى القدم . لقد وجدت الحضارة الهللينية مقاومة فى مختلف اقطار الشرق سواء فى مصر أو سوريا أو ايران . ولم تشق الهللينية طريقها الا بصعوبة ، ولم تؤثر الا حيث نشأت مراكز هللينية أى فى المدن التى أسسها الإغريق هناك . وأما فى القرى أو فى الريف أو المناطق الجبلية النائية فان التأثير الهللينى كان ضحلا ، وظل كالقشرة الرقيقة فوق السطح فلم تتعمق جذوره فى التربة ، أو كالزبد الطافى فوق سطح البحر . وكان هذا البحر (الشرقى) فسيحا بحيث لم تستطيع الجزر اليونانية الصغيرة المتناثرة بين ارجائه أن تؤثر فيه تأثيرا كبيرا . بل أن نقيض ذلك هو ما حدث فى بعض الاحيان ، اذ تأثر الاغريق الذين اختاروا السكنى بين الاهالى الوطنيين فى القوى والريف والجبال ، تأثروا هم بالحضارة الشرقية . لقد غلبهم تيارها .

وكـان هذا التيـار جـارفـا في بعض النواحي ، وعلى الاخص فى النواحى الروحية الدينية . لكن لاشك أيضا فى أن الاغريق تمكنوا من الأثير حتى فى هؤلاء الاهالى على الاقل من ناحية المظاهر المادية . فتعلم بعض الوطنيين اللغة اليونانية التى تغير طابعها بعد انتشارها وتأثرها بمختلف اللهجات فصارت تعرف باللغة العامة أو المشتركة (Koine) بمعنى أنها أصبحت اللغة الرسمية ، ولغة التفاهم المستعملة فى المعاملات أو اللغة الدولية (Lingua franca) . لكن ينبغى التنبيه الى أن هذه اللغة اليونانية فى صورتها الجديدة لم تنتشر الا بين افراد الطبقات العليا الوطنية المثقفة فى أقطار الشرق الذين كانوا أكثر من غيرهم استعدادا للتعاون مع الحكام الاغريق ، وحاولوا تقليدهم والتقرب منهم بوصفهم السادة الجدد ، أملا فى منصب أو طمعا فى منفعة .

وفى رأينا أن دور الهللينية فى الشرق لم ينته بسقوط مصر الهللينستية وقيام الامبراطورية الرومانية . لقد ظلت حضارة مصر – على سبيل المثال – برغم وقوعها تحت الحكم الرومانى حوالى سبعة قرون ، ظلت هللينستية الطابع حتى الفتح العربى فى عام ٦٤١م . وليس المقصود هنا كل مصر أو أهالى مصر الفلاحين ، وهم الاغلبية الساحقة من السكان ، انما المقصود مصر على المستوى الرسمى ، أى الطبقة الحاكمة ، ومعها الطبقة العليا من الاغريق والوطنيين المتأغرقين التى كانت تعيش لا فى الريف (poleis) أو فى حواضر الاقاليم (metropoleis) حيث تركز معظم الاغريق . وكان تأثيرهم هناك أقوى من تأثيرهم فى الاماكن الاخرى . وأما فى الريف فقد وقع الاغريق الذين استوطنوه تحت تأثير الحضارة المصرية ، بل انهم تزاوجوا مع المصريين أحيانا فنشأ مجتمع يمكن أن نسميه بالمجتمع الاغريقى –

المصرى » ، الذى كان يجمع فى أساليب معيشته بين مظاهر الحضارتين الهللينية والمصرية . وقد حدث نفس الشيء تقريبا فى الممالك الهللينستية الاخرى .

توفي الاسكندر الاكبر في بابل يوم ١١ يونيو عام ٣٢٣ ق .م . وقد أذهل موته المفاجىء جميع قواده ، وأحدث فراغا هائلا . واجتمع هؤلاء القواد ليتدبروا الأمر فيما بينهم . ولم يخطر على بال أى منهم التخلى عن أى جزء من فتوحات العاهل الراحل . كان السؤال الاول الذى ثار فى الاذهان: لمن يئول عرش الامبرطورية ؟ وكان السؤال الثانى هو كيف يحتفظ بوحدة الامبراطورية ؟ ولعل البعض قد ساورته فكرة اخرى لكنه تحرج أنئذ من البوح بها وهى هل من الضرورى الابقاء على وحدة الامبراطورية ؟ أو ليس من الافضل تقسيمها حتى يمكن ادارتها ويسهل حكمها ؟ .

وقبل أن نخوض فى مثل هذه الاسئلة والتساؤلات ، يجدر بنا أن نعود قليلا الى الوراء لكى نشير الى تلك الفكرة التى جالت بخاطر الاسكندر قبل وفاته . كان الاسكندر اثناء حملته في الشرق قد اختمرت فى ذهنه فكرة نبيلة مؤداها ان البشر جميعا اخوة ، وابناء اله ، ومن ثم ينبغى حكم العالم على اساس المساواة بين شعوبه . وكان الاسكندر يعنى عالما هللينى الحضارة موحدا تحت حكم رجل واحد ، هو آثرهم الى الاله . وكان يعنى نفسه بوصفه ابنا للاله الذى يرجح أنه آمون ، الاله المصرى الذى زاره الاسكندر في واحته (سيوه الحالية) وارتبط به ارتباطا عاطفيا غريبا ، مما جعله يعتقد بأنه « ابنه » ، حتى لقد قيل انه كان يأمل – بل لعله أوصى – بأن يدفن بجواره فى معبده بواحة سيوة .كانت هذه الفكرة فكرة المساواة بين البشر

قد رسخت فى ذهن الاسكندر . لقد التقى أثناء الحملة بشخصيات شرقية ، ايرانية وغير ايرانية ، وابدى اعجابة بها . لقد عامل الايرانيين - على سبيل المثال - كأنداد للمقدونيين والاغريق . ولم يجد أى غضاضة فى أن يتزوج مرتين : مرة من روكسانه ، بنت أحد أمراء باكتريا (بين افغانستان وتركستان الروسية) فى عام ٣٢٧ ، ومرة أخرى من ستاتيرا ، ابنه الملك دارا الفارس قبيل وفاته عام ٣٢٤ . بل ذهب الى أبعد من ذلك ودعا قواده وضباطه فى الحفل الكبير الذى أقيم بمدينة سوسه (شوسن) عام ٣٢٤ الى الزواج من ايرانيات لكن الى أى مدى كان قواده مقتنعين بهذه الفكرة ؟ لعل قلة منهم قد تأثروا بها . لكن أغلب قواده لم يتأثروا بدليل أن كثيرين منهم طلقوا هؤلاء الزوجات بعد وفاته .

لكن على الرغم من ذلك فان اقتراحات الاسكندر قد فرضت فكرة أخرى، وهى فكرة « العالمية » بمعنى أنه لم يعد فى الامكان أن تعود الأمور الس سابق اوضاعها . كان تأثير الفتوحات هائلا الى درجة أنه لم يكن من المستطاع أن تبقى الاوضاع على ماكانت عليه أو أن تعود عقارب الساعة الى الوراء . لقد رحل النظام القديم الى غير رجعة ، ولم يكن من المستطاع اعادته . لقد حلت فكرة « العالمية » محل « الاقليمية » . ولم يعد الوطن بالضرورة هو «دولة - المدينة » بمفهومها القديم الضيق . أصبح الوطن هو «العالم » بأسره الذى فتحه الاسكندر ، فاتحا معه آفاق واسعة أمام الاغريق . لقد احدث تحولا حقيقيا بعيد الأثر ، لأنه غير به نظرة الاغريق الى العالم وبالتالى الى الحياة نفسها . لم تعد نظرة ضيقة محدودة بحدود - دولة - المدينة . لقد أصبحت نظرة واسعة شاملة كسعة « العالم » وشموله . وهكذا

بدأت فكرة « العالم المأهول » أو « المعمور » (oikoumene) تنتشر وتسود بدلا من فكرة « دولة - المدينة » . وظل الأمر كذلك حتى أحرزت روما السيادة العالمية وأصبحت « المعمورة » هي الامبراطورية الرومانية . لم يعد الفرد في العصر الهللينستي بالضرورة مواطن « دولة مدينة » بعينها بل مواطن العالم أو مواطنا عالميا (Cosmopolitos) بمعنى أن أي مكان يعيش فيه كان بمثابة وطن له . لقد أصبح الفرد يعتبر نفسه عضوا في مجتمع عالمي ، ومان هذا المجتمع العالمي - برغم احتوائه على تناقضات صارخة - يرتبط فيما بينه برباط من الثقافة المشتركة . وكانت هذه الثقافة المشتركة تختلف عن ثقافة القرن الخامس ق . م . من عدة وجوه ، لأنها تأثرت بالتقدم السريع الذي أحرزه الفرد العادي وتأثرت بنزعته الاستقلالية الجديدة، وبالاتصال الوثيق بالحضارة الشرقية . وكانت هذه الثقافة الجديدة التي اكتسبت حيوية في نواح ، وأصابها الوهن في نواح أخرى ، هي التي صبغت روما بالهللينية ، وصارت فيما بعد احدى وسائل نشر المسيحية . وقد تابع بعض خلفاء الاسكندر سياسته في انشاء المدن . وكانت الهللينية اقوى ما تكون في هذه المراكز المدنية . وأما في القرى والريف فكانت الهللينية ضعيفة الأثر . كانت على نحو ما ذكرنا - مجرد قشرة رقيقة أو مسحة مظهرية . بل حدث بعد أن استنفذت الدفعة الهللينية الخلاقة الاولى طاقتها، وبعد أن وهنت حيوية روما التي ورثتها أن عاد التأثير الشرقي الس سابق قوته وعطفا على السطح من جديد ، طاغيا على الهللينية والحضارة اليونانية • الرومانية . لكن مظاهر الحياة الخارجية كانت اغريقية . كان الرجل الشرقي يعتقد أنه من الضروري ان يتزود بقسط من الثقافة اليونانية وأن يستعمل - تسهيلا لمعاملاته التجارية - اللغة اليونانية .

كان أبرز اختلاف بين العصر الهللينستي والعصر السابق هو ظهور الوحدات السياشية الكبيرة ، أى الممالك الكبيرة التى اقتسمت نظامها من نظام المملكة المقدونية . كانت هذه الممالك الكبيرة هى القاعدة العامة أو الظاهرة المنتشرة ، ولو ان المدن اليونانية داخل هذه الممالك كانت فى الغالب تتمتع بقسط وافر من الحرية والاستقلال ، بل أن بعض هذه المدن كانت تعتبر نفسها « دول مدن » ذات سيادة ، ففى بلاد الاغريق الاصلية ، لم تندثر فكرة س الحرية » وبالتالى لم تندثر فكرة «دولة - المدينة » . وحيثما لم يكن من المستطاع الحفاظ على استقلال المدن المختلفة كانت تقوم مقامها « الاتحادات » أو الاحلاف أو «العصب » .

كان الدور الحقيقي للاغريق في الشرق هو العمل على صبغة بالصبغة الهللينية تحت السيطرة المقدونية. وكان حكام الممالك الهللينستية فى العصر الجديد في حاجة الى بلاد الاغريق نفسها لاسباب كثيرة ، أولا لأن بلاد الاغريق برغم ضياع استقلالها كانت لاتزال بمثابة الام الروحية. ولم تكن أمجادها أو انجازاتها الرائعة السابقة قد طواها النسيان بعد ، بل كانت لاتزال ماثلة فى الاذهان ، وملء السمع والبصر . لم تكن بلاد الاغريق قد استنفذت كل طاقتها أو فقدت كل حيويتها . كانت لاتزال قدرة على الخلق والابتكار . واذا كانت قد فقدت نفوذها السياسى فانها لم تفقد نفوذها الأدبى أو تأثيرها الروحى . لذلك اتجهت اليها أنظار ملوك الدول الهللينستية الجديدة ، وكانوا كلهم تقريبا مقدونيين . وقد تصارعوا فيما بينهم من أجل السيطرة عليها أو دعم نفوذهم فيها وتنافسوا فى كسب رضاها والتودد اليها . وقد لجأوا لتحقيق ذلك الى شتى وسائل الدعاية فى بلاد الاغريق ،

كاصدار تصريحات « بتحرير الاغريق » والاعتراف باستقلالهم . وكانت هذه بمثابة مزايدات للاستهلاك المحلي ، القصد منها اظهار العطف على الاغريق واحراز شعبية بينهم . كان ملوك الدول الهللينستية يدركون عناد الاغريق ، ويدركون انهم أكثر من سواهم مقاومة لهم . وكان لابد من كسر شوكتهم أو استمالتهم أما بوضع حاميات بين ظهرانيهم لكبت حريتهم أو اغداق الهدايا على معابدهم الشهيرة . كانت دلفى ، مركز نبوءة الاله أبوللون ، لاتزال تتمتع بمركز أدبى كبير ، كما كانت مركزا لتجمع المعلومات من شتى أنحاء العالم الهللينى . وكانت المهرجانات الدورية (كالدورة الاوليمبية أو الدورة البيثية فى دلفى) لاتزال قبله الأنظار ، ويطمع الجميع فى شرف الاشتراك فيها . وكانت أثينا مركزا لمدرسة فلسفية مزدهرة . وكانت اركاديا فى البلوبونيز مصدرا للجنود المرتزقة .

لكن ماهو السبب الحقيقى فى تكالب هؤلاء الملوك الهللينستيون الاقوياء على بلاد الاغريق ؟ السبب الحقيقى هو احتياج هؤلاء الملوك فى ممالكهم الجديدة الى اعوان من الاغريق يساعدونهم فى حكم هذه الممالك . كانوا يحتاجون أولا الى جنود مرتزقة من الاغريق لأنهم أدرى من غيرهم بأساليب الحرب وفنون القتال الاغريقية . كانت جيوش معظم هؤلاء الملوك تتألف من المرتزقة الاغريق (misthophoroi) لأنه لم يكن فى وسعهم تجنيد الاهالى الوطنيين لعدم خبرة هؤلاء « البرابرة » بفنون القتال اليونانية . ولا كان فى وسعهم الاعتماد عليهم لعدم ثقتهم فى هؤلاء الاجانب . لذلك

كانوا مضطرين الى الاغريق سواء اغريق الوطن الأصلى حيث اشتهرت بعض المناطق كأركاديا بمثل هؤلاء الجنود المرتزقة أو اغريق جزر البحر الايجى حيث نشأت أسواق للجنود الذين كانوا يعرضون خدماتهم فى حرب معينة نظيرا أجل معلوم . واحتاج ملوك الدول الهللينستية الى الاغريق فى أول الأمر لتعمير المدن التى اسسوها ، ثم احتاجوا اليهم فى مجالات الادارة والاقتصاد وغيرها من المجالات . وكانوا فى حاجة الى خبراء لتنظيم شئون دولتهم وتنمية مواردها الاقتصادية . كذلك كانوا فى أمس الحاجة الى تبرير سند حكمهم والدعاية لنظامهم ولأنفسهم . وكان ذلك يتطلب ايجاد مفكرين وكتاب وشعراء وفنانين . ومن ثم تنافس الملوك الجدد فى اجتذاب هؤلاء الصفوة من الاغريق الى قصورهم . وكان لذلك مدعاة لاعتزازهم إزدهارهم .

كانت المدن والعواصم الجديدة فى الممالك الهللينستية كالاسكندريةفى مصر ، وأنطاكية على نهر العاضى « أو سلوقية على الدجلة فى مملكة السليوكيين أو برجامون عاصمة مملكة أتالوس أو جمهورية رودس الغنية فى جزيرة رودس كانت جميعا مراكز تجارية وصناعية نشطة . وقد تجمعت فيها عناصر خليطة من السكان الوافدين من شتى الأنحاء . وقد اكتسبت هذه العواصم طابعا عالميا . أصبحت ذات طابع دولى أشبه ما يكون بطابع العواصم الكبرى فى العصر الحديث . وقد تجمعوا فيها وراء المال أو طلبا للهو والمتعة . ولم يكن هناك مناص من أن تؤثر أفكار وعادات البعض على أفكار وعادات البعض الآخر فى مثل هذه المجتمعات الخليطة المتباينة الأصل . وكان لابد من أن ينتهى الأمر بتمتزاج هذه الأفكار والعادات .

وكان الملك يتربع على قمة هذا المجتمع . وكلما ازدادت المملكة ثراء وقوة ، ازداد الملك بعدا عن هذا المجتمع ، وأصبح بمعزل عن رعاياه . لقد ازدادت الهوة التى تفصل بينها وأضحى فى مكان ناء لايراه فيه الا القلة . ولم يلبث أن اعتبر رسميا كاله . وكان تأليهه مجرد رمز لحقه فى الحكم، وكان من شأنه أن يسهل له توحيد العناصر غير المتجانسة فى سكان مملكته تحت سيطرته . وكانت تحيط بالملك حاشية كبيرة وعدد كبير من الموظفين . واتجه النظام نحو المركزية ، ولم يلبث أن اصبح بيروقراطيا نظرا لضخامة عبء الحكم وتعقد الادارة . وكان يحتاج كغيره من المجالات الى المتخصصين . وقد ذكرنا من قبل أنه كان من الطبيعى أن يسعى ملوك الدول الهللينستية الى اجتذاب مفكرى العصر الى بلاطهم . غير أن رعاية الفكر والأدب والفن ، الى جانب الحروب المستمرة ، كانت تتطلب نفقات كثيرة وبالتالى فرض ضرائب باهظة على الأهالى .

كانت الحروب فى العصر الهللينستى شبه مستمرة . وكان الجنود المرتزقة يشاهدون فى كل جيوش القرن الثالث ق . م . وقد قضت هذه الحروب على أرواح كثيرة . ومع هذا فان هذه الحروب اكتسبت بالتدريج طابعا أقل وحشية بل ربما اكتسبت طابعا انسانيا اذا استقر العرف الجديد على العفو عن سكان المدن المقهورة بدلا من قتلهم أو استرقاقهم ، بل صار من المألوف أن يلجأ أولا الى التحكم قبل اشهار الحرب . لكن ينبغى ألا ننظر الى هذا العصر من زاوية الحروب التى استمرت اثناءه . ينبغى أن نسرع النظر بعيدا عن ميادينها لكى ندرك معنى العصر الجديد على وجهه الصحيح . أن أهمية هذا العصر لاتنحصر فى نشأة الممالك الكبيرة أو انتشار

الثقافة المشتركة . ان ما يثير دهشتنا بوجه خاص تعقيدات العصر الهللينستي، وتناقضاته ، وبالأحرى تيرها « عصريته » الحقيقة . لقد ازدهرت فيه الحركة العلمية ازدهارا عجيبا ، واشتد الشغف بالتعرف على الكون وأسراره ، وبذلت جهود صادقة في تحقيق النصوص الادبية القديمة وضبطها . لكن الجهل والخزعبلات كانت لاتزال متفشية بينما غلبت على الادب نزعة الاعتناء بالشكل دون المضمون بقصد التأثير البلاغي ، وغلبت على الفن نزعة الاعتناء بالمظهر دون الجوهر لمجرد الاثارة . والى جانب البذخ والترف كان يوجد الفقر والعبودية . وكان الانتاج على نطاق واسع ، والطرق التجارية الرائعة المترامية الأطراف تحمل في طياتها مزيدا من الثروة ، وسعة في الأفق ، واتساع الفجوة بين الطبقات ، ونذيرا بالثورة الاجتماعية . وقد شجعت ظروف العصر القاهرة على اشتداد النزعة الفردية التي انطلقت من عقالها لأن المواطن بعد أن اصبح بمعزل عن الحياة السياسية أى عن الحياة التي كانت في الماضي تستنفد كل طاقته عندما كان مشدودا الى عجلة دولة المدينة ، اضطر الى الاعتماد على موارده الخاصة غير الكافية ، فشعر بالضياع في هذا العالم الفسيح المتغير ، وليس بغريب أذن أن يتحول أثناء سعيه لكي يتأقلم مع هذا العالم ويستمتع بحياته فيه — أن يتحول ويلجأ الى مذاهب فلسفية جديدة ، وعقائد وديانات دخيلة ، والى النوادي الاجتماعية، والجمعيات الدينية ، والنقابات المهنية ، ان العصر الهللينستي اذا ما قورن بالعصور السابقة كان أكثر رخاء بوجه عام وتحسنت فيه أحوال عامة الناس على الاقل من الناحية المادية تحسنا كبيرا . لقد أصبح الرجل العادى مواطنا لا في مدينة محدودة بل في عالم فسيح . وصار في وسعه أن ينتقل بين أرجائه . وكانت منتجات هذا العالم ميسورة له وتأتيه حيث يقيم بسهولة غير

أن المستويات الرفيعة في الأدب والفن ، والحرية ، والشعور بالمسئولية ، والحماس والغيرة التى كان يتميز بها عصر بريكليس ، هذه الصفات كلها أدبرت وقلما نلتقى بها فى هذا العصر . وقد لاحظ أحد الباحثين بحق أن أرشميد من النابغة الكبير الوحيد في العصر الهللينستي لم يكن مواطن احدى الممالك الهللينستية بل كان أحد مواطنى دولة مدينة سراقوسة (فى صقلية) . ونساءل ما اذا كان لهذا دلالته ومغزاه .

ثانيا - الموقف عقب وفاة الاسكندر ومشاكل النزاع بين خلفاءه :

استطاع الاسكندر الأكبر فى فترة قصيرة لم تتجاوز الأحد عشر عاما أن ينشيء امبراطورية مترامية الاطراف شملت شعوبا واقطارا ـ ختلفة اختلافا كبيرا ، ولم تكن هذه الفترة القصيرة التى قضاها فى معارك مستمرة تسمح له باقامة نظام سياسي واداري محكم للامبراطورية ، يكفل لها البقاء والاستمرار ، وقد كان السبب الاول لوحدة الامبراطورية فى حياة الاسكندر هو بغير شك شخصيته وسيطرته وخضوع القواد له ، وفى نفس الوقت فان الاسكندر لم يكن له عندئذ وريث شرعى يخلفه وان كان قد ترك زوجته الفارسية روكسانا حاملا فى شهرها السادس ، ولكنها كانت سيدة شرقية ، وكان الكثيرون ينكرون على جنينها الحق فى التربع على عرش الامبراطورية المقدونية ، أما بالنسبة لأخيه الموجود فى بابل وهو ارهيد ايوس فكان مصابا بالصرع كما انه لم يكن ابنا شرعيا لفيلـب ، ولكنه فى نظر الجيوش كان يمتاز على غيره بأن أمه كانت من تساليا ولم تكن شرقية [1] .

(١) د / ابراهيم نصحى ، المرجع السابق جـ١ ص ٤٣ .

لهذا فانه عند وفاة الاسكندر فجأة ، اصبح الامر بيد كبار قواده واعوانه في الحملة الذين كان لكل منهم اطماعه وأماله ، وقليل منهم من كان يؤمن بفكرة الاسكندر عن وحدة العالم ومبدأ العمل على مزج الحضارات بين الشرق والغرب ، وكان الاختلاف بينهم يتوقف على مدى اختلاف اطماعهم فمنهم من اراد الابقاء على وحدة الامبراطورية حتى يتمكن فيما بعد من أن يخلف الاسكندر وينفرد هو بهذه الامبراطورية، مثل برديكاس أولا وانتيجونوس من بعده ، ومنهم من كان يسعى للحصول لنفسه على احدى الولايات ليستأثر بها ويؤسس فيها دولة مستقلة ، مثل بطليموس بن لاجوس الذى كان يسعى للحصول على مصر[1] .

وقد كان بطلميوس اكثر قواد الاسكندر واقعية وقدرة على تحديد اهدافه ، اذ أن مصر كانت تتمتع بحدود أمنة بصحرائها النادرة المياه وفي نفس الوقت غنية الي ابعد الحدود ، كما انها بلد مفتوحة علي حوض البحر المتوسط ومناسبة لتكون أحدى الطرق التجارية العامة .

اجتمع قادة الاسكندر في بابل بعد وفاته ليحددوا مصير الامبراطورية على الطريقة المقدونية والتي كان الجيش يشكل فيها جمعية شعبية تعالج المشاكل المتعلقة بالعرش[2] وما من شك ان برديكاس كان اقوى شخصية في بالب في ذلك الوقت اذ أنه كان صاحب المركز الاسمى في الحملة بعد الاسكندر كما أنه كان بمثابة رئيس اركان حربه ، ويبدو ان بوزيكاس كان

(1)Beuon History of Egypt under ptolemaic Dynasty. p. 18 .

(٢) د / لطفي عبد الوهاب دراسات في تاريخ مصر ص ٨٦ .

موضع ثقة الاسكندر واقرب الناس اليه اذ يبدو انه قد سلمه خاتم الملك وهو على فراش الموت كما يؤكد ذلك ديودور الصقلى [1] .لذلك لم يكن غريبا ان يشعر بوديكاس بانه صاحب الحق الأول فى تولى مقاليد الامور بنفسه واستطاع فعلا أن يصل الى اتفاق يرضى الجميع بتوزيع السلطة فى الامبراطورية فيما بينهم .

وقد اقترح برديكاس ارجاء البت في ولاية العرش حتى تلد ركسانا زوجة الاسكندر ، فاذا جاء مولودها ذكرا ولى العرش [2] لكن ملياجروس أحد القواد اقترح اختيار ارهيدابدس أخ الاسكندر غير الشرعى أما بطليموس فقد اقترح ان يبقى عرش الاسكندر شاغر وأن يعهد ادارة الامبراطورية الى قواد الجيش رافضا فكرة أن يحكمه رجل معتوه من نسل غير شرعى ، أو سليل سيدة شرقية . لأنه كان يرى أن المقدونيين لم يقهروا الفرس لكى يخضعوا لسلالتهم . وبعد أن ناقش القواد هذه الاراء اتفقوا فى النهاية على أن تبقى الامبراطورية في بيت فيليب وان ينتقل العرش الى فيلبى ارهيدايوس مع الاعتراف بحق جنين روكسانا - حين يولد - اذا كان ذكرا فى مشاركة فيليب ارهيدايوس ، بمثابة شريك تحت الوصاية .

بهذا الحل أمكن الاحتفاظ بوحدة الامبراطورية ولكنها لم تكن الا وحدة فى الشكل فقط اذ أنها انقسمت بالفعل بين قواد الاسكندر الذين قرر مؤتمر بابل تقسيم ولايات الامبراطورية بينهم ليحكموها بصفتهم ولاة من قبل الاسرة المالكة المقدونية ، وتقرر فى المؤتمر ان يعهد الى بطليموس بمصر .

(1) Diod. xvIII, 2, 4 .
(2) Bouche Leclercq, Histoire de Lagides , 1. P. 9

وقد كان من الطبيعي بالنسبة لمصر أن يعهد بها في هذا المؤتمر بعد وفاة الفاتح المقدوني الى كليومنيس النقراطيسي الذي كان صاحب الكلمة الأولى في مصر منذ أواخر عهد الاسكندر ، هذا بالاضافة الى أنه كان صديقا لبرديكاس الذى كانت له اليد العليا فى مؤتمر بابل ، ومع ذلك فقد اعطيت ولاية مصر لبطليموس واضطر كليومنيس ان يقنع بالمركز الثانى فيها، وهذا الامر لم يكن من الممكن أن يتم بغير تدبير من بطليموس، فمن المحتمل انه كان هناك اتفاق بين برديكاس وبطليموس يقضى بان يستخدم برديكاس نفوذه لتوليه بطليموس على مصر لقاء اعتراف بطليموس بمركز برديكاس كقائد الجيش [1] والذى كان برديكاس يعتبره مركز قوة وقد حصل عليه فعلا فى مؤتمر بابل [2] .

كما تقرر فى هذا المؤتمر ايضا أن يساعد ملياجروس برديكاس فى منصبه كقائد عام للجيش وان يكون كراتيروس وصيا على الملك المعتوه ارهيدايوس وكذلك على طفل روكسانا عندما يولد . ولكن سرعان ما تغيرت الأمور فى مسألة الوصاية فاصبحت بين يدى برديكاس بعد أن ذهب كراتيروس لنجدة انتيباتروس فى بلاد الاغريق وبعد ذلك وضعت روكسانا طفلا نادى به الجيش ملكا وهو الاسكندر الرابع ، ووضع برديكاس الملكية تحت سيطرته [3] .

بعد ذلك اوضح برديكاس لجميع القواد انه ينتظر منهم اطاعة جميع الاوامر التى يصدرها باسم التاج ، لكن اكثر هؤلاء القواد قوة أخذوا

---

(1) Tarn, J.H.S. xLI, 1921; P. 5 .
(2) Diod; xvIII, 3,4.
(3) Rostouzeff, Social and Economic History of Hiellenistic world pp. 3 - 5 .

يستعدون لمقاومة هذه الاوامر وكان تخوفهما عقب موت الاسكندر ان غالب اولئك القواد الذين بذلوا جهدا كبيرا في الوصول الى حل لمشكلة ولاية العرش وتنظيم حكم الامبراطورية لن يذهبوا لتولي مهام مناصبهم دون أن تراودهم اطماع شخصية وان اختلاف هذه الأطماع سيؤدى دون شك الى الصراع عنيف بينهم ، الا أن بطليموس بعد حصوله على ولاية مصر مضى اليها فى الحال ، تاركا سائر القادة في خلافاتهم ومنافساتهم حتى يضمن ان يتفرغ لولايته ، وكان هدفه الرئيسي تأمين سلطانه فيها ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف رأى أن يخضع لسلطانه بعض المناطق المجاورة على الحدود الشرقية والغربية ليمنع امكان غزو مصر فجأة عن طريق البر ، وكذلك ان تكون له مناطق نفوذ في بحر ايجه . وخاصة الجزر التى تضمن له السيطرة على الطرق البحرية [(1)] .

وعلى الرغم من محاولته الابتعاد عن باقى القواد الا أنه كثيرا ما اصطدام بهم وبالحكام الاخرين الذين ورثوا امبراطورية الاسكندر فى سبيل تحقيق آماله ومأربه .

اول هذه الخلافات بدأت ضد السلطة المركزية وكان ذلك بخصوص دفن جثمان الاسكندر ، فقد اتفق برديكاس فى مؤتمر بابل على دفن الاسكندر فى موطنه الاصلى مقدونيا ، لكن بينما كان الجثمان فى طريقه اليها قابله بطليموس واستولى على التابوت ، ثم نقله اولا الى منف ثم نقل بعد ذلك الى الاسكندرية [(2)] .

---

(1) Jouguet, L, Imerialisme Macedonian p. 281,.
(2) Paus. 1. 6 , 3.
Diod. xvlll, l, 8, 3.
Strabo, xv ll, 1, 8.

هذا التصرف من جانب بطليموس كان يعني به امرين أولهما انه يستطيع أن يخالف اوامر برديكاس ، وثانيهما انه استطاع ان يعطي لولايته أهمية وشهره بقيامه بدفن الاسكندر فيها .

بعد ذلك استطاع بطليموس ان يمد نفوذه الى برقة وما حولها من مدن يونانية (قورينة) حينما اشتعلت فيها الحرب الأهلية بعد موت الاسكندر .

شعر بطليموس نتيجة لذلك بانه يستطيع يستقل بسياسته تماما ويلغى تبعيته لبرديكاس ، فقرر التخلص من كليومنيس ، اذ شعر بأن وجوده فى مصر لم يكن الا ليرقبه ويبلغ برديكاس بتصرفاته ، فما كان منه الا ان - وجه اليه بعض التهم ، وحقق فى بعض شكاوى الشعب من تصرفاته ، وبناء على ذلك أمر بقتله . [١] وامن بذلك مركزه مؤقتا من جانب اعوان برديكاس [٢] ، وبدأ فى سائر انحاء الامبراطورية يثير القواد ضده . وكان من نتيجة ذلك ان قرر برديكاس محاربتهم . فى نفس الوقت نجد ان ضباط برديكاس قد تآمروا عليه برئاسة سليوقس وقتلوه عام ٣٢١ ق. م [٣] .

بعد مقتل برديكاس اجتمع القواد فى تريباراد بسوس بسوريا ، لاعادة تقسيم ولايات الامبراطورية بعد اقصاء انصار برديكاس - الذين كانوا يهدفون الى استمرا وحدة الامبراطورية - وقد حرص بطليموس على

---

(١) د / لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ١١٧ .

(2) Beiron, i Bid. p. 22.
(3) Diod. xvIII, 36, 5 .

الحصول على اعتراف بمركز فى ولاية مصر ، وفعلا تم له ما اراد . كما تقرر أيضا أختيار انتيباتروس وصيا على الامبراطورية ، وبذلك انتقل مركز الامبراطورية من آسيا الى مقدونيا حيث ذهب انتيباتروس وبصحبته الملكان ، وكذلك تعيين سليوقس واليا على بابل ، والاحتفاظ لانتيجونوس بولايته فى آسيا .

استقر الحال على هذا النحو منذ عام ٣٢١ ق . م الى أن توفى انتياتروس عام ٣١٩ والذى كان قد عين قبل وفاته بوليبرجون ، أحد قواد الاسكندر القدامى ، خليفة له ، وكان بطليموس يسعى للاستيلاء على سوريا منذ انتصاره على برديكاس ، فانتهز فرصة موت انتيباتروس وما نشأ عن ذلك من خلافات وزحف الى سوريا حيث استولى على جنوبها (جوف سوريا) [١] وقد عرض بطليموس على كاسندروس عقب حلف معه حتى يأمن جانبه - كما طلب كاسندروس من انتيجونوس عقد حلف معه أسوة بما فعله بطليموس عام ٣١٩ ق . م .

وظل انتيجونوس يسعى للاستقلال بآسيا الصغرى بأسرها وكان لهذا الانقسام بين القادة صدى فى الاسرة المالكة ، فالملك المعتوه ارهيدايوس وزوجته انحازا الى جانب كاسندروس وذلك بسبب كراهيتهم للملكة بوليبرخنون فما كان من اوليمبياس الا أن تآمرت على ارهيدايوس وزوجته وقتلتهما سنة ٣١٧ ق . م أما روكسانا والملك الطفل فقد كانا كرهائن فى يدى كاسندروس الذى سرعان ما نجح فى الاستيلاء على مقدونيا ، وبعد ذلك وقعت اوليمبياس فى قبضته وقتلها [٢] ، أما بوليبرخون فقد لجأ الى

(1) Diod. xv III, 43, 1.
(2)Beuan , jpid. p. 24 .

بعض المدن اليونانية التى اعلن مناصرته لها[1] .

بعد وفاة أرهيدايوس واوليمبياس وسجن الاسكندر الرابع ، لم يعد لاسرة الاسكندر أى كيان فعلى ، وكان ذلك خير حافز لتحقيق اطماع خلفاء الاسكندر ، وقد شعر الجميع بأن انتيجونس كان يتطلع الى وضع الامبراطورية كلها في قبضته والجلوس على عرشها ، ولقد سيطرت شخصيته على الفترة من سنة ٣١٦ الى سنة ٣٠١ ق . م . حتى توفى فى العام الاخير[2] .

واذ ضاق باقى القواد من الحروب المستمرة ، ثم التوصل فى عام ٣١١ ق .م . الى عقد صلح بين انتجونوس وكاسندروس وكذلك ليسيماخوس ثم انضم اليهم بطليموس بعد ذلك[3] .

يوضح لنا تحالف بطليموس الاول مع كل من كاسندروس وليسيماخوس وانتيجونس ان بطليموس كان يريد ان يبعد بلاده عن الحروب الطويلة التى تكلفه كثيرا من الاموال والارواح ،كما أنه بذلك ايضا يأمن جانب هؤلاء القواد الذين كان يعتبرهم من اخطر الاشخاص الذين يعترضون سبيله ويمكن ان يقفوا ضد اهدافه من اجل التفرد بحكم مصر .

فى هذا الصلح الذى تم سنة ٣١١ق . م اضطر بطليموس الى التنازل عن سوريا ، كذلك تضمن هذا الصلح ان يحتفظ كاسندروس بسيطرته على مقدونيا حتى سنة ٣٠٥ ق . م حين يبلغ الاسكندر الرابع سن الرشد فيتولى

(1) Diod. xix, 52. 6 .

(٢) د / ابراهيم نصحى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٧٢ .

(3) C.B. Welles, Royal Correspondance II pp. 26 - 31 .

الحكم بنفسه ، وان يحكم لينسيماخوس ترافيا ، وانتيجونوس آسيا ، وارخ هذا الاتفاق باسم « الملك الطفل » ، لكن بعد مضى عام واحد ، خشى كاسندورس ان يبطل حقه في السلطان بعد بلوغ الاسكندر الرابع سن الرشد فقام بقتله هو ورركسانا وقضى بذلك على اسرة الاسكندر نهائيا .

وبمقتل الاسكندر الرابع فقد اتفاق سنة ٣١١ ق . م قيمته الفعلية واخذ كل من بطلميوس وانتيجونوس يعمل مستقلا على تحقيق اطماعه .

وهكذا لم يعد هناك ملك فوق العرش ، ومع ذلك ظل الحكام يسمون انفسهم ولاة حتى عام ٣٥٦ ق . م عندما أعلن انتيجونوس نفسه ملكا ، وكان لايزال يدعو للاحتفاظ بوحدة الامبراطورية ، فلم يكن من منافسيه الا أن ردوا عليه باعلان انفسهم ملوكا فى ولاياتهم ، كاسندورس فى مقدونيا ، وسليوكوس فى سوريا . وبطليموس فى مصر وهكذا ظهرت الممالك الثلاث الكبرى التى قدر لها ان تسيطر على العالم الهلينستى [(١)] .

لكن لابد لنا من الاشارة بأن بطليموس الاول لم يكن يقصد مما خاضه

---

(١) يقصد بالعالم الهليستى تلك البقاع التى تألفت منها امبراطورية الاسكندر الاكبر وهى مجرد تسميه اصطلاحية وقد ازدهرت فى هذا العالم حضارة جديدة اصطلح على تسميتها بالحضارة الهيلينستية الحضارة الهيلينية القديمة ممتزجة بعناصر الحضارة الشرقية .

W. Tarn and Griffith Hellenistic civilizatian pp 1 - 2 .

من حروب خارج مصر ومن تحالفه مع هـ[illegible]ـاره ومع ذلك تاره أخرى سوى الوصول الى هدفه وهو الانفراد بحكم مصر وتكوين اسرة مالكه يكون هو مؤسسها واول حكامها ، وتأمين مركزه فى مصر وحمايتها ضد أى هجمات - خارجية ، كما أنه كان لا يأبه اذا احس بأنه سيفقد جزءا أو منطقة مما كان قد استولى عليه فى سبيل الاحتفاظ بمصر .



الفصل الثالث

دولة البطالمة وتاريخها السياسى



حين كان البطالمة بسبيل اقامة دولتهم في مصر ، كان عليهم ان يختاروا مكانا مناسبا يصلح مقرا لعاصمتهم ، ذلك لأن منف العاصمة الفرعونية القديمة لاتصلح للقيام بتبعات وظروف العهد الجديد .

ولكن اختيار الاسكندرية عاصمة لمصر بدلا من منف متى حدث ؟ وكيف تم ؟ وهل وجدت رابطة منطقية بين توقيت نقل جثمان الاسكندر من منف ودفنه في الاسكندرية وبين اتخاذها عاصمة لمصر ؟ [1] .

قبل الاجابة على هذا السؤال يجدر بنا ان نقول لعل الدافع وراء دفن جثمان الاسكندر في منف أولا ثم نقله الى الاسكندرية بعد ذلك هو ان منف كانت عندئذ عاصمة لمصر ، وبالتالي فهي عاصمة بطليموس الاول ، لكنها كانت عاصمة مؤقتة لأن الاسكندرية رغم انها كانت في بداية عهدها الا انها كانت دون شك اوفق عاصمة لتبعات وظروف العهد الجديد [2] .

في الواقع لقد اختلفت مصادرنا القديمة حول خط سير جثمان الاسكندر على مقره الاخير في الاسكندرية وميعاده . فمنهم من قال ان بطلميوس الاول هو الذى قام بهذا العمل ومنهم من نسبه الى بطليموس الثاني [3] .

(١) د . مصطفى العبادى ، مجتمع الاسكندرية عبر العصور ، ص ٢٧ .
(2) W. Schubart, Agypten von Alexande dem Grossen... pp. 181 - 182.
(3) Paus. I. 6.3 .

من هنا نشأ الخلاف حول توقيت اتخاذ الاسكندرية عاصمة لمصر ولعل هذا الخطأ نشأ من الربط بين حادثتين مختلفتين ومستقلتين منطقا وتاريخا. فليس هناك مصدر قديم واحد يربط بين نقل جثمان الاسكندر من منف ودفنه في الاسكندرية وبين اتخاذها عاصمة لمصر .

لكن لدينا نص صريح واضح يؤكد ان الاسكندر عند عودته من معبد الاله آمون اسس الاسكندرية وامر بأن تكون عاصمة لمصر[١] . لقد اراد الاسكندر ان تكون الاسكندرية عاصمة عند تأسيسها ، ومما يرجح هذا الرأى أيضا هو ان دار سك العملة انشئت في الاسكندرية عام ٣٢٦ ق . م[٢] وليس هناك دليل على ان عملة الاسكندر سكت في منف ، ولعل هذا الموقف لايترك مجالا للشك في ان الاتجاه الرسمى نحو اتخاذ الاسكندرية عاصمة جديدة ارتبط بفكرة تأسيسها وليس بفكرة نقل جثمان الاسكندر اليها ، وان بطليموس الاول هو الذى جعل الاسكندرية العاصمة الرسمية لملكه[٣] .

ولكن لنا ان نتصور ان الانتقال الفعلى للادارة من منف الى الاسكندرية استغرق بعض الوقت على الاقل حتى تتم الاستعدادات اللازمة في المدينة الجديدة ولكننا لانعرف على وجه التحديد متى تم الانتقال الفعلى .

اول وثيقة[٤] يمكن لنا الاعتماد عليها هى وثيقة مصريه مؤرخة بسنة

(1) Justinus. xl. II. 13 .
(2) Seltman, Greek Coins, p. 212 .
(3) P.M. Fraer, IBid p. 7 .
(٤) هذه وثيقة مصرية كتبت بالهيروغليفية اكتشفت عام ١٨٧١ بالقاهرة توجد ترجمة كاملة للنص في . E. Bevan, Ibid pp. 28 - 32

٣١١ ق . م جاء بها ... الكهنة المصريين يقولون ... بطلميوس اتخذ مقامه في قلعة الملك الإسكندر – المفضل من الشمس ، ابن الشمس ، التى تقع على شاطىء البحر الايونى الكبير وكان اسمها من قبل راكوتى » .

وبدراسة ما جاء بالوثيقة وتحليله ، يمكن ارجاع انتقال بطلميوس الاول الى العاصمة الجديدة الى عام ٣٢٠ أو ٣١٩ ق . م ويكفى أن نعرف أن ، بطلميوس لم يؤسس دار لسك العملة فى منف لندرك انه لم يفكر فى أن تظل منف عاصمة لملكة . بل أن دار السكة اسست فى العاصمة الجديدة بعد خمس سنوات تقريبا من تأسيسها . وقد اصدرت عملة الاسكندر الاكبر فى اتقان فنى راق .

وسرعان ما تمت مدينة الاسكندرية وتطورت تحت رعاية البطالمة واهتمامهم كما اصبحت مركزا للتبادل التجارى مع اليونان ومركزا ورمزا لحضارة العصر الذى ابتدأة الاسكندر . لكن مامن شك ان مدينة منف كان فى العصر البطلمى اكثر العواصم الاقليمية تميزا فى مصر . لكن علينا الا نغفل ان المصريين شعروا بالمرارة والحزن لانتقال العاصمة من مدينتهم المصرية القديمة الى المدينة الجديدة التى اسسها الفاتح المقدونى . ولعل ذلك مما ساعد على ازدياد تعصبهم ضد الحكم الاجنبى وقد ظل هذا شعورهم طالما بقيت الاسكندرية عاصمة [1] وقد بقيت منف رمزا للوطنية المصرية ، واحسن تعبير عن الحالة النفسية للمصريين وعن مدى ما شعروا – من مرارة وحزن لانتقال العاصمة والالهه من منف ، هذا الشعور الذى لازمهم طالما بقيت الاسكندرية عاصمة ... تصوره لنا وثيقة بردية اشتهرت باسم « نبؤءة

(1) The Campridge Ancient History, vii. p. 115 .

صانع الفخار » .

هذه وثيقة ديموطيقية تتضمن نبوءة اوحى بها الى فخراني ونطق بها أمام أحد ملوك الاسرة ١٨ ، ولكن توجد لها تراجم يونانية متأخرة ترجع الى القرن الثاني والثالث الميلادى [١] . جاء بها اشارة طريفة توضح ان المصريين اصبحوا يتطلعون الى اليوم الذى تعود فيه الالهه الى منف جاء بها [٢] : سوف تصبح المدينة التي بجوار البحر مكانا يجفف فيه الصيادون شباكهم ، لأن الالهة سوف تغادرها الى منف » .

هذه الفقرة تعبر أحسن تعبير عن مقدار ما شعر به المصريون من كراهية تجاه الاسرة البطلمية ، وعن الشعور القومي المصرى المضاد لليونانية ولعل هذا الشعور لازمهم طيلة العصر اليوناني والروماني .

أولا – السياسة الداخلية للبطالمة :

بطليموس بن لاجوس حضر الى مصر فى صيف ٣٢٣ ق . م ليحكم بصفته واليا ، وفى عام ٣٠٥ ق . م اتخذ بطليموس لقب ملك ليصبح بذلك مؤسس الدولة البطلمية فى مصر . واهم ظاهرة تتصف بها سياسته الداخلية والخارجية على حد سواء هي الحرص ، كما كان الغرور ابعد الاخلاق عن سلوكه وهاتان الصفتان من أهم ما يجب ان يتميز به رجل الدولة الذى يهدف الى انشاء دولة تبقى من بعده . وقد حرص كل الحرص على التمسك بولايته فى مصر وتجنب السعى وراء اطماع بعيدة مثل تولى السلطة العليا فى الامبراطور ولذلك عمل على تأمين حدود مصر سواء من

---

(1) Fraser, IBid p. 681 .
(2) U. p. z . 1 . p. 363 .

الشرق أو الغرب أو الشمال وتتلخص سياسته الداخلية التى اتبعها فى مصر فى اربعة نقاط رئيسية :

١ - ان يحكم مصر حكما ملكيا مطلقا وهذا النظام الفه المقدونيون والمصريون بل وادخل عليه عنصرا دينيا .

٢ - اعتماد الدولة البطلمية الجديدة على العنصر الاغريقى والمقدونى فى الجوانب الحساسة للدولة كالجيش والاقتصاد والادارة .

٣ - عدم التوسع فى انشاء مدن يونانية جديدة لأن وجودها مع ماتتمتع به من قدر كبير من الحرية ممثلا فى نظام دولة المدينة يتعارض ونظام الحكم الملكى المطلق . مع الابقاء على المدن اليونانية الموجودة فى مصر وهى نقراطيس والاسكندرية وبرايتونيوم (مرسى مطروح) - باستثناء انشاء مدينة يونانية جديدة تحمل اسم بطليموس وهى مدينة بطلمية (فى سوهاج) .

٤ - استحداث اله رسمى جديد للدولة البطلمية يجمع بين الصفات الاغريقية والمصرية حتى يساعد على ربط وتوحيد العنصرين ويقبل عليه كل من المصريين والاغريق معا . وكان هو اله «سيرابيس» .

هذه كانت اسس السياسة الداخلية لبطليموس الاول وستبقى كما هى حتى عصر خلفائه كما سيتضح فيما بعد .

سلطة الملك :

أول مشكلة على الحاكم الجديد ان يحددها هى وضعه على رأس الدولة[1] لقد كان بطليموس من اصل مقدونى وينتسب الى دولة عرفت الملك بل اتخذ لنفسه صفة الهية ايضا . والى جانب ذلك فان بطليموس قد اصبح على رأس دولة الفت حكم الملوك الالهية فى شخص فرعون منذ اقدم العصور فالملك المصرى القديم كان مصدر وحدة الدولة سياسيا ودينيا واجتماعيا واصبح بطليموس ملكا وفرعونا لمصر منذ سنة ٣٠٥ ق . م واصبح يسمى بالكلك الاله ابن الاله . ومارس السلطان الملكى المطلق ، فكان هو الرئيس الفعلى للدولة سياسيا ودينيا واجتماعيا .

اغرقة الحكم فى مصر :

قرر بطليموس الاعتماد على المقدونيين والاغريق فى جيشه وحكومته من اجل بناء مصر الجديدة . ولكن لابد لنا ان نقرر ان بطليموس الأول وسائر البطالمة من بعده لم يتبعوا سياسة تهدف الى اغرقة مصر أو نشر الحضارة الهيلينية بين المصريين ، وانما كان هدفهم هو اغرقة الجيش والادارة فقط .

لقد اجمع المؤرخون من أن البطالمة الاوائل - على الأقل - اعتمدوا فى بناء جيوشهم على المقدونيين والاغريق الذين تطوع بعضهم فى خدمة البطالمة ، املا فى الفوز بالمنح والامتيازات وكونت منهم الفرق النظامية وباع

---

(١) د / مصطفى العبادى ، المرجع السابق ، ص ٤٥ وما بعدها .

د / ابراهيم نصحى ، المرجع السابق ، جـ٢ ص ٢١٦ وما بعدها

البعض الآخر خدماتهم لملوك مصر وكونت منهم الفرق المرتزقة ولاشك فى أن البطالمة الاوائل اعتمدوا الى اقصى حد على المقدونيين والاغريق ، لثقتهم فى كفايتهم وبسالتهم فى ميادين القتال.هذا الى جانب ان البطالمة لايستطيعون الاعتماد على المصريين ، أما لارتيابهم فى مقدرتهم الحربية أو لرغبتهم فى الاينشلوا الامة المصرية من الاضمحلال الذى تردت فيه ، ذلك لأن الجيش فى كل دولة رمز حيويتها وعنوان مجدها . لكن لابد من أن اولئك البطالمة كانوا يخشون ايضا اغفال أمر الجنود المصريين كلية وذلك لكى لاينشر هؤلاء الجنود روح التذمر فى البلاد فيثور المصريون .

لكن للاسف من العسير علينا أن نعرف على وجه التحقيق الدور الذى قام به الجنود المصريون فى جيش البطالمة قبل عصر بطليموس الرابع . لكن بين أحد المؤرخين [1] يحدثنا بأنه فى موقعة غزة ٣١٢ ق م كان جيوش بطليموس يضم عددا كبيرا من المصريين ، كان بعضهم يقوم باعمال النقل والبعض الآخر مسلحا ويمكن استخدامهم فى القتال ، وترينا وثائق الفرق الثالث محاربين مصريين فى حيازة كل منهم اقطاع مساحته خمس اروارت ويحدثنا بوليبيوس [2] بأن تسليح المصريين فى عهد بطليموس الرابع كان عملا صائبا لكنه خطيرا يهدد المستقبل .

واذا كان المصريون قد ادمجوا فى صلب الجيوش على عهد بطليموس الرابع ، فانهم كانوا يؤلفون فرقا مستقلة بهم ، واستمروا يكونون جزءا مستقلا من الجيش حتى نهاية القرن الثانى على الاقل ، بل حتى نهاية

(1) Diod. xlx. 80 . 4 .
(2) Polyb. v. 107, 1 - 3 .

القرن الثانى على الاقل ، بل حتى نهاية أسرة البطالمة فيما يبدو . وفضلا عن ذلك فانه قد بقى للاجانب من رجال الجيش الغلبة فى العدد والمكانة والامتيازات[1] .

اذن يمكننا القول بان المقدونيين والاغريق كانوا خيرة جنود العصر وان منافس البطالمة كانوا يؤلفون جيوشهم من هؤلاء الجنود ، وان البطالمة بوجه عام والاوائل منهم بوجه خاص كانوا يعتمدون فى تكوين جيوشهم على هذا الطراز من الجنود وانه اذا كان المصريون منذ عهد بطليموس الرابع قد ادمجوا فعلا فى الجيش وسلحوا بالاسلحة المقدونية فان الغلبة قد بقيت للاجانب .

فمن أجل هذا كان بطليموس فى حاجة الى اعداد كبيرة من المقدونين والاغريق ولم تكن مصر - كما سبق القول - خالية منهم من قبل فان الحامية العسكرية التى تركها الاسكندر فى مصر كانت تتكون من هذه العناصر ، كما انه حين فتح بطليموس ولاية مصر ، لابد انه احضر معه بعض فرق الجيش ، بالاضافة الى هذا كله فان مدينة نقراطيس كانت مركزا تجاريا يونانيا يقوم فى شمال غرب الدلتا منذ القرن السابع ق . م . ولكن الجيش البطلمى كان فى حاجة ماسة الى مزيد من الاف الجنود ، كما ان الاغريق المستقرين فى نقراطيس أو منف لايمكنهم ان يمدوا بطليموس بحاجته الى الرجال لادارة جميع مرافق الدولة .

من اجل هذا كله اتخذ بطليموس سياسة ثابتة لتشجيع وتنظيم هجرة الاغريق الى مصر . فمنح الجنود فى جيشه قطعا من الارض يمكنهم ان

---

(١) د . ابراهيم نصحى : تاريخ مصر عصر البطالمة ، ص ٧٥٧

يقيموا عليها ويستثمروها فى وقت السلم . وكذلك طبق مثل هذا النظام بالنسبة لموظفى الدولة ، خاصة وان نظام المرتبات النظامية لم يكن ممارسا فى ذلك الوقت .

ففى عصر اشتد فيه الصراع والتناحر بين قواد الاسكندر غداة موته كل يحاول ان يقتطع لنفسه أكبر نصيب من الامبراطورية ويهدف الى تعميم مركزه فى المنطقة التى أصبح واليا عليها - ثم بعد ذلك ملكا عليها . فى ظل هذه الظروف كان طبيعيا ان يحمل كل من هؤلاء القادة على تكوين القوة العسكرية التى يستطيع ان يحقق بها اطماعه . ولذلك لم يكن غريبا ان يحاول بطليموس الاول ومن بعده خلفاؤه من البطالمة اقامة ملكهم على دعامة عسكرية قوية .

قـــوات البطالمـة :

١- الجيش [١] :

عرفنا أن مصر كانت جزءا من امبراطورية الاسكندر التى اقتسمها قواده بعـد وفـاته ، وأن بعض هؤلاء القـواد أرادوا بسط سلطانهم على الولايات الاخرى ليبعثوا تلك الامبراطورية من جديد، وان بطليموس الاول كان ينشد الاستقلال بمصر وبناء دولة قوية غنية فيها ، ولذلك رأى هذا العاهل ضرورة تكوين جيش واسطول قـويين يمكنانه من الدفـاع عن مملكته ومن تحقيق اهدافه الخارجية .

وقد اتخذ بطليموس من القوات التى كان الاسكندر قد تركهـا فى مصر

---

(١) د. ابرهيم نصحى، تاريخ الحضارة المصرية .

نواة لبناء قوات أكبر من ذلك وأعظم . واذا كنا لانعرف كيفية تكوين الجيش البطلمي فاننا نعرف على الاقل انه بعد ما تم تكوينه كان يتكون من ثلاث فئات رئيسية وهي : الفرق النظامية والفرق المرتزقة والفرق المصرية . وتشير القرائن الى أن اكثر الفرق النظامية كانوا يجندون من مختلف انحاء شبه جزيرة البلقان وجزر بحر ايجه . ومع ذلك فان هذه الفرق كانت تدعى مقدونية بسبب أنها كانت في الأصل كذلك ، وبسبب اعتزاز البطالمة بأصلهم المقدوني ، ولاسيما أن الجيش كان يعتبر قبل كل شيء جيش الملك بطليموس . وتدل الوثائق على أن الفرق النظامية كانت قسمين وهما فرق الفرسان وفرق المشاة ، وعلى أن فرق الفرسان كانت مرتبتين : أولاهما ارفع مكانة من الثانية . وقد كانت فرق المرتبة الاولى تميز بالارقام » ، أما فرق المرتبة الثانية فانها كانت تميز بحسب جنسية افرادها . وكانت فرق المشاة النظامية تميز بالارقام وتعتبر أقل مرتبة من فوق الفرسان النظامية وتكون قلب الجيش الى ماقبل معركة رفح في عام ٢١٧ ق . م .

وكانت فرق المرتزقة في جيوش الاسكندر وخلفائه فئتين رئيسيتين : أما الفئة الأولى فتشمل تلك الفرق القومية التي كانت تحتفظ في الجيش الذى تنضم اليه بملابسها وأسلحتها القومية وتمج في ذلك الجيش بسبب نوع السلاح الذى اشتهرت به .

وكانت هذه الفئة تكون فرق مشاة خفيفة العدة وتعرف أحيانا باسم سلاحها وأحيانا باسم جنسيتها وأحيانا بالاسمين معا . أما الفئة الثانية فانها كانت تتكون من أولئك الجنود المرتزقة الذين كان يجندهم ضباط مرتزقة أما من بين مواطنيهم وأما من اسواق الجنود المعروفة في العالم الاغريق . وكان

يمكن استخدام جنود هذه الفئة مشاة أو فرسانا ، واذا كان الجنود المرتزقة لايتعاقدون في الأصل الا على القيام بحملة واحدة ضد عدو معين فانه فيما يبدو أصبح بعض الجنود المرتزقة يكونون فرقا دائمة في خدمة البطالمة .

وحين حضر بطليموس الى مصر وأخذ يشيد فيها صرح مملكته كانت لاتزال توجد تلك الطبقة الوراثية من المحاربين المصريين . ومن ناحية أخرى كانت تحت امره منافس البطالمة جيوش وأساطيل مؤلفة من خيرة جنود العصر وهم المقدونيين والاغريق ، الذين أثبتت حملات الاسكندر وخلفائه تفوقهم على محاربين ممتازين كالفرس .

ولاشك في أن البطالمة الثلاثة الأوائل اعتمدوا الى اقصى حد في تكوين جيوشهم على المقدونيين والاغريق لثقتهم في كفايتهم ، ولخوفهم من الا يخلص المصريون الطاعة لهم ، ولرغبتهم في عدم استنهاض همة المصريين وانعاش روحهم القومية ، فالجيش في كل دولةوفي كل عصر قلب الأمة النابض ، ولكن لابد أن أولئك البطالمة كانوا يخشون أيضا اغفال أمر الجنود المصريين . وذلك لكيلا ينشر أولئك الجنود روح التذمر في البلاد .

ولكن البطالمة الثلاثة الاوائل لم يسرحوا الفرق المصرية لكنهم كانوا لايعتمدون عليها في القتال بل يعهدون الى بعضها بأعمال النقل وما أشبه ذلك من الاعمال ، ويسلحون بعضها الآخر بالأسلحة الخفيفة أو بأسلحتها المصرية العتيقة استعدادا للطوارىء . الى أن تهددت بطليموس الرابع أزمة خطيرة في وقت قتل فيه الرجال في بلاد الاغريق ، ونقص فيه عدد الجنود

الاجانب الـذين كـان البـطالمة قد أنزلوهم فى مصـر ، فاضطر بطليمـوس الرابع لمواجهـة هذه الأزمـة ، الى تدريـب المصريين وتسلحيهم مثل الاغريق والمقـدونيين وتكـوين قلب الجـيش منهـم . والخطر الكـامن فى هـذا الموقـف هو ان انتصـار المصريين في معركة رفـح على جيش انطيوخوس المؤلف من الاغـريق والمقدونيني أشـعل روح الوطنـية فى صـدور المصريين وأعـاد اليـهم الثـقة بأنفسهم بافنتفضوا ثائرين على البطالمة .

واذا كـان المصريون قد أدمجوا فى صلـب الجيش على عـهد بطليمـوس الرابع فانهم كـانوا يؤلفـون فـرقا مـستقلة بهـم واستـمروا يكونون جزءا مستقـلا من الجيش حتى نهـاية أسرة البطالمة فيمـا يبدو . ولابد من أن ثورات المصريين على البطالمة الأواخر قد جعلت هؤلاء البطالمة يأسفون على تدخل المصريين فى الجيش ، وذلك لأنهم لم يعتـمدوا ثانية على المصريين فى تكوين قلـب الجـيش ، لكنهم لم يجـرأوا على اخـراج المصـريين من الجيش .

٢- الأســطول :

لما كان البطالمة الاوائل قد بنوا امبراطورية بحرية واسعة واحرزوا انتصارات بحرية كبيرة ، فلا سبيل الى الشك فى انه كان لهم أسطول بحرى قوى ، لكن ليست لدينا معلومات عن كيفية تكوين هذا الاسطول ولا عن قوته فى العهود المختلفة .

وحيث ان البطالمة الاوائل قـد وصـفوا كل اعتـمادهم على المقـدونيين والاغريق فى تكوين مـوانهم البرية فلابد من انهم فـعلوا الشيء نفسه فى تكوين قواتهم البحرية ، وعندما أدمج البطالمة المصريين فى صلب الجيش منذ

عهد بطليموس الرابع . لا يعنى أنهم فعلوا ذلك أيام [illegible] الاضطرابات . ومع ذلك فاننا نعتقد أنه كما كان الحال في الجيش ، كان أكثر جنود البطالمة وأرفعهم مقاما حتى بعد عهد بطليموس الرابع ، من الاغريق المقدونيين .

المدن اليونانية : (1)

حيثما وجد الاغريق فى اعداد وفيرة كونوا لانفسهم مدينة على نمط المدن اليونانية . وهكذا فعلوا فى مستعمراتهم المختلفة فى انحاء البحر الابيض المتوسط . وهكذا حاول الاسكندر ان يفعل حين خرج يبشر بالحضارة الهلينية فى الشرق . وهكذا ايضا فعل خلفاؤه فى سوريا واسيا الصغرى وذلك لأن الاغريق كانوا قد الفوا هذا النوع من الحياة واعتبروا نظام المدينة اليونانية اسمى صور المجتمع الانسانى ولكن بطليموس الاول لم يؤسس المدن المختلفة فى انحاء مصر ليقيم فيها الاغريق وانما انتهج سياسة محافظة فى هذا الاتجاه فابقى على المدن اليونانية التى كانت موجودة وهى نقراطيس - فالاسكندرية التى كان الاسكندر قد اسسها ولم ينشئ هو من المدن الجديدة سوى واحدة فى اعلى الصعيد هى بطلمية . ولعل الهدف - الاصلى فى انشائها هو ان تكون مركزا لحاميته للدفاع عن الجنوب ، ووجدت مدينة رابعة هى برنتونيوم .

أما عن السبب وراء هذه السياسة فيرجع الى ان نظام المدينة اليونانية كما عرفه الاغريق يعنى ان يكون للمدينة كيان سياسى مستقل . وقد الف الاغريق القدماء هذا النظام بحيث انهم لم يتصوروا

---

(1) د . مصطفى العبادى ، مصر من الاسكندر الاكبر ص ٤٨ وما بعدها .

د . ابراهيم نصحى : مصر فى عصر البطالمة ص ٢٦٧ وما بعدها .

Jones : Cities of the Eastern Roman Provinces, pp. 302ff

وجودا للمجتمع الانسانى خيرا من نظام دولة المدينة ، ولهذا أوجدوا لانفسهم مدنا بهذا الشكل حينما تجمع منهم عدد يكفى لانشاء مدينة .

وهكذا فعلوا فى وطنهم الاصلى ، وهكذا فعلوا حين هاجروا للخارج واستقروا على سواحل البحرين الابيض والاسود بحثا عن الرزق فى القرنين الثامن والسابق ق م وكانت نقراطيس اول مدينة اسسها الاغريق فى مصر فى الجزء الاخير من القرن السابع ق م ولما حضر الاسكندر الى مصر اسس الاسكندرية فى عام ٣٣١ ق م بعد ذلك زاد بطليموس الاول عليها مدينة ثالثة هى بطلمية اعلى الصعيد المصرى .

ووجدت مدينة رابعة عرفت باسم بريتونيوم عند موقع مدينة مرسى مطروح الحالية . ولكننا لانكاد نعرف شيئا عن نشأتها أو تاريخها فى عصر البطالمة ونسمع عنها لأول مرة فى العصر الرومانى باعتبارها مدينة يونانية معترفا بها .

ولقد كان انشاء المدن الاغريقية فى مصر أمرا لامندوحة عنه ، لأن المدينة (Polis) كانت البيئة الاساسية لحياة الاغريق العامة ، اذ أن الاغريق تشبعوا بالفكرة القائلة بأن المدينة هى النظام الطبيعى الوحيد الذى يستطيع أن يعيش فى كنفه الرجال الاحرار . ذلك أن نظم المدينة الحرة كانت تكفل مواطنيها حرية القول والعمل ، وتتيح لهم المشاركة فى ادارة دفة شئونها ، وتوفر لهم من أسباب الحياة ماهو خليق بانسان يحترم نفسه وجدير بالاستمتاع بحياته . ومن ثم فان المدينة كانت فى نظر الاغريق تعبر عن كل ما تشمله حياة الانسان وواجبه نحو الجماعة ، أو بعبارة أخرى عن اتحاد النوع الانسانى لغاية مشتركة ، هى وحدها التى تستطيع ان تبرز وتستغل انبل الغرائز والقدر

الكفايات فى كل فرد حر . ولذلك فإن الاغريق كانوا ينشئون مدينة لأنفسهم ، حيثما نزلوا فى مكان واتخذوه مستقرا دائما لهم ، ومثل ذلك المستعمرات العديدة التى أنشأوها على شواطىء البحر المتوسط والبحر الاسود فى « عصر الاستعمار » (القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد) . وقد كانت هذه المستعمرات مدنا تكون كل منها دويلة مستقلة ، حتى عن المدينة الاصلية التى نزح منها اولئك المستعمرون ، اذ أنه لم تكن تربطهم عادة بوطنهم الاصلى سوى روابط دينية وروحية .

وفى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد ، عندما صمم الاسكندر الاكبر على فتح الشرق ، نادى بأنه يقوم بهذه الحملة بوصفه القائد الاعلى لعصبة المدن الاغريقية ، ومن أجل خدمة الحضارة الهلينية . ولذلك فانه عندما كون امبراطوريته الشرقيج ووجد فى الاقليم التى اخضعها لسلطانه مدنا اغريقية ، سمح لهذه المدن بالبقاء ، اللهم الا اذا استثنينا بعضها التى دفعته اسباب خاصة الى القضاء عليها ، ولم يجد الاسكند وسيلة لنشر الحضارة الاغريقية بين ربوع امبراطوريته ، افضل من انشاء مدن اغريقية جديدة فى اماكن عنى باختيارها .

وعندما تداعت امبراطورية الاسكندر ، وقامت على انقاضها ممالك كانت تضم بين جوانبها مدنا اغريقية ، وجد مبدآن متعارضان وهما : مبدأ السلطة الملكية ومبدأ استقلال المدن . ولم يكن هناك مفر من أن تفقد هذه المدن جانبا من استقلالها ، وتصبح خاضعة لسلطة الملك ، فلم تعد دولا مستقلة بل أصبحت جزءا من دولة أكبر منها ، لكن المدن لم تفقد حق ادارة نفسها ، أو بعبارة أخرى [illegible] تمتعها باستقلال ذاتى . وقد كان هذا

الا [illegible] انهم فارقوا بين الاغريقي وبين المصري ، وعلى أساس أن الاغريقي يعيش في المدن (Kata polcis) ويشترك في حكم الجماعة التي ينتمي اليها ، وأما الشرقي فانه يعيش في القرى (Katu Komas) ولايتمتع بأي نوع من انواع الاستقلال ، بل يخضع لأوامر حاكم موفد من قبل السلطة المركزية .

ولعل الاسكندر كان يحدوه الأمل بأنه سيجيء يوم في المستقبل البعيد ، يمتزج فيه الشرقيون والغربيون ويكونون شعبا واحدا ، يعيش في المدن على النمط الاغريقي تحت سلطة خلفائه ، وذلك نتيجة لجهودات الاغريق في سبيل تقدم المبادىء التي قامت عليها حضارتهم ، واقبال الشرقيين رويدا رويدا على المساهمة في الحياة السياسية ، بتأثير المدن الاغريقية المنتشرة بين أرجاء الامبراطورية ، الى أن يندمجوا في هذه المدن تدريجيا . لكن هذا الأمل لم يتحقق في أغلب اقاليم العالم ، الا في عهد الرومان ، الذين كانوا ورثة الاغريق في الشرق ، ففي مصر مثلا لم تنبت بذور الاستقلال المحلي التي غرسها هناك فتح الاسكندر ، الا في خلال القرن الثالث بعد الميلاد [1] .

وقد عرفنا أنه عندما قدم الاسكندر الى مصر وجد بين جنباتها مدينة اغريقية قديمة ، هي مدينة نقراطيس التي تأسست في عهد الاسرة السادسة والعشرين ، وكانت بمثابة دولة اغريقية داخل الدولة المصرية . ومتى عرفنا ما كانت عليه هذه المدينة من الثراء ، اذ أنه كانت في قبضتها تجارة مصر مع دول البحر المتوسط ، فاننا لاندهش اذا كان الاسكندر قد فكر لحظة في أن

---

(1) Jouguet, La Vie Municipale en L'epoque Remanie, pp. L. II .

يجعلها العاصمة الجديدة [1] . لكنه اذا كانت هذه الفكرة قد دارت بخلد الاسكندر، فلاشك فى أنها كانت فكرة عابرة ، لأن نقراطيس كانت بعيدة عن البحر ولاتتصل به الا عن طريق أحد فروع النيل ، ولأن ثراءها يعزى قبل كل شىء الى عدم وجود موانىء هامة على شاطىء البحر فى هذه الناحية ، فلم يكن هناك مفر من أن نفقد نقراطيس اهميتها الاولى يوم تقوم مدينة كبيرة على شواطىء البحر المتوسط ، وهو الذى كانت تتجمع حول حوضه دول العالم المتمدين . وقد اثبتت الايام صحة هذا الرأى ، لأن عصر نقراطيس الذهبى أخذ ينحسر تدريجيا منذ أن أنشأ الاسكندر مدينته التى خلدت اسمه على تعاقب الاجيال . واذا كان الاسكندر قد شيد الاسكندرية لتكون منبع الحضارة الاغريقية فى مصر ، وتقضى على نفوذ العاصمة المصرية القديمة منف ، فان بطليموس الاول أنشأ بطليموس فى أقاصى الصعيد لتواجه طيبة ، العاصمة المصرية الخالدة التى شهدت أزهى عصور الفراعنة .

ولقد ضمت امبراطورية البطالمة بين انحائها مدنا اغريقية كثيرة ، الا أنه لم يوجد فى مصر نفسها فى خلال القرون الثلاثة التى تربع فيها البطالمة على عرش مصر سوى هذه المدن الثلاث التى ذكرناها . لكن وثيقة من القرن الثانى للميلاد قد أوحت بالفرض القائل بأن بارايتو نيون paraetonion

(1) Mahaffy, Empire, pp. 10 - 11 .

= مرسى مطروح) كانت مدينة كذلك [١] ، قبل أن الاسكندر أسسها [٢] غير أننا فى الواقع لانكاد نعرف عنها شيئا [٣] . واذا كان بعض المؤرخين الحديثين يزعمون أن لوثوبوليس (أسيوط) وهرموبوليس ماجنا (الأشمونين) كانتا أيضا مدينتين أغريقيتين ، فلاشك فى أنهم قد أساءوا فهم الوثائق التى بنوا عليها زعمهم [٤] .

ومما يجدر بالملاحظة أن المستعمرات التى أنشئت لتعمير مديرية الفيوم واستقرار جنود البطالمة فيها لم تكن مدنا اغريقية ، بل كانت قرى أسكن فيها الاغريق وغيرهم من الاجانب مع المصريين ، فكانت حالهم شبيهه بحال الاغريق الذين استوطنوا فى منف [٥] أو فى غيرها من المدن والقرى المصرية .

واذا كان السلوقيون قد أنشأوا فى امبراطوريتهم مدنا اغريقية أكثر عددا مما أنشأه البطالمة فى امبراطوريتهم ، فان اعظم المدن السلوقية شأنا لم تضارع الاسكندرية من قرب أو بعد ، هذا الى أن القرائن توحى بأن حظ المدن السلوقية من الاستقلال الذاتى لم يكن أوفى من حظ الاسكندرية أو نقراطيس أو بطوليس . وازاء ذلك يبدو أن الباعث على قلة منشآت البطالمة وكثرة منشآت السلوقيين كان طبيعة ظروف امبراطورية كل من الفريقين .

---

(1) Reinach, T., Un Code fiscale de l' Egromaine, 1920 - 1, p. 88.
(2) Grenf. and Hunt, Oxyr. Pap., I, 12 (col. 5) ; Pseudo - Callisth., I, 31.
(3) Jouguet, Mac. Imp., p. 305; Jones, Cities of Eastern Boman Provinces, 1937, Oxford, p. 307.
(4) Jouguet, Vie Municip., 5 ; Bouche-Leclercq, III, p. 143.
(5) Bouche -Leclercq, III, p. 143.

ومعلوماتنا طفيفة عن المدن الاغريقية فى مصر . اذ أننا لانكاد نعرف شيئا عن نقراطيس فى عصرى البطالمة والرومان ، ولا نعرف الا النزر اليسير عن الاسكندرية وبطوليس ، وما نعرفه عن احدى هذه المدن يصعب تطبيقه عادة على غيرها لعدم توافر الادلة لدينا ، ولاسيما ان ما نعرفه عن موقع هذه المدن ومظهرها الخارجى يدفعنا الى الشك فى أن الحياة العامة فى هذه المدن كانت تخضع دائما للقوانين نفسها . ومع ذلك فانه يبدو أن المدن الاغريقية فى مصر كانت تتفق فى ظاهرتين على الاقل ، وهما وجود هيئة مواطنين فى كل منها ، وتمتع هؤلاء المواطنين بحق امتلاك الأراضى فى اقليمها امتلاكا حرا [1] ، وهو حق لم يتمتع به أحد فى مصر خارج هذه المدن فى خلال القرن الثالث على الأقل ، على نحو ما سنرى فيما بعد .

نقراطيس

مظهرها الخارجى وأقليمها :

ويرى « جوجيه » [2] أن نقراطيس لم تختلف كثيرا فى مظهرها الخارجى عن أى بلد مصرى ، وأنها كانت تتألف من بيوت مبنية من اللبن ، على جوانب شبكة معقدة من الشوارع والأزقة . وأما « لويس ممفورد » فانه يرى أن تخطيط نقراطيس كان يتسم بسمات خاصة من النظام والتناسق . ويبدو من سياق حديثه أنه يرى أنها خططت وفقا للتخطيط الشبكى الذى نشأ فى « ميلتوس » التى وفد منها مؤسسو نقراطيس [3] .

(1) Cf. Jouguet, Mac. Imp., pp. 303 -
(2) Jouguet, Vie Municip., p. 6.

(٣) لويس ممفورد ، المدينة على مر العصور ، ص ٣٤٣ وما بعدها القاهرة ، ١٩٦٤ .

ويبدو أن اتساعها لم يزد على ٨٠٠ متر فى الطول و٤٠٠ متر فى العرض ، وأنه لم تحط بها أسوار ، لأن الفراعنة كانوا لايسمحون للاجانب بأن يستقروا فى مكان منيع بل أنهم وضعوا فى هذه المدينة حامية مصرية .

وكانت المدينة الأغريقية عادة لاتشمل المدينة فحسب ، بل تشمل كذلك اقليما زراعيا خارج حدودها . ولايبعد أن ذلك كان أيضا حال كل المدن الاغريقية فى مصر . ولعل اقليم نقراطيس كان ما يطلق عليه فى قوائم اسنا اسم مديرية نقراطيس . وقد كانت نقراطيس تقع فى مديرية سايس ، غير انه لاسبيل الى الشك فى أن هذه المدينة الاغريقية كانت مستقلة عن تلك المديرية [1] .

وقد مر بنا أن تجار ميلتوس أسسوا هذه المدينة ، حوالى مطلع القرن السابع قبل الميلاد ، على فرع النيل القانوبى قرب قرية كوم جعيف الحديثة بمركز ايتاى البارود ، وأنها أصبحت فى عهد أماسيس المقر الوحيد للتجار الاغريق . وقد أسهم فى عمران هذه المدينة فى عهد اماسيس اغريق من جزيرة ايجينة ومن المدن والجزر الأيولية والأيونية والدورية فى شرق بحر أيجة وشاطىء الأناضول الغربى [3] . ويلوح مما نعرفه عن أصل هذه المدينة أن أهلها كانوا ينقسمون منذ البداية الى طبقات لكل منها حقوق مختلفة ، اذ أنه يبدو مما كتبه هرودتوس [4] أنه كان يفرق فى نقراطيس بين الاغريق المستوطنين الذين أعطاهم أماسيس المدينة ليتخذوها وطنا لهم ، وبين الاغريق

(1) Cf. Jouguet, Vie Municip p. 8.

(3) Wilcken, Grundzuge, I, p. 12.
(4) Herod, II, 178.

الذين لم يستقروا فيها بصفة دائمة ، غير أن أماسيس منحهم أماكن ليقيموا فيها مذابح وهياكل ، ومعنى هذا أنهم لم يكونوا زائرين عابرين فقط [١].
وقد كان الهلينيون (Hellenion) أحد هذه الهياكل ، وأسهمت في نفقات تشييده المدن الأيونية خيوس وتيوس وفوثايا (Phocaea) وقلازومنى والمدن الدورية ليندوس (Lindos) وياليسوس (Jalysos) وخاميروس [٢] (Chamiros) وقنيدوس وهاليقارناسوس وفاسيليس (Phaselis) ، والمدينة الأيولية موتيليني (Mytilene) . وكانت توجد كذلك هياكل منفصلة لاغريق ميلتوس وايجينه ، ويحتمل أيضا لاغريق فوريناتية . ومن المؤكد أن أصحاب الهلينيون أنشأوا أيضا سوقا عامة ، هي التي كان يشرف عليها «مراقبو السوق» (Prostatai tou emporiou) وكان ينتخبهم ، على الأقل بادىء الأمر ، أولئك الاغريق الذين أسسوا الهلينيون والسوق العامة . ولاشك في أنه كانت توجد كذلك أسواق خاصة لأهلي ميلتوس وايجينة وساموس لم تكن خاضعة «لمراقبي السوق» . ويظن أيضا أن هؤلاء المراقبين لم يكونوا بين حكام المدينة ، بل كانوا نوعا من القناصل التجاريين يقيمون دائما في المدينة [٣] .

ولابد اذن من أن النقراطيسيين كانوا يكونون جماعة منفصلة عن أولئك السكان غير الدائمين ، ويحتمل أنهم كانوا بادىء الأمر يكونون وحدهم هيئة المواطنين الذين يتمتعون بحقوق المواطنة . واذا كان يبدو أن

(1) Jouguet, Vie Municip., p. 23 .

(٢) يذكر هرودوتوس رودس بدلا من ليندوس وياليسوس وخاميروس ، لكن لابد من أنه كان يقصد هذه المدن الثلاث ، لأنه عندما زار مصر فيما بين عامي ٤٤٨ و ٤٤٥ لم تكن دولة رودس قد تأسست بعد .

(3) Jouguet, Loc, cit.

المستعمرين الأصليين من أهل ميلتوس وسلالتهم كانوا يكونون نواة مواطنى نقراطيس ، فانه يصعب علينا أن نعتقد أن الجماعات القومية المختلفة التى أسست الهلينيون والسوق العامة لم تكتسب بمضى الزمن أهمية كبيرة فى حياة المدينة ، وأن « مراقبى السوق » لم ينته بهم الأمر بأن أصبحوا فى عداد حكام المدينة . واننا فى الواقع لنستشف من عبارات هرودوتوس اتجاهين متضادين : كان أحدهما انفصال هذه الجماعات عما عداها ، والآخر نحو ادماجها فى المواطنين الأصليين . اذ لاشك فى أننا عندما نقرأ فى هرودوتوس أن حق اختيار « مراقبى السوق » كان مقصورا على المدن التى أنشأت الهلينيون ، نستخلص أن ذلك كان رجع الصدى لأصوات اغريق الهلينيون ، كما نستخلص أن الأغريق الآخرين فى نقراطيس ، وقد بهرهم ثراء السوق العامة ، كانوا يطالبون بالاسهام فى ادارتها ، فبدأ على هذا النحو تطور لانستطيع أن نتتبع ادواره ، وان كنا لانستبعد أنه انتهى بالتآلف بين مختلف القوميات الاغريقية هناك ، وبعدم قصر السوق العامة على فئات بعينها ، ومن ثم فإنها أصبحت سوقا عامة للمدينة بأسرها . ولابد من أن تآلف هذه العناصر المتباينة لم يتم دون أن يترك وراءه أثرا ، ودون أن يؤدى الى تقسيم السكان الى طبقات ، غير أن المعلومات التى لدينا قليلة الى حد أننا لانعرف اذا كان يوجد بين النقراطيسيين مواطنون يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة ، وآخرون لايتمتعون الا ببعض هذه الحقوق . ويستبعد بعض المؤرخين أن المواطنين كانوا ينقسمون الى قبائل وعشائر ، بحجة أن نقراطيس أسست قبل أن يبتكر قلايسثنيس (Cleisthenes) هذا النظام الذى نقلته المدن الأخرى عن أثينا [1] . بيد أنه اذا كان هذا السبب لاينهض

(1) Wilcken, op. cit., p. 13.

دليلا على أن نقراطيس لم تقتبس هذا النظام بعد وجوده ، فانه على كل حال لايوجد أى دليل على وجود هذا النظام فى نقراطيس ، وان كان يستخلص مما عثر عليه هناك من العملة الأثينية والآنية الفخارية الأثينية أن الأثر الأثينى كان يسود نقراطيس فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد [1] .

وقد جمع أثيناسيوس [2] بعض ما كتبه المؤرخين عن نقراطيس ، مسقط رأسه ، فنجد أن شخصا يدعى هرمياس يحدثنا عن وجود حكام فى نقراطيس يدعون تيموخوى (Timouohoi) ، كما يحدثنا عن الولائم التى كانت تقام فى دار البروتانيون ، مما يدل على أنه كان يوجد أيضا بروتانيس (Prytaneis) . وكلمة تيموخوى اصطلاح كان مستعملا فى لغة الادارة فى مدن آسيا الصغرى الأيونية ومستعمراتها [3] ، فقد وجد هذا الاصطلاح فى تيوس [4] وسينوب [5] وماسيليا [6] . ويحتمل أنه كان يقصد بهذا الاصطلاح أعضاء مجلس ارستقراطى شبيه بمجلس ماسيليا ، حيث كان يشرف على هذا المجلس لجنة مؤلفة من خمسة عشر عضوا يعهد اليهم بتصريف الشئون العادية . وكانت هذه اللجنة تختار من بينها ثلاثة لادارتها ، يتمتع أحدهم بسلطة شاملة . لكننا لانعرف هل كان أعضاء لجنة

---

(1) Rostovtzeff, Soc, and Ec., p. 89.
(2) Athen. IV, 149d - 150 b.

لكن راجع :

Lumbroso, Rendiconti della Reale Academia dei Lincei, XI, p. Jouguet, Vie Municip., pp. 24, 475.
(3) Jouguet, Vie, p. 37.
(4) O.G.I. S., 309, 1, 12.
(5) Ditenberger, Syllogue, 603.
(6) Bouche- Lecl, III. p. 145, fn. 1.

لخمسة عشر وأعضاء لجنة الثلاثة يحملون أيضا لقب تيمخوى أم أنهم كانوا يدعون بروتانيس ، غير أننا نرجح أنهم كانوا يحملون اللقب الأخير وذلك بسبب طبيعة عملهم . ويؤيد هذا الرأى ما نستخلصه من رواية هرمياس عن وجود تيموخوى وبروتانيس فى نقراطيس ، لكننا لانعرف اذا كان يوجد فى نقراطيس الى جانب مجلس التيموخوى لجنتان مثل ما كان يوجد فى ماسيليا . واذا صح أن هرمياس هذا هو هرمياس من مشومنى (Methymne) ، معاصر افلاطون [1] ، فان ما رواه عن نظم نقراطيس ينصب على فترة سابقة على عصر البطالمة . ومع ذلك فان الوثائق البردية تشير الى أن نقراطيس احتفظت فى عهد البطالمة بنظمها القديمة [2] ، بل أنها كانت تسك عملة خاصة بها فى خلال الفترة الواقعة بين وفاة الاسكندر الاكبر واتخاذ بطليموس الاول لقب ملك [3] . ونعرف أن بطليموس الثانى اهتم بتجديد معالم هذه المدينة [4] ، وأنه كان لايزال لها شأن كبير فى القرن الثانى ، فقد أسلفنا أنه عندما غزا أنطيوخوس الرابع الدلتا وحاصر الاسكندرية اهتم بكسب ود نقراطيس فوزع الهبات على مواطنيها [5] . ولاشك فى أن كل ذلك ينهض دليلا على أن هذه المدينة كانت موضع عناية البطالمة ورعايتهم .

ونستخلص من وثيقة [6] يبدو أنها من عصر بطليموس الرابع فيلوباتور أو بطليموس السادس فيلومتور [7] ، أن نقراطيس كانت لاتزال تتمتع بشىء من

(1) Bouche - Lecl, III p. 145, fn. 1.
(2) P. Paris, 60 bis, l. IC; Cf. Lumbroso, Recherches, p. 222.
(3)Bevan, p. 90.
(4) Petrie, Naucratis, I, pp. 8. 26.
(5)Polyh.,XXVIII, 20, 10 .
(6) O.G.I S., 120, Petrie. Naucratis. I, p 63, pl XXX, 3 .
(7) Jouguet, Vic, p. 475

الاستقلال الذاتي في عصر البطالمة ، لأننا نرى في هذه الوثيقة أن مدينة نقراطيس تمنح مراسم التشريف لكاهن الألهة أثينا ، وكان يجمع بين وظيفته الدينية ووظيفة حارس العقود (Syngraphylax) في هذه المدينة [1] .

واننا لانعرف كيف نظمت علاقة نقراطيس بالسلطة المركزية ، لكنه لاشك في أنه مهما يكن حظ هذه المدينة والمدينتين الاغريقيتين الأخرين في مصر من الاستقلال الذاتي في ادراة شئونها المحلية ، فانها كانت جميعا تخضع لسلطة الملك . ولضمان ذلك اتخذت وسائل شتى ، سنحاول التعرف عليها عند الكلام عن الاسكندرية وبطوليس . وكل ما نعرفه في هذا الصدد عن نقراطيس مستقى من نقش [2] من عهد بطليموس الرابع ، وصف فيه شخص يدعى قومون (Comon) بأنه أو يقونوموس (Oikonomos) نقراطيس ، وهو اللقب الذى سنرى أنه كان يطلق على موقف كبير من موظفي الادارة المالية المركزية في المديريات . وقد يؤدى هذا الى الافتراض أن البطالمة وضعوا السلطة المحلية في المدينة تحت اشراف مندوب للادارة المالية المركزية هناك ، لكنه من المحتمل أيضا أن قومون لم يكن الا موظفا محليا أى أحد موظفي البلدية ، أو أنه كان حقا مبعوث الادارة المالية المركزية ، غير أن مهمته كانت مقصورة على العناية بشئون الحامية في نقراطيس [3] . ولعل البطالمة قد اكتفوا بوجود هذه الحامية في نقراطيس لضمان خضوعها لسيطرتهم .

---

(1) Bouche- Leclereq, III, p. 145 .
(2) Strack, n0 57 .
(3) Bouche- Leclercq, III, p. 145 .

ويستدل على احتفاظ نقراطيس بنظمها حتى العصر الرومانى بأن الامبراطور هادريانوس اتخذ فى القرن الثانى من هذه النظم نموذجا احتذاه فى انشاء مدينة أنطينوؤبوليس [1] (الشيخ عبادة على الضفة الشرقية للنيل أمام الروضة بمركز ملوى فى محافظة المنيا) .

وتحدثنا وثيقة من القرن الثانى للميلاد [2] بأن قوانين نقراطيس كانت لاتعترف بشرعية الزواج بين الاغريق والمصريين . ويرجح المؤرخون الحديثون ان هذه القوانين التى ترمى الى الاحتفاظ بالعنصر الاغريقى نقيا خالصا ، كانت قائمة كذلك فى عصر البطالمة بل منذ انشاء المدينة [3] .

وقد انتقص تأسيس الاسكندرية من الأهمية التجارية التى كانت تتمتع بها نقراطيس ، لكن ما وجد بين اطلالها من الآنية الفخارية الكثيرة المصنوعة فى الخارج يرينا أن هذه المدينة كانت مزدهرة فى عصر البطالمة [4] . ومرد ذلك الى أن نقراطيس كانت المركز الرئيسى على الطريق البرى بين بلوزيون والاسكندرية [5] ، وكذلك الميناء الرئيسى على الطريق المائى بين منف والعاصمة .

واذا كانت نقراطيس قد احتفظت فى عصر البطالمة بنظمها كمدينة اغريقية ، فانها احتفظت كذلك بتقاليدها فى حلبة الثقافة الاغريقية ، ولا أدل على ذلك من عدد رجال الأدب الاغريق الذين أنجبتهم فى عصرى البطالمة والرومان [6] . لكن صبغتها الاغريقية العامة لم تحل دون وجود

(1) Jones, op. cit., p. 303 .
(2) Wilcken, Grundzuge, no. 29 .
(3) Wilcken, Grundzuge I, p. 13; Jouguet, Mac, Imp., p. 323
(4) Petrie, Naucratis, I, p. 8.
(5) Edgar, Annales, XXII, p. 6 .
(6) Bevan p. 90 .

عناصر مصرية هناك ، ونستدل على ذلك من بقايا المعبد المصرى التى كشف عنها هناك [1] . ولاشك فى أن المصريين المقيمين فى نقراطيس لم يعتبروا بين مواطنيها ، على نحو ما سنرى أنه كان حال المصريين فى الاسكندرية وبطوليس أيضا .

الاســـكندرية

على بعد حوالى أربعين ميلا من نقراطيس فى الاتجاه الشمالى الغربى ، وعلى مسافة بضعه أميال غربى فرع النيل القانوبى ، اختار الاسكندر البقعة التى شيدت عليها مدينة الاسكندرية ، وهى تقع على ذلك الشريط من اليابسة الذى يفصل البحر عن بحيرة مريوط [2] . ويبدو أن الاسكندر اختار هذه البقعة القانوبى لجفافها وارتفاعها عن مستوى الدلتا ، وبعدها عن رر سب فرع النيل القانوبى ، وسهولة وصول مياه الشرب اليها ، وذلك فضلا عن قرب جزيرة فاروس [3] وبحيرة مريوط منها . فقد قدر الاسكندر أنه بمد جسر من الجزيرة الى الشاطىء يمكن توفير مرفأين فى هذا المكان ، يستخدم أيهما تبعا لاتجاه هبوب الريح ، وأن البحيرة يمكن استخدامها مرفأ للمراكب الآتية من داخل البلاد عن طريق النيل [4] . وجملة القول أن الاسكندر أدرك تماما أبرز ما اتسمت به هذه المنطقة من مميزات جعلتها أفضل مكان على الشاطىء لانشاء مدينة كبيرة [5] .

---

(1) Bevan, p. 91; Marion Smith, Naukratis, Journ. Soc. Or. Res, 10, 1926, pp. 119 - 226; Gunn, J.E.A., 29, 1943, pp. 55 - 9 .

(2) Arrian, III, 1 ff.

(٣) كانت فاروس تقع شمال الاسكندرية [illegible] بنحو ميل ويبلغ طولها حوالى ثلاثة أميال ويقول هوميروس أنه كان يوجد بها مرفأ أمين .

(4) Hogarth, Alex. in Eg., J.E.A.. [illegible] Jouguet, Mac Imp., p. 278.

(5) Fraser, I, p. 5 .

ولعل وجه الشبه بين موقع جزيرة فاروس تجاه شاطىء الدلتا وموقع صور [1] على جزيرة تجاه الشاطىء الأسيوى هو الذى لفت نظر الاسكندر [2] الى ما يتوافر لموقع الاسكندرية من مميزات [3] ، فقرر على الفور انشاءها دون تدبير سابق ، بدليل ما ترويه المصادر القديمة عن عدم توافر كمية كافية من الجير لتعيين مواقع الأجور أو المعابد وأسوار المدينة والاستعانة بالحبوب المخصصة لمؤنة الجنود لاتمام التخطيط مما اعتبر فألا سعيدا ينم عما ستصيبه المدينة من الرخاء والرفاهية [4] .

وما الذى حدا بالاسكندر الى تأسيس الاسكندرية ؟ هل أراد أن يجعل هذه المدينة مقر امبراطورية تتألف من عالم البحر المتوسط ؟ نحن لانستبعد على الاسكندر أية مشروعات انشائية ، لكننا نستبعد عليه التفكير فى قصر امبراطوريته على هذه الدائرة الضيقة فقد كان هدفه الاستيلاء على آسيا ، بل على العالم فيما يبدو [5] . أم هل فكر فى جعل الاسكندرية مقر امبراطوريته ؟ ونحن نستبعد ذلك أيضا لأنه لو قصر امبراطوريته على العالم الاغريقى والامبراطورية الفارسية ، لكانت بابل بحكم موقعها أفضل من الاسكندرية للاضطلاع بهمة المهمة . ولو صح ما قيل من أنه كان يريد فتح الغرب

---

(١) كانت صور تقع على جزيرة تجاه الشاطىء الاسيوى ومن أجل فتحها اضطر الاسكندر الى تشييد جسر يربطها بالشاطىء فأصبحت جزءاً متصلا باليابسة ونشأ عن اقامة هذا الجسر ميناء أن مثل ما حدث فيما بعد فى الاسكندرية عند ما ربط جسر الهيتاستاديون جزيرة فاروس بالبر

(2) Cf. Van Groningen, A propos de la fondation d' Alex., Aègyptus, 1925, pp. 200 ff.
(3) Cf. Arrian. III, 1, 5; Curt. IV, 81.
(4) Arrian. III, 2, 1 - 2; Strab., XVII. 792; Plut., Alex., 26; Curt., IV, 8, 6 ; Amm. Marcellinus, XXII, 16, 7.
(5) Jouguet, Nat. Eg. III, p. 4 .

أيضاً[1] لاتجه بتفكيره الى أثينا بحكم ماضيها ومكانتها وموقعها . أم هل أراد ، وقد حطم منذ فترة قصيرة مدينة صور التى كانت أكبر ميناء فى شرق البحر المتوسط ، أن ينشىء ثغراً مقدونياً يخلف صور فى العالم التجارى[2] ؟ هذا محتمل ، ولاسيما أنه لم يكن لمصر ميناء جدير بأهميتها وخطرها على شواطىء البحر المتوسط ، وذلك بالرغم من أن علاقاتها بعالم بحر ايجة كانت فى ازدياد مطرد منذ عدة قرون خلت . ولا أدل على ذلك من أن الفراعنة قد تركوا منذ مدة طويلة عواصمهم القديمة فى الجنوب واتخذوا مقرهم فى الدلتا التى أصبحت قلب بلادهم النابض ، الى حد أن الاسكندر لم ير ضرورة للذهاب الى الحدود الجنوبية واكتفى بارسال حامية صغيرة الى الفنتين لتحمل الى أهالى منطقة طيبة نبأ وصول عاهلهم الجديد[3] . وبعد دخول مصر حظيرة الامبراطورية المقدونية ، كان طبيعياً أن يزداد اتجاه نشاطها نحو بحر ايجة . ولعل هدف الاسكندر لم يكن اقتصادياً فحسب ، وهو ما يذهب اليه بعض الباحثين[4] ، بل كان عسكرياً أيضاً ، وهو أن يجعل من الاسكندرية قاعدة بحرية تدعم سيطرته على بحر ايجة وشرق البحر المتوسط . ولعله أراد كذلك أن تكون مدينته الجديدة ، وقد قامت على أسس الحضارة الاغريقية ، منبعاً يفيض بماء هذه الحضارة فينشر خصبها بين ربوع الشرق القديم .

ويبين أن الاسكندرية كانت أول ميناء لمصر على مياه البحر المتوسط

---

(1) Cf. Diod., XVIII, 4; Tarn, J.H.S., 1921, pp. 1 ff; 1939, pp. 124 ff.
(2) Bevan, p. 4; C.A.H., VI, p. 377.
(3) Jouguet, Mac. Imp., 29 .
(4) Fraser, op. cit., p. 1.

العميقة ، لأن بلوزيون – اذا صح مايرويه استرابون [1] كانت تقع على فرع النيل البلوزى على مسافة أربعة كيلو مترات تقريبا من البحر . وقد كانت نقراطيس تبعد كثيرا عن البحر . أما قانوب ، وهى التى كانت تعتبر ميناءها، فانها بحكم موقعها عند مصب فرع النيل القانوبى وتعرضها للرواسب الطميية كانت لاتصلح للوفاء بالهدف المنشود . واذا كانت بلوزيون قد احتفظت بمكانتها باعتبارها مفتاح مصر من ناحية الشرق – وترينا وثائق زينون أن جماركها كانت عامرة فى القرن الثالث بما يتدفق عليها من واردات سوريا – فان نقراطيس تضاءلت أهميتها تبعا لازدياد أهمية الاسكندرية التى جذبت اليها أنظار الشرق والغرب معا وأصبحت تقوم بدور كبير فى حياة مصر الاقتصادية ، لا باعتبارها عاصمتها فقط بل أيضا باعتبارها ميناءها الأول . ذلك أنها كانت تستقبل من الخارج ما تحتاج اليه البلاد فتوزعه عليها ، ويأتى اليها من كل أنحاء البلاد ما يزيد على حاجتها فتصدره الى مختلف الأسواق الخارجية . ولم تكن الاسكندرية مركزا تجاريا ممتازا فحسب بل كانت أيضا مركزا صناعيا هاما [2] .

وسرعان ما غدت الاسكندرية أكبر مدينة اغريقية فى العالم تفوق فى اتساعها أكبر المدن القديمة : أثينا وقورنثة وسراقوسة [3] . وقد غدت كذلك فى طليعة عواصم الحضارة الاغريقية واستمتعت بمكان الصدارة فى حلبة هذه الحضارة طوال القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد ، فلا عجب أن خلعت اسمها على حضارة هذين القرنين .

---

(1) Strabo, XVII. 1, 21.
(2) Jouguet, Trois Etudes, pp. 91 ff.; Fraser, I, pp. 132, 134-43, 175.
(3) Rostovtzeff, S. and E., p. 415.

ويبدو مما يرويه استرابون أنه كانت تقوم فى البقعة التى شيدت الاسكندرية عليها قرية تدعى راقوتيس (Rhakotis)، اذ أنه يحدثنا بأن ملوك مصر السابقين كانوا قانعين بمنتجات بلادهم ولايريدون استيراد شيء من الخارج، ويكرهون الأجانب وبخاصة الأغريق بسبب ما عرف عنهم من الجشع فى اغتصاب البلاد الاجنبية . وتبعا لذلك فان الفراعنة أقاموا فى هذه البقعة حامية عسكرية لصد الأجانب عن دخول البلاد وأنزلوا جنودهم فى القرية التى كانت تعرف باسم راقوتيس ، وأصبحت جزءا من مدينة الاسكندرية وراء أحواض الميناء [1] . ونقرأ فى « قصة الاسكندر » المنحولة على قاليسثنيس أن البقعة التى شيدت الاسكندرية عليها كان يقوم عليها قديما ست عشرة قرية مصرية كانت راقوتيس أكبرها [2] . وقد ورد ذكر راقوتيس فى مصادر بطلمية ورومانية أخرى من أقدمها بردية من أواخر القرن الثالث قبل الميلاد [3] . وفى رأى أحد الباحثين أن راقوتيس كانت فى عهد الأسر الفرعونية الأخيرة مدينة هامة ولم تكن قرية صغيرة بائسة ، وأن أهميتها هى التى حدت بالاسكندر الى اختيار موقعها لانشاء الاسكندرية [4] وفى رأى باحث أخر أن راقوتيس كانت القلعة الرئيسية على الحدود فى الشمال الغربى للدلتا منذ عصر الأسرة الثامنة على الأقل [5] . ويبدو لنا أن هذين الرأيين انبثقا من الكشف عن مخلفات أثرية ضخمة فى قاع البحر عند فاروس ، على نحو ما سيجيء ذكره بعد قليل .

---

(1) Strabo, XVII, 792.
(2) Ps - Callischenes, I, 31, 2 .
(3) Fraser, I, p. 5; II n. 17 p. 7.
(4) Wace, Alex. Un. Bull. Fac. Arts. [illegible], 1948, pp. 2 ff.
(5) Rowe, Bull. Ryll. Lib., 36, 1953 - 4, p. 137 ff; cf. Fraser, II n. 22 p. 5 .

وتدل الأبحاث الجيولوجية الحديثة على أن شاطىء الاسكندرية كان في عصر ما قبل التاريخ يتألف من سلسلة من الجزر الصغيرة ، تقع عند مدخل الخليج الذى أصبح فيما بعد بحيرة مريوط ، لكن تراكم رمال الصحراء أدى على تعاقب الأجيال الى ربط هذه الجزر بعضها ببعض وتحويل الخليج الى بحيرة . وبمضى الزمن طرأت تغيرات أخرى على أرض الاسكندرية ، اذ أن مستواها اليوم قد انخفض عما كان عليه في عصر البطالمة والرومان مسافة تتراوح بين متر ومتر ونصف أو أكثر من ذلك في الداخل وحوالى أربعة أمتار عند الشاطىء . ويبدو أن هذا الانخفاض قد حدث بالتدريج ، إما نتيجة لهزات زلزالية عنيفة وإما نتيجة لاحدى الظواهر الجيولوجية ، وإما لارتفاع مستوى البحر ، فقضى على المنطقة الساحلية وكانت بها قصور البطالمة وغيرها من أبرز معالم المدينة . ويجب أن يلاحظ أيضا أن مستوى المدينة القديمة أوطأ من مستوى المدينة الحديثة ببضعة أمتار ، لا بسبب هذا الهبوط فحسب بل بسبب مخلفات العصور المتلاحقة التي كونت طبقات فوق طبقات ، اذ أنه لكي تصل الى مستوى المدينة في العصر الروماني يجب أن تحفر في باطن الأرض ستة أو سبعة أمتار . وازاء ذلك فانه لابد من أن أطلال المدينة البطلمية تقع على عمق أبعد من ذلك ، ومن ثم فانه يرجح أن المياه تغمر كل طبقات ذلك العصر [1] . وقد كان من جراء ذلك أنه يتعذر اعطاء صورة كاملة للمدينة الاسكندرية القديمة .

وقد كان يظن أن فاروس لم تكن وقت مجىء الاسكندر أكثر من مأوى لبعض صيادى السمك المصريين ، وأن الاسكندر وخلفاءه من أفراد أسرة

(1) Breccia, Alex. and Aeg., pp. 66, 67, (Eng. Ed.) ; Fraser , I, pp. 9 ff.

البطالمة هم الذين أنشأوا فى هذا المكان ميناء عظيما . لكن أبحاث جاستون جونديه (Gaston Jondet) أثارت مشكلة هامة ، اذ أنه كشف فى قاع البحر ، عند المكان الذى كان يعرف قديما باسم جزيرة فاروس ، عن بقايا أرصفة ومنشآت بحرية ضخمة . ولم يثبت بعد اذا كانت هذه الأطلال جزءا من ميناء الاسكندرية فى العهد الاغريقى ، أو جزءا من ميناء أقدم عهدا من ذلك ثم أهمل وعفا عليه الزمن قبل الفتح المقدونى . ومع ذلك فان جونديه يميل الى الاعتقاد بأن رمسيس الثانى أو الثالث هو الذى أنشأ الميناء المندثر ليحمى مصر من طغيان سكان البحار ويقول : « ان مواد البناء ضخمة ، كما هى الحال فى أبنية الفراعنة ، ولابد من أن نقلها وانشاءها كانا أصعب من اقامة الأحجار فى أبنية الفراعنة ، ولابد من أن نقلها وانشاءها كانا أصعب من اقامة الأحجار التى تتألف منها الأهرام الكبيرة »[1] . ويرى فريق من الباحثين أن هذه المخلفات المصمورة فى الماء مخلفات موانى بحرية يعزون انشاءها الى الكريتيين فى العصر المينوئى المتوسط أو الحديث أى فى عصر الدولة الوسطى أو الدولة الحديثة »[2] . هذا الى أن الدكتور الفخرانى يرى ان ملوك مصر فى عهد الدولة القديمة هم الذين أنشأوا هذه الموانى المطمورة ، وان هذه الموانى ازدادت فى الأهمية فى عصر الاسرة التاسعة عشر وظلت قائمة الى زن حدثت تغيرات جيولوجية وطبيعية أفضت الى اختفائها تحت الماء »[3] . ولما كان لايوجد أى دليل على خضوع أى جزء من مصر

(1) Gaston Jondet, Les Ports submerges de l' ancienne ile de pharos (Memoires presentes a L' Inst. Eg., Vol, IX. le Caire 1916)
(2) Raymond weill, Les Ports antihelleniques de la cote d' Alex et l' empire cretois, Bull. Inst. Fr. Ar O. 1916. XVI, Sir Arthur Evans, The Palace of Minos at Knossos. London (1920) pp. 292 ff; Camille Antran. Les pheniciens. 1920.

(٣) دكتور فوزى عبد الرحمن الفخرانى : موانى الاسكندرية القديمة ، ١٩٦٣ .

للمينوئيين ، فان الرأى الثنى مرفوض شكلا وموضوعا . ويبدو لنا أن الرأى الثالث ليس الا تطويرا للرأى الأول ، وأنه لايمكن قبول أيهما أو ترجيحه على الآخر قبل انتشال المخلفات من البحر ودراستها أو العثور على ادلة أخرى نستهدى بها .

وقد اهتم الكتاب القدماء بتفاصيل قصة تعيين مواقع أسوار المدينة أكثر من اهتمامهم باعطائنا معلومات دقيقة عن مقاييس الأسوار وأبعادها وشكلها ومواقعها . وقد انفرد تاقيتوس (Tacitus) [1] من بين كافة المؤرخين القدماء بأن عزا انشاء الأسوار الى بطليموس الأول ، وأما غيره من قدامى المؤرخين فانهم لم يشيروا الى الأسوار الا اذا عرضت مناسبة للاشارة الى أحد الحصارات التى عانتها المدينة . ولاسبيل الى الشك فى أن أسوار الاسكندرية كانت أعظم من أسوار أية مدينة اغريقية أخرى ، فيما عدا سراقوسة وأثينا . ذلك أن الأحداث قد أثبتت أنها كانت منيعة على الدوام ، فقد فشل أمامها أنطيوخوس الرابع ملك سوريا فى عامى ١٧٠ و١٦٨ق. م وقضى دقلديانوس ثمانية أشهر للاستيلاء عليها فى عام ٢٩٥ – ٢٩٦ . ويكاد ينحصر كل ما نعرفه عن هذه الأسوار فى عصر البطالمة فيما يلى :

(أولا) أنه كان يحيط بالاسكندرية عندئذ أسوار يبلغ أقصى طولها حوالى ١٥ ك .م . مع ملاحظة أنه وفقا للعادة الشائعة عند الاغريق كانت المقابر تقع خارج الأسوار وتبعا لذلك كانت الجبانتان الغربية والشرقية ، جبانة القبارى وجبانة الشاطبى ، تقعان خارج أسوار الاسكندرية .

(ثانيا) حصنت هذه الأسوار باقامة أبراج عليها فى مسافات متقاربة .

(ثالثا) كانت هذه الأسوار تتبع فى الناحية الشمالية مجرى الشاطىء،

فيما بين حدودها الغربية (جبانة القبارى) وحدودها الشرقية (جبانة الشاطبى (. وعند رأس لوخياس "Lochias" [1] كانت تتجه جنوبا حوالى كيلو مترين صوب القناة المتفرعة من الفرع القانوبى ؛ وفى الناحية الجنوبية كانت الأسوار تتبع الشاطىء الشمالى لبحيرة مريوط [2] .

ويحدثنا استرابون بأن المدينة كانت تبلغ ٣٠ ستاديا (Sladia ومفردها Stadion = ٦١٠ قدم أو ١٨٥,٩ متر) فى الطول وسبعة أو ثمانية فى العرض [3] . وأما المؤرخ اليهودى يوسف [4] فانه يتفق مع استرابون من حيث تقدير طول المدينة ، ولكنه يختلف معه من حيث تقدير عرضها فهو يحدثنا بأنه كان ١٠ ستاديا ، وهو التقدير نفسه الذى نجده عند فيلون [5].

ومن المعروف أن المدينة الاغريقية كانت تتألف عادة من المدينة واقيلمها الزراعى ، لكن جوجيه يعتقد أن الاسكندرية لم تتألف الا من المدينة وضواحيها ، وذلك لأن ما يعرف باقليم الاسكندرية كان فى العهد الرومانى منفصلا عن المدينة ويكون مديرية على حدة تحت سيطرة قائد يقيم فى هرموبوليس بارفا (Hermopolis Parva = دمنهور) ، ويرجح جوجيه أن هذا النظام كان سائدا فى عهد البطالمة أيضا [6]. ونحن نستبعد أنه حين كانت الاسكندرية عاصمة البطالمة وأعظم مدينة فى العالم الاغريقى بأسره لم يكن لها أقليم زراعى مثل غيرها من المدن الاغريقية ، ولاسيما أننا سنرى فيما بعد أنه كان من أنواع الأراضى فى عصر البطالمة ، مايعرف بأرض

(1) Hist, IV, 83, 1.
(2) Bressia, op. cit., p. 71; Cf Fraser, I, pp. ll ff.
(3) Strabo, XVII, 795.
(4) Joseph., Bell. Jud., II, 386.
(5) Phil., In Flac., 92.
(6) Jouguet, Vie, p. 8.

المدينة (go Politike) وهى الارض التى خصصت للاسكندرية وبطوليس وكذلك الأرض التى كانت تمتلكها المدينة الاغريقية القديمة نقراطيس . ولعل اتساع نطاق اقليم الاسكندرية الزراعى هو ما حدا بالرومان الى جعله مديرية قائمة بذاتها . وقد يؤيد ما نذهب اليه شدة عطف البطالمة وحدبهم على مواطنى عاصمتهم الاغريق . ويجب ألا نخلط بين اقليم الاسكندرية (Alexandreias chora) وبين ذلك الجزء من ليبيا وهو الذى كان يطلق عليه أفوريسمنى (Aphorismene) وتخصص منتجاته للاسكندرية . ومما تجدر ملاحظته أن الاسكندرية كانت لاتعتبر جزءا من مصر وانما مجاورة لها ، على حد تعبير الاغريق والرومان وكانوا يدعون الاسكندرية على النحو التالى Pros Aigypto" أو Kat' Aigypton [2] أو apo Aigyptou [3] أو ad Aegyptum ».

ويحدثنا مؤلف قصة حياة الاسكندر [4] بأن الفاتح الكبير وضع أساس مدينة الاسكندرية فى اليوم الخامس والعشرين من شهر طوبه عام ٣٣١ق.م . وبأن المدينة كلها اعتادت طوال العصور القديمة تزيين الحيوانات بالزهور وتقديم القرابين لآلهة المدينة الحارسة (Agathoi Daimones) فى

---

(2) Rostotveff, Soc. and Ec., p. 415.
(3) Syll, 3, no. 583, l. 315.
(4) Ps. - Callisthenes, I, 32. 10.

مثل هذا الموعد[1] من كل عام .

وكـان المهندس الذى اسـتـخـدمـه الاسكندر لتـخطيط المدينة يدعى دينوقراتيس (Dinocrates) . وقـد طبق هذا المهندس أفكار تخطيط المدن التى نشرها هيبوداموس (Hippodamos) من ميلتوس فى القرن الخامس قـبل الميـلاد ، وطبـقـت فى اعـادة تخطيط بايرايوس (Peiraios) ورودس وهاليقارناسوس[2] . وأهم طابع لتخطيط الاسكندرية هو شوارعها التى تجرى فى خطوط مستقيمة من الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق الى الغرب ، حتى لتشبه لوحة الشطرنج . وقد شبه الأقدمون شكل رقعة المدينة بشكل ملحفة الحرب المقدونية[3] وكـانت كـقطاع من دائرة يبلغ طوله ضـعف عرضه تقريبا .

واذا كـان قليـومنيس النقـراطيـسى هو أول من بدأ فى اقـامـة منشـآت الاسكندرية وكان كل البطالمة تقريبا قد أسهموا فى تجميل هذه المدينة ، فانه لاسبيل الى الشك فى أنه كـان لبطليـموس الأول والثـانى أكبـر نصيب فى

---

(١) وفى رأى جوجيه انه لما كان التقويم المصرى لم يصحح الا فى عهد بطليموس الثالث ، فان تاريخ تأسيس المدينة كان يوافق ٧ من أبريل
(Jouguet, Rev. Et. An ., 42, 1940, pp. 192-7; Bull. Inst. Eg., 24 1942 pp. 158 - 74).
ولكنه فات جوجيه اننا نستمد هذا الموعد من قصة حياة الاسكندر وهى التى كتبت فى العصر الرومانى حين كانت مصر تستخدم التقويم الرومانى ، ومن ثم فان فيلكن يرى بحق أن ٢٥ من طوبه كان يوافق ٢٠ من يناير –
(Wilcken, S.B. Berlin, 30, 1928, p. 579, n.3).
وعن مناقشة هذه المشكلة راجع : Fraser, II, n. 9 p. 3 .
(2) Breccia, op. cit., p. 67.
(3) Plut., Alex., 26, 8; Strabo, XVII, 793; Diod., XVII, 55; Plin., N. H., V, 62 .

ذلك . ويبدو أنها فى عهد بطليموس الثانى كانت قد استكملت أهم مظاهرها التى اشتهرت بها فى عصرى البطالمة والرومان .

تاريخ نقل العاصمة من منف الى الاسكندرية :

ويجدر بنا التوقف هنا لمناقشة التاريخ الذى أصبحت فيه الاسكندرية بدلا من منف عاصمة لمصر منذ أن اتخذها بطلميوس بن لاجوس مقرا له . ويسلم فريزر بأننا لانكاد نعرف شيئا على الاطلاق عن مدى نمو الاسكندرية فى عهد قليومنيس (٣٣١ - ٣٢٣)، وبأنه لايرد للاسكندرية أى ذكر فيما يتصل بالأحداث التاريخية التى وقعت فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، وبأنه لم تصل الينا نقوش ولا وثائق بردية يمكن تأريخها بدقة وتنم عن أن الاسكندرية كانت مصدرها أو تشير الى هذه المدينة قبل أواخر عهد بطلميوس الأول وبداية عهد بطيموس الثانى (ولعل فريزر يقصد نقوشا اغريقية لأنه عرف واستخدم نقشا مصريا ورد فيه ذكر الاسكندرية ويرجع الى الشطر الأول من عهد بطلميوس الأول) ، وبأن المصادر الأدبية كذلك تلوذ بصمت عميق عن هذه المدينة فى تاريخها الباكر . ومع ذلك فان فريزر يميل الى الاعتقاد بأن الاسكندرية غدت سريعا بعد انشائها مقر الحكم فى مصر ، وذلك على أساس : أولا ، أن الاسكندر الأكبر عهد بانشاء المدينة الى قليومنيس وكان رجلا جم النشاط . وثانيا : أنه لما كان قليومنيس قد أصدر باسم الاسكندر نقودا ترجع الى عام ٣٣١/٣٣٠ أو الى عام ٣٢٦ / ٣٢٥، وكان يبدو أن بطلميوس بدأ مباشرة فى سك نقود عقب اعدامه قليومنيس فى عام ٣٢٣، فانه يلوح أنه كانت توجد دار لسك النقود فى الاسكندرية منذ عهد قليومنيس ، وذلك بالرغم من عدم وجود دليل على أن

الدار التى سكت فيها نقود كل من قليومنيس وبطلميوس كانت تقوم فى الاسكندرية . ويبنى فريزر احتمال وجود دار لسك النقود بالاسكندرية فى ذلك الوقت الباكر على احتمال آخر وهو أنه من العسير تصور قيام بطلميوس بانشاء دار لسك النقود فى منف فى حين أن المدينة الجديدة القائمة على البحر والمنفتحة على التجارة الاغريقية كانت فى حاجة ملحة الى النقود . هذا الى أن رغبة بطلميوس فى اكتساب مكانة كبيرة فى العالم الاغريقى كانت تحفزه على اصدار نقود ولايته من مدينة اغريقية لا من مدينة مصرية . وتبعا لذلك فان فريزر يكاد أن يوقن بأنه لم يواف عام ٣٢٣ حتى كانت دار سك النقود تمارس نشاطها فى الاسكندرية . ويرى فريزر أنه من المستبعد أن بطلميوس كان يسك نقوده فى مدينة ويستمر مقيما فى مدينة أخرى ، ويضيف الى ذلك أن وثيقة مصرية (نصب الوالى المؤرخ بالعام السابع من عهد الاسكندر الرابع) ، قد تشير الى أن بطلميوس انتقل من عاصمته القديمة منف واتخذ الاسكندرية مقرا له فى تاريخ لايرجع الى ما بعد عام ٣١٩/٣٢٠ [1] أى أن هذا الانتقال كان حوالى عام ٣٢٠ ق.م [2] .

وخلاصة ما أسلفناه هو أن فريزر يستند فى تحديد التاريخ الذى اتخذ فيه بطلميسو الاسكندرية عاصمة له بحوالى عام ٣٢٠ الى حجتين أحداهما هى التى يشرحها فى الجزء الاول من كتابه على نحو ما عرضناه ويسميها فى الجزء الثانى « أدلة النوميات » ولكننا نرى أن الأصح تسميتها النتيجة الافتراضية لسك قليومنيس وبطلميوس نقودا فى الفترة الباكرة من تاريخ

(1) Fase, I, op. cit. pp. 6-7. op cit.
(2) Fraser, op. cit., II, n. 28 pp. 11 - 12 .

الاسكندرية ، بيد أنه توخيا للايجار ستستخدم فى التعبير عن التهمة التى نستصوبها عبارة « النتيجة الافتراضية لأدلة النوميات » . وأما الحجة الأخرى فهى حجة « نصب الوالى » وهى التى اكتفى فريزر بالاشارة اليها اجمالا فى الجزء الأول وفصلها فى الجزء الثانى .

ويذكرنا فريزر بالبحث الذى كان قد نشره وانتهى فيه الى أن بطلميوس نقل عاصمته من منف الى الاسكندرية فى حوالى عام ٣٢٠ وذلك استنادا الى أساسين جوهريين وأحدهما هو أن نصب الوالى المؤرخ بالعام السابع من عهد الاسكندر الرابع يرجع الى عام ٣١٧ / ٣١٦ (أى أن فريزر خالف عندئذ جمهرة الباحثين واحتسب بداية عهد هذا الملك منذ مولده بدلا من احتسابها منذ انفراده بعرش الامبراطورية المقدونية نتيجة لمصرع شريكه فى عرشها فيليب ارهيدايوس) .

والأساس الآخر هو أنه لما كان نصب الوالى يرجع الى عام ٣١٧/ ٣١٦ وكان فى رأيه أن النصب توخى الترتيب الزمنى فى سرده عددا من الأحداث (١ – اعادة بطلميوس تماثيل الآلهة من آسيا ، ٢ – اختياره الاسكندرية مقرا له ، ٣– قيامه بفتح سوريا ، ٤– فتح اقليم Ir - m- z وهو الذى اعتبره قورينى) فانه يجب تأريخ هذه الأحداث جميعا بالفترة ٣٢١ – ٣١٩ ، وبوجه خاص يجب اعتبار فتح سوريا ذلك الذى تم فى عام ٣١٨/٣١٩ . ويعترف فريزر فى مؤلفه الأخير نقل العاصمة الى الاسكندرية فى حوالى عام ٣٢٠ مصرا على أن منف ظلت طويلا عاصمة بطلميوس . وثانيا ، أنه يجب احتساب بداية حكم الاسكندر الرابع منذ انفراده بعرش الامبراطورية المقدونية فى عام ٣١٦/٣١٧ لأن ألدى برديات الفيوس تعادل العام السابع من عهد الاسكندر الرابع بالعام الرابع عشر من عهد بطلميوس الوالى أى

بعام ٣١١ . بيد أن فريزر يرى أنه اذا كان ذلك يستتبع ارجاع تاريخ نصب الوالى الى هذا العام بدلا من عام ٣١٦/٣١٧ ، فانه يمكن القول دون جزم بأن هذا لايؤثر فى « التـأريخ الأقـدم » الذى أرخ به الأحـداث الواردة فى نصب الوالى (أى أنها ترجع جميعا الى ٣٢١ ـ ٣١٩) . وثالثا ، أنه ازاء تشكك علماء الدراسات المصرية فى أن اقليم Ir-m-z هو اقليم المارماريداى فانه يجب استبعاد التفكير فى أى تأريخ مبنى على افتراض أن الحملة المشار اليها فى نصب الوالى كانت احدى حملات بطلميوس ضد قورينى . وبعد هذه الاعترافات يقول فريزر ان كل ما يتبقى لاستخلاصه من نصب الوالى هو أن اتخاذ بطلميوس الاسكندرية عاصمة له سبق قيامه باحدى حملتيه لفتح سوريا أما تلك التى وقعت فى عام ٣١٩ / ٣١٨ وأما تلك الحملة الطويلة التى كانت موقعة غزة (٣١٢ / ٣١١) أبرز أحداثها ، ولكنه فى ضـ « أدلة النوميات » يرجح ترجيحا قويا حملة ٣١٨/٣١٩ . ويضيف الى ذلك أنه لما كـان المحتـمل أن اقليم Ir-m-z هو اقليم قـورينى ، وكـانت الحملة الوحيدة ضد قورينى التى يمكن اعتبارها حملة تأديبية هى حملة عام ٣١٢/٣١٣ ، وكانت هذه الحملة سابقة على الحملة السورية التى وقعت فى عام ٣١١/٣١٢ ، فان هذا يؤيد ترجيحه للحملة السورية التى وقـعت فى عـام ٣١٨/٣١٩ ، وتبـعا لذلك يكون بطلميـوس قـد اتخـذ الاسكندرية عاصمة له قبل هذه الحملة .

وهكذا يتضح أن فريزر خرج من بحثه الحديث بالنتيجة نفسها التى كان قد انتـهى اليـها ببحثه القـديم وهى أن التاريخ الذى نقل فيه بطلميـوس عاصمته من منف الى الاسكندرية كان حوالى عام ٣٢٠، وذلك بالرغم من تسليمـه مؤخرا بأن نصب الوالى يرجع الى عـام ٣١١ ، وهو التاريخ الذى

يأخذ به كثيرون من الباحثين منذ أمد طويل ونأخذ به نحن منذ حوالى الثلاثين عاما ، أن تاريخ نص الوالى يرجع الى العام السبع من عهد الملك الاسكندر المعمر أبدا ، في الوقت الذى يبدأ فيه فيضان النيل، أى في شهر يونيه عام ٣١١ .

ونحن اذ نسلم بأن تأريخ اتخاذ بطلميوس الاسكندرية عاصمة له مشكلة ليست هينة ، ونعترف بأن فريزر انفق جهدا مشكورا فى محاولة حل هذه المشكلة ، لايسعنا الا أن نبدى أنه لنا على هذا الجهد السخى مآخذ نرى أنها أثرت تأثيرا جذريا فى النتيجة النهائية التى توصل اليها ، وهى أن بطلميوس اتخذ الاسكندرية عاصمة له حوالى عام ٣٢٠ . وسنبدأ بعرض هذه المآخذ اجمالا قبل أن نتناولها تفصيلا ، وأول هذه المآخذ هو أن فريزر توصل الى نتيجته النهائية سالفة الذكر اعتمادا على حجتين : احداهما هى ما يسميه «أدلة النوميات» ، فهذه الحجة ليست الا نتيجة مستخلصة من عدة افتراضات مما يضفى عليها طابع المجازفة العلمية غير المأمونة ولا المقبولة . وثانى هذه المآخذ هو أن فريزر بدلا من أن يلقى على نصب الوالى نظرة شاملة تستوعب محتوياته جميعا وتؤدى الى فهم هدفه الحقيقى والى استخلاص أصح النتائج أو على الأقل أقربها الى الصحة ، اجتزأ بعضا من هذه المحتويات واتخذ منها حجة اخرى تسند وفى الوقت نفسه تستند الى الحجة الأولى توصلا الى النتيجة النهائية السالفة الذكر . وليس من شأن

ذلك الا اثارة شك قوى فى سلامة هذه النتيجة . وثالث مآخذنا هو أنه قد فات فريزر فى تقديره تاريخ نقل العاصمة من منف الى الاسكندرية أن يدخل فى هذا التقدير اعتبارات الظروف التى اكتنفت مركز بطلميوس فى بداية عهده وكان لابد من أن تؤثر فى اتخاذ بطلميوس هذه الخطوة . ومن البديهى أنه من شأن اغفال هذه الاعتبارات فى تقدير تاريخ نقل العاصمة الى الاسكندرية أن يثير شكا قويا آخر فى سلامة النتيجة التى توصل اليها فريزر .

وأما عن المأخذ الأول فانه مر بنا أن فريزر نفسه يعترف بعدم وجود دليل على أن الدار التى سكت فيها نقود كل من قليومنيس وبطلميوس كانت تقع فى الاسكنرية ، ولكنه مع ذلك يفترض وجود مثل هذه الدار فى الاسكندرية منذ عهد قليومنيس ، بل يقول أنه يكاد أن يوقن بأنه لم يواف عام ٣٢٣ حتى كانت هذه الدار تمارس نشاطها ، ويبنى فريزر هذا الافتراض اليقينى – وهو ما يسميه « أدلة النوميات » ونسميه نحن « النتيجة الافتراضية لأدلة النوميات » -- على ثلاثة افتراضات اخرى . ولنبدأ بأهونها شأنا وأيسرها تفنيدا وهو الافتراض القائل بأن رغبة بطلميوس فى اكتساب مكانة كبرى فى العالم الاغريقى كانت تحفزه على اصدار نقوده من مدينة اغريقية -- أى الاسكندرية لا من مدينة مصرية ، أى منف . وهنا تتملكنا الدهشة لأن فريزر يعترف بأن بطلميوس اتخذ منف عاصمة له فى بداية عهده ، ولأنه لاشك فى أن مسألة اتخاذ بطلميوس مدينة مصرية عاصمة له أهم بكثير من مسألة مكان اصدار نقوده ، ولاشك فى أن رغبة بطلميوس فى اكتساب مكانة فى العالم الاغريقى لم تحل دون اتخاذه منف عاصمة له فى بداية عهده . وتبعا لذلك اذا كان بطلميوس لم ير بأسا فى اتخاذ منف

عاصمة له وكان فيما يبدو - على حد قول فريزر - بدأ مباشرة فى سك نقوده عقب اعدامه قليومنيس ، فهل من المستبعد أن يكون بطلميوس قد سك نقوده كذلك فى منف ، علما بأن هذا يتفق ووجهة نظر فريزر القائلة بصعوبة تصور اقامة الحاكم فى مدينة وسك نقوده فى مدينة أخرى ؟ واذا صح ما يرجحه بعض الباحثين من أن نقود قليومنيس ترجع الى عام ٣٣٠/٣٣١ فأيهما أدنى الى العقل والقبول أنه كانت توجد فى ذلك الوقت الباكر دار لسك النقود فى منف أم فى الاسكندرية ؟ ومن الجلى أن الاحتمال الأول ارجح من الثانى ، ومعنى ذلك أن يكون بطلميوس قد وجد فى منف دارا لسك النقود أنشأها قليومنيس وقام بدوره باستخدامها .

وأحد الافتراضين الآخيرين هو حاجة الاسكندرية الملحة الى النقود . والافتراض الآخر هو صعوبة تصور اقامة بطلميوس فى مدينة وانشاء دار لسك النقود فى مدينة أخرى . وليس من العسير الرد على هذين الافتراضين ، ولنبدأ بالاشارة الى التناقض الذى وقع فيه فريزر ، فهو من ناحية يقول ببقاء بطلميوس فى منف حوالى ثلاث سنوات كان فى خلالها يسك نقوده فى الاسكندرية ، ومن ناحية أخرى يقول بأنه من العسير تصور اقامة الحاكم فى مدينة واقامة دار لسك النقود فى مدينة أخرى . ولا مجال للجدل فى أمرين : وأحدهما هو أن الاسكندرية فى عهدها الذهبى - حين غدت من أعظم المراكز التجارية فى العالم الاغريقى - كانت حاجتها الى النقود أكثر الحاحا منها فى باكورة تاريخها .

والأمر الآخر هو أنه منذ أن اتخذ بطلميوس الاسكندرية عاصمة له كانت هذه المدينة المقر الرسمى للبطالمة الأوائل منهم والأواخر . ومع ذلك فاننا

سنطالع فى سياق الحديث عن النقود   أنه طالما بقيت فينيقيا فى قبضة البطالمة كانت أهم دور سك العملة البطلمية فى المدن الفينيقية الخاضعة لهم وهى صور وصيدا وبطولميس (عكا) ويافا وعزة ، وأنه عندما فقد البطالمة فينيقيا فى مستهل القرن الثانى قبل الميلاد لجأ البطالمة الى دور السك فى قبرص لسك عملتهم الفضية اذ أن كل النقود الفضية التى أصدرها البطالمة المتأخرون تحمل العلامات المميزة لدور السك فى قبرص . أى أنه لا حاجة الاسكندرية الى النقود ولا اقامة البطالمة فيها استتبعت حتما وجود أهم الدور لسك عملة البطالمة فى عاصمتهم .

وفى ضوء هذه المناقشة التى جرحت الافتراضات الثلاثة التى بنى عليها فريزر افتراضه اليقينى ، وهو الذى يسميه « أدلة النوميات » (وتسمية نحن « النتيجة الافتراضية لأدلة النوميات ») ويتخذ منه أحدى الدعامتين اللتين أقام عليهما نتيجته النهائية (اتخاذ بطلميوس الاسكندرية عاصمة له حوالى عام ٣٢٠) يتبين لنا مدى وهن افتراضه اليقينى . وليس من الاسراف فى الرأى القول بأه هذا الوهن الشديد يلقى ظلا كثيفا على النتيجة النهائية التى بنيت عليه .

وأما عن المأخذ الثانى فانه يخص اساسا الدعامة أو لحجة الثانية التى اقام عليها فريزر نتيجته النهائية (اتخاذ بطلميوس الاسكندرية عاصمة له حوالى عام ٣٢٠) . وهذه الدعامة أو الحجة الثانية هى « نصب الوالى » . ويستوقف النظر هنا .

(أولا) أنه برغم أن فريزر لم يعنه من أمر هذا النصب الا ذلك الجزء

من النقش الذى يروى أربعة أحداث (١ – اعادة بطلميوس تماثيل الآلهة من آسيا ، ٢ – اختيار الاسكندرية مقرا له ، ٣– قيامه بفتح سوريا ، ٤– فتح اقليم Ir-m-z) فان فريزر أغفل أو تغافل تماما أول هذه الأحداث .

(ثانيا) أن فريزر افترض أن ذلك الجزء من النقش يسرد هذه الأحداث وفقا لتاريخ وقوعها ، أى أن سردها رتب ترتيبا زمنيا ، وبناء على ذلك يرى فريزر أنه لما كان اتخاذ بطلميوس قد نقل عاصمته من منف قبل هذا الفتح . ويسلم فريزر بأن هذا الفتح قد يكون نتيجة أما لحملة بطلميوس فى عام ٣١٨/٣١٩ وأما لحملته فى عام ٣١١/٣١٢ ولكن فريزر يرجح الحملة الأولى استنادا الى ما يسميه أدلة النوميات وهى التى رأينا أنها ليست أكثر من نتيجة افتراضية بحت لاتستند الا الى افتراضات يكتنفها الشك من كل ناحية . وفضلا عن ذلك فان فريزر يؤيد ترجيحه لحملة عام ٣١٨/٣١٩ باحتمال أن الحملة ضد اقليم Ir-m-z كانت حملة بطلميوس التأديبية ضد قورينى فى عام ٣١٢/٣١٣ ومن ثم فانها تكون سابقة لحملة بطلميوس السورية فى عام ٣١١/٣١٢ ، وذلك بعد سطور قليلة من قوله بضرورة استبعاد أى تأريخ مبنى على افتراض ان الحملة ضد اقليم Ir-m-z كانت أحدى حملات بطلميوس ضد قورينى . وهكذا نرى فريزر يناقض نفسه مرة أحرى ويعود من جديد الى بناء افتراض على افتراض دون دليل على سلامة أى واحد من هذه الافتراضات ويتخذ من هذه الاسس الهشة دعامة يقيم عليها نتيجته النهائية (اتخاذ بطلميوس عاصمة له حوالى عام ٣٢٠) .

(ثالثا) أن الافتراض الاساسى الذى يستهل به فريزر استخدام نصب الوالى (وهو الافتراض الذى يزعم أن ذلك الجزء الذى اقتطفه من نقش

النصب يسرد ما أورده من أحداث وفقا لترتيبها الزمنى) افتراض يثير الشك فى صحته أمران : واحدهما ، هو أن الفقرة الوحيدة فى النصب التى يتبين فيها وقوع حادث فعلا قبل حادث آخر هى التى تقول أن بطليموس فتح سورا وبعد ذلك اقليم Ir-m-z . والأمر الآخر ، هو أن ذلك الجزء من النقش قد أورد قبل مسألتى نقل العاصمة الى الاسكندرية وفتح سوريا مسألة أخرى أغفل فريزر أو تغافل أمرها تماما وهى مسألة استعادة تماثيل الآلهة أو بعبارة أشتمل استعادة المقدسات المصرية من أسيا ، أى أن هذه المسألة كانت أول الاحداث الاربعة المجتزأة من محتويات النصب ومسألة فتح سوريا ثالث هذه الاحداث برغم ارتباط هاتين المسألتين ارتباطا عضويا وثيقا هو ارتباط السبب بالنتيجة ، لكن النتيجة قدمت هنا على السبب ، ويؤيد هذا الارتباط العضوى ما ورد فى أربعة مصادر أخرى من عصر البطالمة . وهى : لوحة بيثوم (من عهد بطليموس الثالث) ولوحة بيثوم الجديدة (من عهد بطليموس الرابع) . ذلك أنه ورد فى لوحة بيثون (القديمة) أن الملك (بطليموس الثانى) ذهب الى بلاد الفرس (أى البلاد التى كانت خاضعة للفرس اشارة الى حرب قاربا أو حرب دمشق) وأحضر تماثيل اللهة . وورد فى المصدر الثانى أن تماثيل الآلهة التى نهبها الفرس استعادها الملك

(بطلميوس الثالث) بعد قيامه بحملة خارجية . وبعد أن يتحدث المصدر الثالث عما قام به بطلميوس الثالث فى الحرب السورية الثالثة يقول ان هذا الملك بحث عما كان الفرس قد نهبوه من المقدسات المصرية وأعادها الى مصر . ووردت فى المصدر الرابع فقرة طويلة عن استعادة المقدسات المصرية التى نهبها الفرس . ومجمل هذه الفقرة أنه بعد انتصار بطلميوس الرابع فى معركة رفح (عام ٢١٧) أمر هذا الملك بالبحث بحثا دقيقا عن هذه المقدسات ، وأعاد الى مصر - الى جانب ما كان أبوه قد استعادة - كل ما وجد من التماثيل ، وأقام حفلا كبيرا لها ، وقضى بأن تعاد الى معابدها الأصلية حيث كانت من قبل .

وهكذا يتكشف لنا أولا ، أن استعادة المقدسات المصرية من آسيا يرتبط بحملات آسيوية ارتباط النتيجة بالسبب ، مما كان يستتبع ذكر السبب قبل النتيجة لو أن النقش كما يزعم فريزر رتب الأحداث الأربعة التى اجتزاها منه ترتيبا زمنيا ، ولكن النقش أورد استعادة بطلميوس المقدسات ثم اختياره الاسكندرية مقرا له ثم فتحه سوريا . وثانيا ، أن مصادر متعددة من عهد البطالمة الأربعة الأوائل تردد ذكر مسألة استعادة المقدسات المصرية ، مما ينم عن أن هذه المسألة كانت شديدة الحساسية بالنسبة الى المصريين وعن أن البطالمة اتخذوا من هذه المسألة وترا يعزفون عليه لكسب ود مصر ودعم مركزهم فيها باظهار الفارق الهائل بين حكامها الجدد وحكامها القدامى من الفرس ، على نحو ما سبق ذكره فى سياق الحديث عن البطالمة والديانة المصرية وعلى نحو ما سنتبينه توا .

وفى رأينا أن العبارة الخاصة باعادة بطلميوس المقدسات المصرية من آسيا ، وغير ذلك من محتويات نصب الوالى الى جانب ما اجتزأه منها فريزر ، فضلا عن الزخرفة التى زينت بها قمة هذا النصب ، تقتضى دراسة هذه النصب دراسة شاملة ليتيسر استخلاص أصح النتائج أو على الأقل اقربها الى الصحة . ذلك أن هذ النصب نقش عليه نص طويل بالهيروغليفية ، وزينت قمته بمنظرين مصريين (من حيث الطراز والطابع) يصوران ملكا وهو يقدم القرابين فى أحدهما الى حورس اله مدينة بى (Pe) وفى المنظر الآخر الى بوتو الهة مدينتى بى وتب (Top) . ويبدأ النص باثبات تاريخه فى العام السابع من عهد الاسكندر الرابع ، ثم يقرن اسمه بالألقاب الفرعونية التقليدية ، ويصفه بأنه صديق الهى بى وتب وبأنه ملك على بلاد اخرى الى جانب مصر . ويروى النص أنه فى أثناء وجود هذا الملك فى آسيا كان ينوب عنه فى حكم مصر وال عظيم ، اسمه بطلميوس ، قوى البنية والشكيمة ، ذكى الفؤاد ، بارع فى القتال . وبعد أن يورد النص تلك العبارة الخاصة باعادة المقدسات المصرية التى وجدت فى آسيا ، يذكر أن بطلميوس آتخذ الاسكندرية مقرا له ، وأنه جمع قوات كبيرة من الفرسان والسفن وفتح سوريا وبعد لك قام بحملة تأديبية ضد اقليم Ir-m-z وعقابا لأهالى هذا الاقليم أحضر اعدادا كبيرة من الأسرى والخيول . ويمضى النص فيقول انه بعد عودة هذا الوالى العظيم الذى كان يبذل قصارى جهده فى خدمة صوالح آلهة مصر العليا ومصر السفلى أقام حفلا كبيرا حيث استمع الى حديث طويل فحواه أن اقليم باتانوت (Patanut = المنطقة الشمالية من محافظتى الغربية وكفر الشيخ) كان دائما أبدا ملكا لالهى بى وتب الى أن سلبهما

اياه اجزر كسيس ولكن خباش (الزعيم الوطنى الذى قاد ثورة المصريين على الفرس فى عام ٤٨٦) أعاد الى الالهين ممتلكاتهما وأضاف اليها . ويحدثنا النص بأنه بعد استماع بطلميوس الى هذا الحديث أصدر قرارا يقضى بتجديد منحة خباش كاملة وبتعيين حدود الممتلكات الممنوحة . وينتهى النص بالاعراب عن تمنى النصر لهذا الوالى العظيم جزاء وفاقا لتجديده منحة خباش لالهى بى وتب ، وباستمطار لعنات هذين الالهين على كل منتمتد يده الى أى شىء من ممتلكاتهما .

وعند دراسة نصب الوالى يستوقف النظر : أولا ، أن النقش اذ يسجل أن تاريخه هو العام السابع من عهد الاسكندر الرابع (أى عام ٣١١) ، لايحفل باثبات انتقال هذا الملك من آسيا الى مقدونيا منذ عام ٣٢١ ، ولا بالاشارة الى مقر هذا الملك الصبى التعس فى وقت تاريخ النقش مثل احتفاله بذكر مقر بطلميوس فى ذلك الوقت . وفضلا عن ذلك فان قول النقش أن بطلميوس كان يحكم مصر بوصفه نائبا عن الاسكندر الرابع حين كان هذا الملك فى آسيا كان بطلميوس يحكم مصر باسم فيليب أرهيدايوس والاسكندر الرابع ، بوصفهما ملكين شريكين تحت الوصاية وفقا لقرار مؤتمر بابل . وقيام بطلميوس باعادة انشاء قدس الأقداس فى معبد الكرنك باسم فيليب أرهيدايوس [1] لايدع مجالا للاجتهاد فى التفسير بأنه ربما كان بطلميوس لايعترف به ملكا . وحتى اذا صح هذا فانه لايغير من حقيقة أن النقش لايتوخى الدقة فى تسجيل الأحداث . وفى رأينا أن هذا كله الى جانب ما ذكرناه بصدد الأحداث الأربعة يدل على أنه كان لهذا النقش أو

(1) Noshy, Arts in Ptolemaic Eg., p. 67; Jequier, Temples Ptol. et Rom., pls, II, III; Murray, Eg. Temples, pp. 71, 80 etc..

بعبارة أخرى نصب الوالى هدف آخر غير تسجيل الأحداث ومراعاة الدقة سواء فى سردها أم فى ترتيبها ترتيبا زمنيا .

وثانيا ، أن النصب يعنى بوجه خاص بتذكير المصريين بأنهم يخضعون لفرعون يعطف على آلهة البلاد وله من الحول والقوة بحيث أن سلطانه لايمتد على مصر فحسب بل أيضا على أقاليم أجنبية ، وبأنه ينوب عن هذا الفرعون فى حكمهم وآل حكيم قوى بارع فى القتال ولايقل عن مولاه عطفا على آلهة مصر .

وثالثا ، أن ذكر اتخاذ بطلميوس الاسكندرية مقرا له يجىء بعد الاستهلال بتسجيل ان هذا الوالى أعاد الى مصر مقدساتها من آسيا - أى أنه من طراز آخر غير طراز حكامها السابقين من الفرس الذين نهبوا هذه المقدسات - وقبل تسجيل أمرين آخرين وهما : (١) قوات بطلميوس البرية والبحرية الضخمة وانتصاراته العسكرية الخارجية ، للدلالة على قوته وكفايته العسكريتين ، (٢) مظهر آخر من مظاهر عطف بطلميوس على الديانة المصرية بمساعدة الاغريق لهم فى ثوراتهم ضد الفرس ، وليبرز وجه الشبه بين بطلميوس والزعيم الوطنى خباش ، ويؤكد بذلك كله الفارق الهائل بين موقف بطلميوس ازاء الديانة المصرية وموقف الفرس ازاءها ، وهو الموقف الذى كان من أقوى أسباب نقمة المصريين عليهم .

وان ذلك ذلك كله على شىء فهو يدل على :

(أولا) أن النص المنقوش على نصب الوالى كان ضربا من الدعاية السياسية التى ورد بين ثناياها ذكر اتخاذ بطلميوس الاسكندرية مقرا له .

(ثانيا) أن محور هذه الدعاية كان الاشادة بمظاهر عطف بطلميوس

(الوالى القوى الحكيم صاحب البراعة القتالية والقوات الضخمة والانتصارات الباهرة) على الديانة المصرية ، وابراز وجه الشبه بينه وبين الزعيم الوطني خباش وكذلك وجه الاختلاف بينه وبين الفرس حكام مصر القدامى البغيضين .

(ثالثا) أنه لو أن فريزر درس نصب الوالى دراسة شاملة ، وأولى محتوياته جميعا ما تستحقه من عناية ، لجنب نفسه الانزلاق الى اجتزاء جانب من هذه المحتويات ، والى افتراض أن ما اجتزأه سجل زمني رتبت الاحداث الواردة فيه وفقا لتاريخ وقوعها ، والى تأريخ أحد هذه الأحداث (فتح سوريا) بعام ٣١٩ / ٣١٨ استنادا الى نتيجة افتراضية بحت والى فرض قال هو نفسه بضرورة استبعاده ، ليخرج من ذلك كله بأن بطلميوس نقل عاصمته من منف الى الاسكندرية في حوالى عام ٣٢٠ . وتبعا لذلك اذا كان لاسبيل الى الشك في أن هذا النقل قد سبق تاريخ نصب الوالى (شهر يونيه عام ٣١١) ، فان لنا عذرا في أن يساورنا الشك في سلامة النتيجة التى انتهى اليها فريزر ، وذلك بسبب الشبهات القوية التي تحوم حول المنهج الذى اتبعه والافتراضات التي استخدمها في الوصول الى هذه النتيجة .

(رابعا) أنه لابد من أنه كان هناك سبب للقيام بتلك الدعاية السياسية في شهر يونيه عام ٣١١.

فما هو هذا السبب ؟

بيد أنه قبل تبين هذا السبب يجب أن نتناول المأخذ الثالث وهو أنه فات فريزر في تقديره حوالى عام ٣٢٠ تاريخا لنقل العاصمة من منف الى الاسكندرية أن يدخل في حسابه الاعتبارات التالية :

(أولا) أن بطلميوس اذ اتخذ منف عاصمة له ودفن فيها الاسكندر الأكبر قبل نقل جثمانه الى الاسكندرية كان حريصا أشد الحرص على كسب ود المصريين . وينهض دليلا على ذلك :

١ - الى جانب ما أورده نصب الوالى عن مظاهر عطفه على الديانة المصرية ، هناك شواهد أخرى عن هذا العطف ، فقد سبق أن ذكرنا أنه ما كاد يصل الى مصر فى عام ٣٢٣ حتى تبرع بمبلغ قدره خمسون تالنتا للاحتفال بجنازة أحد العجول المقدسة ، كما ذكرنا أنه أقام عدة منشآت دينية ترجع الى عهد فيليب أرهيديوس والاسكندر الرابع .

٢ - أنه يتبين من المصادر المصرية ، على نحو ما سيجىء ذكره فيما بعد ، أنه على الأقل فى بداية عهد بطلميوس كان نبيل مصرى يدعى نقتانبو - لعله كان سليل آخر فوعون مصرى - نومارخ المديريات الثانية عشرة والرابعة عشرة والتاسعة عشرة من مديريات الدلتا ، وكان أيضا قائد قوات الأجانب فى المديرية الرابعة عشرة . وكذلك كان نبيل مصرى آخر يدعى ابسمتيك قائدا للجنود فى مديرية بوسيريس . واذا كان من المحتمل أن هذين النبيلين المصريين لم يكونا الوحيدين اللذين سمح لهما بطلميوس فى بداية عهده بالاحتفاظ بمناصب عليا ، فاننا لانسمع شيئا على الاطلاق عن هذه الارستقراطية فى خلال القرن الثالث قبل الميلاد . وتعطينا زخارف مقبرة بتوسيريس فكرة عن حال الارستقراطية المصرية الدينية فى بداية عصر البطالمة ، اذ أنه يتبين من نقوش هذه المقبرة أن صاحبها كان يمتلك أو على

الأقل يتولى ادارة مساحة واسعة من الأراضى . ولاشك فى أن ذلك لم يكن شأن بتوسيريس وحده دون غيره من كبار رجال الدين الى أن عمل البطالمة بشتى الطرق على تقليم أظافرهم .

ومعنى ذلك كله أن بطلميوس كان حريصا فى بداية عهده على كسب ود المصريين باتخاذه مدينة منف عاصمة له ، وباظهار حدبه وعطفه على الديانة المصرية ، وبعدم اقصاء المصريين عن المناصب العليا ، وبعدم اذلال رجال الدين .

(ثانيا) أننا نستمد من تاقيتوس أن بطلميوس الأول هو الذى أنشأ أسوار الاسكندرية ، على نحو ما مر بنا ذكره ، وأن القرائن توحى بأن هذه الأسوار كانت ضخمة منيعة . ولا جدال فى أن انشاء مثل هذه الأسوار كان يتطلب قدرا غير قليل من الوقت والمال ، وهو ما يداخلنا شك كبير فى أنه كان ميسورا لبطلميوس فى السنوات الأولى من عهده وسط انهماكه فى مشاكل حيوية بالنسبة لكيان ولايته على نحو ما أوضحنا تفصيلا فى معرض الكلام عن سياسته الخارجية وعلى نحو ما سنعرض له اجمالا .

(ثالثا) أن تصرفات بطلميوس منذ حضوره الى مصر اذ تدل على تحديه للسلطة المركزية فى الامبراطورية المقدونية تحديا سافرا ، تدل أيضا على : (١) رغبته فى الاستقلال بحكم ولايته وتأمين سلامتها وهى الرغبة التى تطورت الى الاستقلال بهذه الولاية وجعلها دولة قوية مستقلة . (٢) صدق تنبؤه بنشوب صراع محموم محتوم نتيجة لتضارب أطماع خلفاء الاسكندر الأكبر .

وكان من شأن ذلك كله أن يبذل بطلميوس قصارى جهده لتأمين مركزه في مصر عن طريقين : وأحدهما هو اجتذاب أكبر عدد ممكن من الاغريق وأشباههم الى مصر لبناء قوة يستطيع الاستناد اليها في حكم ولايته وفي الذود عن حياضها وتأمين سلامتها وكذلك في ضمان هذه السلامة بالاستيلاء على ملحقاتها الطبيعية والسيطرة على الطرق البحرية المؤدية الى مصر . والطريق الآخر ، هو استرضاء المصريين قدر الطاقة وتفادى الاقدام على ما قد يستنفرهم منه مما يؤدى الى زعزعة مركزه قبل أن يشتد ساعده ويدعم مركزه بمساندة القوات الاجنبية له .

ومما لاشك فيه : (١) أن بناء قوات بطلميوس واستيلائه على الملحقات الطبيعية لمصر والسيطرة على الطرق البحرية المؤدية اليها لم تقتض تكاليف طائلة فحسب بل أيضا فترة من الوقت غير قصيرة . (٢) أن منف بموقعها الداخلي وبتحصيناتها القوية كانت أكثر أمنا من الاسكندرية الواقعة على شاطىء البحر ، قبل تحصينها بأسوار منيعة وتأمين سلامتها بقوات بحرية كبيرة . (٣) أن قيام بطلميوس بنقل عاصمته سريعا من مدينة منف المصرية العريقة الى مدينة الاسكندرية الاغريقية الحديثة ، بما ينطوى عليه ذلك من جرح مشاعر المصريين ، كان لايتمشى مع السياسة التي اضطرته ظروفه الى اتباعها في بداية عهده ، وهي سياسة استرضاء المصريين ، لكي يجنحوا الى الهدوء والسكينة وينصرفوا الى استغلال موارد البلاد الاقتصادية ، وما كان أحوج بطلميوس عندئذ الى استتباب الأحوال في البلاد والى الحصول على أكبر قدر ممكن من الأموال .

وفي ضوء هذه الاعتبارات لعله لايكون من الاسراف في الرأى القول بأن

سبب تلك الدعاية السياسية التى انطوت عليها محتويات نصب الوالى كان نقل العاصمة من منف الى الاسكندرية وهو الأمر الذى رأينا كيف أن خبر اعلانه شفع بالتلويح بحكمة بطلميوس وبراعته القتالية وضخامة قواته العسكرية وروعة انتصاراته الخارجية ، وغلف بمظاهر عطفه على الديانة المصرية وباظهار أنه من طراز يماثل طراز الزعيم الوطنى خباش ويختلف كل الاختلاف عن طراز ملوك الفرس ، أى أن خبر اعلان انتقال العاصمة الى الاسكندرية غلف على نحو ما يغلف قرص دواء مر المذاق بطبقة من السكر ليستسيغ المريض تعاطيها . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان أول عملة سكها مؤسس أسرة البطالمة وتحمل نقشا مؤداه « عملة اسكندرية فى عهد بطلميوس » (Alexandreion Ptolemaiou) ترجع الى عام ٣١٢ / ٣١١ [1] . وتبعا لذلك فانه فى ضوء معلوماتنا الحالية لانستبعد أن بطلميوس لم يتخذ الاسكندرية عاصمة له الا فى عام ٣١٢ / ٣١١ بعد الانتصار الباهر الذى أحرزه عند غزة فى حملة ذلك العام ، وأفضى الى استعادته جوف سوريا وكذلك الى استعادة سلوقس ولاية بابل ، حيث أصبح شوكة غليظة فى جانب انتيجونوس وهو الذى كان أكبر خطر يتهدد بطلميوس منذ عام ٣١٦ .

يتضح من هذا النظام اذن أن البطالمة لم يتوسعوا فى انشاء المدن اليونانية المستقلة فى مصر ، ولم يكن ذلك مستغربا لأنهم أخذوا بمبدأ حكم مصر حكما مستقلا ملكيا مطلقا مما قد يتعارض مع وجود المدن المستقلة بكثرة . ومع ذلك فان المدن الثلاث التى لدينا عنها بعض المعلومات تحت

(1) Svoronos, Ta Nomismata tou Kratou ton ptolemaion, II, no. 32 III, Pin. II, 10 - 11 ; Fraser, II, p. 11 .

حكمهم لم تكن مستقلة بالمعنى الصحيح فرغم تمتعوا بمظاهر نظم الحكم المحلى ، الا أن الملوك البطالمة مارسوا سلطانا قويا مكنهم ان يجعلوا هذه المدن تسير على نحو يتفق وسياسة البطالمة فى الحكم المركزى المطلق .

أما عن نظم هذه المدن ، فكان لكل منها هيئة من الموظفين يتمعتون بمواطنه المدينة . وفى الاسكندرية وبطلمية أنفسهم السكان الى قبائل واحياء حسب النظام الآتينى كما كان لكل مدينة نظمها السياسية الخاصة يتمتع المواطنون فقد يحق ممارستها دون سائر الاهالى فلكل مدينة هيئة من الموظفين أو الحكام ينتخبهم المواطنون من انفسهم ، والى جانب الموظفين وجد مجلس الشيوخ يسمى بولى ، وجميعة تضم المواطنين جميعا وسميت اكليزيا . وعن طريق هؤلاء الموظفين وتلك المجالس التشريعية كانت كل مدينة تدبر شئونها بنفسها . واهم واجبات المسئولين فى المدينة هى التربية والتعليم والتموين .

وكان للمدينة اليونانية فوق ذلك قانونها ومحاكمها الخاصة بها ، وتثبت وثائق القرن الثالث ق.م أن مدينة الاسكندرية تمتعت بمثل هذا القانون وتلك المحاكم . ولابد أن المدن الاخرى كان بها نظامها القضائى ايضا ولكنها لم تكن جادة فى سن قوانينها وتنظيم قضائها كما يتراءى لها ، بل كانت هذه القوانين والنظم تصدر عن الملك شخصيا ودونه ان يكون للمدن أى اختيار .

ومما تمتعت به هذه المدن أيضا أن كل مدينة اقطعت بواسطة الملوك مساحة من الأرض الحقت بها ، ويتمتع المواطنون بحق امتلاكها وكانت

هذه الأرض أهم مصدر لميزانية المدينة .

هذه أهم مظاهر الحياة المدنية فى عصر البطالمة ورغم سلطان الملوك القوى والقيود الكثيرة التى فرضت على المدن بحيث جعلت فكرة المدينة اليونانية ظاهرية فقط لامعنى لها فى الواقع ، كان مواطنو هذه المدن شديدى الاعتزاز بالانتماء اليها ، وكانوا يعتبرون ذلك شرفا يفوق منزلة سائر اهالى مصر الذين كانوا رعايا مباشرين للملك .

وما من شك ان مدينـة الاسكندرية كانت أهم هذه المدن جميعا ، وذلك للظروف المختلفة التى جـعلت منـها عاصـمة الدولة وأكبر مركز تجارى وصناعى فى العالم وزاد من اهميتها ومجدها وجود المكتبة والموسيون بها . وقد اهتم الملوك بالاسكندرية واسبغوا على مواطنيها الكثير من الامتيازات حتى اصبحوا فى واقع الأمر أرقى واغنى طبقة بين سكان مصر جميعا .

الديانـة الجديـــدة :

احتل الدين مكانة كبيرة فى المجتمع المصرى القديم ، وكان لابد ان يوليه البطالمة عناية خاصة نظرا لتعقد تكوين المجتمع المصرى فى ذلك الوقت فهناك المصريون بعقائدهم وتقاليدهم القديمة الموروثة ، وهناك أيضا الاغريق بآلهتـهم وعاداتهم الدينية المختلفة ثم العقـائد الدينية الاخرى التى عرفت طريقها الى مصر فى العصر الفارسى السابق .

ونجد أن السياسة البطلمية الدينية كانت تدور حول محاور ثلاثة وهى : اقامة عبادة الملوك للاسكندر ولاتفهم من بعده، استحالة واسترضاء المشاعر الدينية لدى القسمين الاساسيين فى المجتمع وهما المصريون والاغريق واخيرا اتخاذ اله جديد لدولتهم وهو الاله سيرابيس .

لقد نشأت عبادة الملوك في عصر بطليموس الاول . وقد ابتدأت بتقديس الاسكندر رسميا وعين له كاهن خاص تؤرخ باسمه الوثائق الرسمية فى حين أصبح الاسكندر ملكا لمصر صار فى نظر المصريين ملكا موالها وابنا للاله امون رع .

وكذلك بطلميوس وسلالته ، وقد اصبحت عبادة الاسكندر عبادة رسمية فى الدولة وشملت هذه العبادة الرسمية الملك بطلميوس فيما بعد . ولكن هذا التقديس لم يأخذ الصفة الرسمية فى مصر طيلة حياته ، ولكن بعد وفاته اعلن الملك بطلميوس الثانى تأليه والديه تحت لقب الالهية المنقذين .

واصبحا يعبدان مع الاسكندر . وهكذا انشأت عبادة ملوك البطالمة بصورة رسمية وأصبحت بعد ذلك عبادة الملوك شيئا طبيعيا مع حدوث بعض التغيير وهو عبادتهم فى حياتهم وليس بعد وفاتهم . ولقد وجدنا تأكيدا لهذه العبادة وتدعيما لها ولانتشارها ان هؤلاء الملوك المؤهلين حرصوا على تصوير انفسهم على العملة مع كتابة النقوش الدالة على تأليهم عليها .

أما ثانى هذه المحاور فهو استعماله واسترضاء المشاعر الدينية عند كل من المصريين والاغريق . بالنسبة للمصريين فنجد احترام للالهة والديانة المصرية عن طريق الاحتفالات التى اقامها البطالمة للالهة المصرية واعادة التماثيل والكتب المقدسة الخاصة بالمعابد المصرية التى كان الفرس قد استولوا عليها. كذلك بناء البطالمة المعابد للالهة المصرية . أما بالنسبة للاغريق فان البطالمة اهتموا بانشاء علاقات قوية بينهم وبين أهم مراكز العبادة

في بلاد الاغـريق عن طـريق ايـفاد بعـثات للاشـتراك في الحفلات الدينية وتقديم القرابين لهذه الالهة واقامة حفلات دينية للالهة الاغريقية مع اظهـار اسمى صـور التكريم وكذلك انشـاء المعـابد الاغريقية في انحاء مصر .

أما المحـور الثـالث فـقـد كـان اتخـاذ اله جـديد للـدولة الطلمـيـة هو الآله سيرابيس . ويحدثنا بلوتارخ [1] بأن بطلمـيـوس الأول كـون لجنة من علماء الدين من بين اعضائها الكاهن المثرى مانيثون والكاهن الاغريقى تيموتيوس. وقد استقر رأى اللجنة على ديانة جديدة تتألف من سيرابيس وهو كبير الالهة – وايزيس وهاريوكراتيس ، كما قامت اللجنة بتنظيم شئون هذه الديانة.

وترجع نشـأة العـبادة الجـديدة الى آله مـصرى في مدينــة منـف وهـو اوزير جابى الـذى يمـثل ما يعـرف بعجل الاله حابى (اوابيس) عند موته ولـتحاده بالاله اوزيريس . وحيث أن عبادة هذا الاله في منف كانت قد شاعت بين العنـاصر الاجـنبية وخاصة اليونانية المستقرة في المدينة من قبل الاسكندر حين تقرر ان يصبح اوزيرحـابى هو الاله الرسـمى الجديد للدولة البطلميـة ، واتخاذ الاسكندرية مركـزا جديد له ، تقرر ايضا ادخال بعض التـعديلات على شخـصية وملامحه ليصبح مقبولا لدى الاغريق .

(1) Plutarch, De Jsi. et os. 28 .

وقد استقر الرأى على أن يصبح هذا المعبود المصرى الاغريقى سيرابيس [1] حاملا لصفات الاله المصرى اوزيرحابى ولكن فى هيئة تشبه الاله زيوس . أى تمثيله فى صورة انسانية لابد من صورة العجل ، ذلك لأن الاغريق عموما لم يألفوا عادات المصريين فى تمثيل آلهتهم فى صورة حيوانية وكان الاغريق يقيمون له طبقا اغريقية بينما ظل المصريون الذين لم يروا فيه سوى الههم - اوزيرابيس (العجل ابيس) فقد ظل بالنسبة لهم الها مصريا صميما فى شكله وصفاته وطقوسه . وان اشتراك المصريين والاغريق فى عبادة هذا الاله يعد فى حد ذاته شاهدا على مهارة بطلميوس الأول فى استخدام هذه العبادة للربط بينهم .

وقد أصبح معبد سيرابيس فى الاسكندرية هو المعبد الرئيسى لهذه العبادة ومركزا لاشعاعها الى بلدان البحر الابيض المتوسط . ووجد معبد آخر فى

---

(١) اختلفت الاراء حول أصل سيرابيس ، وزاد ذلك من الغموض الذى احاط به وربما كان هذا الغموض هو الذى أعطاه قوة .

Bevan, op. cit. 48 - 47 .

- وقد ظل الاصل الذى اشتقت منه هذه العبادة محل نقاش وخلاف كبيرين ففى كتابات المؤرخين القدماء ان بطليموس الاول يرجع أصل العبادة الى مصدر أسيوى وفى اخر فان سيرابيس يرجع الى أصل بابلى .

منف[1] وسرعان ما خلعت على الاله الجديد الصفحات الالهية المتعددة . فهو الاله المنقذ واله الشفاء والخصب والحياة التأنية .

ولم تلبث هذه العبادة ان انتشرت خارج مصر بشكل واضح . وقد أثر هذا الانتشار الى حد أن أصبح سيرابيس هو الاله الذى يرعى الامبراطورية البطلمية وكان ظهور هذا الاله خارج مصر بشكل نجاحا كبيرا للبطالمة وبعظيم هيبة من شأنها تدعيم مركز هؤلاء الحكام . فى المجال الدولى ، بل يؤكد لنا المؤرخ « بل »[2] ان الهدف الاساسى من نشر هذه العبادة كان لاستخدامه فى المجال الدعائى الدولى .

ويمكننا اخيرا أن نضيف ان الاله سيرابيس ظل نحو قرن ونصف تقريبا من تاريخ الدولة البطلمية الها رسميا لكنه بعيد عن قلوب المصريين ومشاعرهم الدينية حتى اذا كان النصف الأخير من العصر البطلمى وجدنا هذا الاله يزداد شعبية تدريجيا ويصبح فى العصر الرومانى أهم الالهة المصرية جميعا واشهرها ويبدوا أن هذا التحول فى شعبية سيرابيس لم يحدث الا بعد ان استعاذ شخصيته المصرية فى معبد الاسكندرية واقيمت له فى المعبز تماثيل على هيئة العجل ، وأكبر دليل على صحة هذا التفسير هو عثورنا على

---

(١) من خلال مجموعة كبيرة من الوثائق البردية التى عثر عليها فى معبد سيرابيس أو السيرابيون بجوار منف يتضح تأثير هذا المعبد الظيم على الحياة الاجتماعية للمدينة فقد كان هذا المعبد بمثابة مركز ادارى كبير . وظهر به نوع من التصوف الدينى داخل المعبد . وكذلك وجدت به أيضا مجموعات أحدى كثيرة لجأت الى معبد للاحتماء به من ظروف الحياة الصعبة ومن هؤلاء بطليموس الناسك الاغريقى ، والتوأمان اللتان عذبتهما زوجة الاب ، وهيرافليها التى حاولت ان تحمى نفسها من العبودية لجأت الى حماية الاله والمجرمون الهاربون من السجن وآخرون - هاربون مع دفع الضرائب وضمن أخرى كثيرة انظر هذه الوثائق فى U.P.Z.T. .

(2) Bell, Egypt, p.40 .

تمثال كامل من الجرانيت الاسود للعجل أبيس فى موقع معبد السيرابيوم بجوار عمود السوارى"(١)

سياسة البطالمة الدينية :

لقد عرفنا كيف كان البطالمة يعتبرون أنفسهم سادة مصر بحق الفتح ، لكن لكى يكون سلطانهم دائما وسيادتهم راسخة رأوا أن يقيموا حكمهم كذلك على حق الملوك الالهى ، وأن يحترموا المعتقدات الدينية السائدة بين كافة رعاياهم ولذلك كان التسامح الدينى أبرز ما تتصف به سياسة البطالمة الدينية بوجه عام .

١ - اتخاذ صفات الفراعنة :

لما كان المصريون يعتبرون فرعون واهب النعم والحياة ومالك الأرض والسيد المطلق . فقد كان من الأفضل أن يتخذ البطالمة صفات الفراعنة ، ليتمتعوا بمكانتهم العظيمة وسلطاتهم الشاملة المطلقة ، ويكسبوا ولاء المصريين ويصبغوا مركزهم بصبغة شرعية . ولاسيما أن الاسكندر الأكبر كان قد رسم نفسه فرعونا فى منف ، وحمل ثلاثة من الألقاب الخمسة التى درج الفراعنة على حملها .

وقد اتخذ البطالمة صفات الفراعنة بالتدريج . فقد حمل بطلميوس الأول بعض القاب الفراعنة التقليدية ، وأن بطلميوس الثانى والثالث قد حملا هذه الألقاب جميعا .

ويستخلص من القرار الذى أصدره الكهنة فى منف عقب موقعة رفح أن

---
(1) Breccia, Aleandria ad Aegyptum.

بطلميوس الرابع قد ذهب الى مدى أبعد من أسلافه في التشبه بالفراعنة ، فهو لم يكتف بحمل كافة القلب الفراعنة التقليدية بل أنه توج أيضا على نهج الفراعنة القدماء ، فكان بذلك أول ملك من ملوك البطالمة اتخذ صفات الفراعنة كاملة . وقد كان طبيعيا أن يقتفى سائر البطالمة المتأخرين أثر بطلميوس الرابع لأنهم كانوا جميعا ملوكا ضعافا ويعملون على مالاة المصريين .

٢- احترام الديانة المصرية :

وازاء رغبة البطالمة الملحة فى أن يظهروا أمام المصريين فى ثوب الفراعنة الحقيقيين اعترفوا بالديانة المصرية دينا رسميا ، وسمحوا للمصريين بحرية عبادة آلهتهم القديمة . ولكى يثبتوا اجلالهم واحترامهم للديانة المصرية حذوا حذو الفراعنة فى تقديم القرابين للآلهة الوطنية ، ومنح المعابد هبات مالية وعقارية وكذلك حق حماية اللاجئين اليها ، وانشاء المعابد والهياكل أو اصلاحها وزخرفتها ، وتصوير أنفسهم على جدرانها وكذلك على النقود والأحجار الكريمة فى شكل آلهة مصرية .

ان نبوءة مثل نبوءة « صانع الفخار » التى تتحدث عن تحرير الوطن واجلاء الاجانب واعادة العاصمة الى منف واقامة فرعون وطنى لتعتبر تعبيرا بليغا عما كان يجيش فى صدور المصريين من الآلام والأمال وتصور لنا حقيقة مشاعرهم نحو هؤلاء الفراعنة الجدد . وان دلت هذه النبوءة على شيء فهى تدل على أنه مهما أنفق البطالمة من جهد فى الظهور أمام المصريين فى ثوب أسلافهم الفراعنة الوطنيين فان قلوب المصريين لم تطمئن اليهم ولم تعتبرهم فراعنة حقيقيين ولم تر فى الاسكندرية عاصمة للبلاد .

وفلاعجب، أن كان المصريون يتوفون الى فرعون وطنى يقيم فى عاصمة وطنية بعد أن يحرر الوطن من معتصبيه الأجانب .

٣- موقف البطالمة من الكهنة المصريين :

كان رجال الدين المصريين يحتلون مركزا رفيعا وأهمية خطيرة فى حياة البلاد ، يحسب الملوك حسابهم ويعتبرهم الأهالى مرشديهم ، وزعماءهم الروحيين ، يستمعون الى نصحهم وينزلون على ارادتهم . وازاء ذلك استقر رأى البطالمة على أن يتخذوا منهم أداة لنشر الهدوء والسكينة فى البلاد ، وذلك فانهم حين أظهروا اجلالهم واحترامهم للديانة المصرية استنوا من النظم ما يكفل تقليم أظافر رجال الدين وخضوعهم لهم . وقد كان العامل المادى من أهم الوسائل التى لجأ اليها للحصول على طاعة القساوسة فانهم اسندوا ادارة أراضى المعابد الى الحكومة ، واستولوا على دخل الضريبة التى كانت المعابد تجبيها من زارعى الكروم والفاكهه والبقول ، والغوا احتكار المعابد وصناعتى الزيت ونسج الكتان لكى يقللوا من قسوة الكهنة ويبسطوا لهم ايديهم أو يكفوها تبعا لموقف الكهنة منهم .

ويبين أن تضييق الخناق على الكهنة قد زج بهم فى صفوف الثوار مما حدا بالبطالمة الأواخر الى محاولة كسب ود الكهنة بشتى الوسائل . ومع ذلك يبدو من تجويد المنح للكهنة فى عهود مختلفة بل فى العهد الواحد نفسه أن الكهنة لم يفلحوا فى استرداد كل حقوقهم وامتيازاتهم السابقة التى كان البطالمة الأوائل قد سلبوها اياها . وذلك لأنه عندما ضعفت السلطة المركزية وفسدت الاداة الحكومية كثيرا ما عجزت السلطة المركزية عن حمل الموظفين على تنفيذ قراراتها .

ويبدو أن الكهنة قد انقسموا فرقا وأشياعا ازاء سياسة البطالمة نحوهم ، اذ حين كانت العلاقات متوترة بين البطالمة وكهنة آمون فى طيبة كانت العلاقات حسنة بين البطالمة ومنافسى اولئك الكهنة ولاسيما كهنة منف .

٤ – احترام الديانة الاغريقية :

وقد كان البطالمة مثل غيرهم من المقدونيين اغريقا فى كل نواحى حياتهم ، فى ثقافتهم وديانتهم والى حد كبير فى أسمائهم ، بل أنهم ادعوا أنهم من سلالة الآلهة الاغريقية . وازاء عواطفهم الدينية وأصلهم السماوى الاغريقى وتعاليمهم الاغريقية ، كان طبيعيا أن يظهروا احترامهم للديانة الاغريقية ويعترفوا بها ديانة رسمية فى دولتهم .

وفضلا عن كل ذلك كان يوجد دافع سياسى له وزن كبير فى نظر البطالمة ، فقد كانوا فى حاجة الى رجال رؤوس أموال من بلاد الاغريق لتحقيق مشروعاتهم الخارجية والداخلية . ولذلك كان يتعين عليهم كسب عطف الاغريق ، بأن يظهروا أمامهم فى ثوب حماة الحضارة الاغريقية ، وان يثبتوا للملأ أجمع اجلالهم للديانة الاغريقية . فلم يكتف البطالمة بالاعتراف بالديانة الاغريقية دينا رسميا فى مصر بل ادخلوا عليه شتى مظاهر العطف ، فشيدوا المعابد لآلهتها ، ومنحوا الضياع لمعابدها ، وأباحوا للاغريق حرية اقامة شعائرها ، واقاموا صلات وثيقة مع أشهر مراكز العبادة فى بلاد الاغريق . وأنشئوا حفلات دينية على نمط الحفلات الدينية الأوليمبية أو الحفلات الآثينية .

وكانت أهم هذه الحفلات حفلات البطلوليمايا التى أنشأها بطلميوس الثانى تخليداً لذكرى أبيه المؤلة .

٥- الاغريق والديانة المصرية :

وقد كان الاغريق ينظرون الى الديانة المصرية نظرة اجلال واحترام بسبب قدم عهدها وغموض اسرارها . ودرج الاغريق على تشبيه الآلهه المصرية بالآلهة الاغريقية . لكن مما لاشك فيه أن هذا التشبيه لم يكن الا تشبيها سطحيا لم ينفذ الى اعماق عواطف الاغريق الدينية بحيث تحتل الآلهة المصرية مكان الآلهة الاغريقية . ولذلك نجد أن الاسكندر الأكبر والبطالمة شيدوا معابد مختلفة لكل من آلهه الاغريق والهة المصريين وتشير القرائن الى أن اغريق مصر سواء أكانوا ينزلون فى مدن مصر الاغريقية أم فى خارج تلك المدن قد استمسكوا بعبادة آلهتهم القديمة ، زيوس وهيرا وديمتر وأفروديتى وغيرها ، ولعله قد ساعد على استمساك الاغريق بآلهتهم ، وعدم اقبالهم بوجه عام على الآلهة المصرية تصوير هذه الآلهة فى اشكال تبعد عن تصورهم لما يجب أن يتوافر فى صور الآلهة من صفات توائم مكانتها الرفيعة ومع ذلك فان بعض الاغريق ، نتيجة لتلك التشبيهات ، وباعتبارهم نزلاء فى تلك البلاد التى تتمتع بحماية هذه الآلهة ، رأوا من الفطنة كسب عطف هذه الآلهة .

ولذلك فانهم عبدوا بعض الآلهة المصرية تحت اسماء اغريقية ، كما عبدوا أيضا بعضها الآخر بأسمائها المصرية ، حين لم تكن لها مرادفات بين آلهتهم ، لكنها كانت تتمتع بمحبة كبيرة بين المصريين استرعت أنظار الاغريق .

ولايبعد أن تعبد فريق من الاغريق للآلهة المصرية على هذا النحو ادى الى مزج بعض الآراء الدينية الاغريقية بالآراء الدينية المصرية .

واذا كان بعض الاغريق عبدوا الآلهة المصرية ، الا أنهم لم ينقطعوا عن عبادة الآلهة الاغريقية .

ومن ناحية أخرى استمسك المصريون على الدوام بدياناتهم ، التي كانوا يفاخرون بها ويعتبرون المذاهب الاغريقية بصورة متقدمة لها ، لكنها حديثة العهد ويشوبها كثير من النقص الى حد يستنفر مشاعرهم ضد اتباعها ، فلاعجب انه لم يقم دليل واحد على أن الديانة الاغريقية استهوت ولو عددا قليلا من المصريين .

٦- ديانة سيرابيس (الديانة الجديدة) :

لما كان بطلميوس الأول يعتقد أن ثروة مصر تتوقف على مساهمة المصريين والاغريق معا فى العمل على تقدم مرافق البلاد الاقتصادية ، وان استمرار النفور الدينى الذى كان هيرودوت قد لاحظه من قبل لابد أن يعوق الألفة بين الفريقين ، فانه رأى من الضرورى أن يؤلف بين قلوبهما .

بانشاء ديانة جديدة تكون رابطة وحدة ووئام بين الاغريق والمصريين عندما يشتركون جميعا فى التعبد الى آلهتها ، وبذلك يدركون أنهم يتعبدون الى نفس الآلهة وانما كل فريق منهم على النحو الذى كان يألفه - ولابد من أن بطلميوس كان يدرك أن تحقيق هدفه كان يتوقف على نجاح الديانة الجديدة فى أن تخلف ديانة المصريين والاغريق وهذا يفسر ذلك الاهتمام الكبير الذى وجهه هو وسلالته الى الديانة الجديدة .

ويحدثنا بلوتارك أن بطلميوس الأول كون لجنة من علماء الدين المصريين والاغريق لتنفيذ فكرته . وقد استقر رأى اللجنة على أن يكون محور الديانة الجديدة ثالثوا يتألف من سيرابيس وزوجه ايزيس وابنهما هاربو كراتس ويتفق الجميع على أن ايزيس وهاربوكراتس كانا الهين مصريين . أما سيرابيس كبير آلهه الثالث ، فقد تضاربت الآراء حول أصله، لكن الرأى السائد أنه كان الاله المصرى أوربوس أبيس ، آله العالم الآخر في منف . وعلى كل حال، فان آلهة الثالوث قدمت للاغريق في شكل اغريقى وللمصريين فى شكل مصرى يبدو التباين بينهما فى أجلى صورة فى حالة سيرابيس الذى قدم للاغريق فى شكل رجل كهل يشبه عن قرب الاله زيوس وأغدقت عليه كثير من صفات الآلهة الاغريقية ، على حين عبده المصريون فى شكل العجل أبيس ، وكان يعرف بعد وفاته باسم اوزيريس أبيس .

واذا كان بطلميوس الأول هو الذى أنشأ عبادة سيرابيس ، فان الأدلة الاثرية تثبت أن بطلميوس الثالث هو الذى شيد المعبد الكبير الذى اقيم لهذا الاله فى حى راقوده بالاسكندرية على ذلك التل الذى لايزال قائما حتى اليوم فى حى كرموز . وقد ذات شهرة مبانى هذا المعبد بما كانت تتضمنه من مكتبة وأروقة تقوم فيها الأعمدة والتماثيل ويؤدى اليها سلم كبير يتألف من مائة درجة .

وقد نجحت الديانة الجديدة ، وفازت بعدد كبير من الأتباع وانتشرت ليس فى مصر فقط بل انتشرت فى أجاء البحر الأبيض المتوسط ، ثم تخطت نطاقه ووصلت شرقا حتى الهند وغربا حتى بريطانيا - لكن النجاح الحقيقى

لهذه العبادة يجب أن يقاس بمقدار ما أفلحت فى تأدية الغرض المنشود من اقامتها . فهل حققت هذا الغرض ؟ ان المصريين عبدوا آلهة الثالوث المقدس . ولكن فى ثوبها المصرى واباعتبارها فى عداد الآلهة التى ظلوا على ولائهم لها ، ولم تصبح يوما آلهة هذا الثالوث الآلهة الوحيدة التى يتعبد المصريون اليها . وكذلك اعتنق الاغريق ديانة هذا الثالوث فقد قدمت لهم آلهته فى ثوب اغريقى على أنها نظيرة لآلهتهم الاغريقية .

ومع ذلك وبرغم ما أظهره الاغريق لآلهة الثالوث المقدس من رعاية واحترام فانهم لم ينصرفوا الى عابدتها دون غيرها ، بل ان هذه الألة لم تحتل المكان الاول فى عبادتهم . وآية ذلك أنهم حيثما كانوا ينزلون فى كثرة ، سواء فى مدن مصر الاغريقية أم فى خارجها ، كانوا يقيمون المعابد لآلهتهم الاغريقية . ويكاد يكون من المحقق ان الديانة الحقيقية للاغريق طوال عصر البطالمة كانت الى حد عبادة آلهة المدن التى أتوا منها ، والى حد كبير عبادة المذاهب ذات الاسرار التى كانت معروفة فى بلاد الاغريق وبين اغريق آسيا وانتشرت بعد ذلك فى كل أنحاء العالم الاغريقى . مثل مذهب ديمتر ومذهب ادونيس . ومذهب ديونيسيوس .

ولاشك فى أن الديانة الجديدة قد تمتعت بمكانة كبيرة لكن لما كانت تلك المكانة نتيجة لايحاء الحكومة وكانت تلك الديانة ديانة مفتعلة ، وكان البطالمة قد أباحوا لسائر رعاياهم حرية العبادة ، وكانت الديانة الحقيقية لكل من المصريين والاغريق هى الديانة التى كان يألفها كل من الفريقين .

امتزاج الآلهة

لكي نفهم مغزى سياسة البطالمة الدينية ازاء المصريين والاغريق ، ولماذا عمل البطالمة على استغلال معتقدات المصريين الدينية في دعم مركزهم ، ووضع أساسي السلطة المركزية في مصر ، يجب أن ندرك ان مصر القديمة كانت تعتبر بتقاليدها المتوارثة التي تنظم حياتها العامة والخاصة . وان الاحتفاظ بهذه التقاليد يرجع الى سيطرة الديانة على عقول المصريين القدماء، فكان لها أثر وأي أثر في حياتهم . وقد كانت الديانة في مصر المصدر الذي استمد منه حكام البلاد سلطتهم .

وازاء حاجة البطالمة الملحة الى الاغريق في كل مشروعاتهم فان ملوك مصر الجدد فتحوا أبوابها على مصراعيها للاغريق .

ولاريب في أن مصر قد غدت منذ الفتح المقدوني مملكة هيلينستية ، الا أنها كانت وقبل كل شيء بلدا يعتز بحضارته الفرعونية ونظمه الموروثة . واذا كان البطالمة قد شملوا الاغريق بعطفهم ، فقد كان لزاما عليهم الا يهملوا وألا يغفلوا المصريين ، وكي يفوزوا بولاء العناصر المختلفة ، لجئوا الى وسائل كثيرة في مقدمتها بل وأهمها استغلال المعتقدات الدينية السائدة بين رعاياهم .

هذا الى جانب ان البطالمة رغم كونهم مقدونيين ، الا أنهم كانوا اغريقا في كل نواحي حياتهم ، فقد كانوا اغريقا في ثقافتهم وديانتهم .

وكان شعورهم الديني باعثا على اظهار احترامهم للديانة الاغريقية الى جانب الديانة المصرية . هذا بالاضافة الى باعث سياسي آخر ، ذلك ان

البطالمة كانوا يتطلعون الى لعب الدور الأول فى عالم بحر ايجه ، الذى كان مليئا بالاغريق . ولذلك كانوا دائما فى حاجة ملحة الى الأغريق لتحقيق مشروعاتهم الخارجية والداخلية .

ومن هنا ندرك أن كان للبطالمة سياسة دينية خاصة ازاء تلك العناصر سواء كان منها العناصر الوطنية أو العناصر الاجنبية الأخرى ، تمخضت فى النهاية الى ظهور الاله الجديد ذى الأصل الحضارى المزدوج ، الاله سرابيس فى مدينة منف ، وما تبعه بالضرورة ، من تشبيهات أخرى كثيرة بين الالهة المصرية واليونانية ، وجدت طريقها فى مبنى السيرابيون العظيم بجوار منف

يقول بعض المؤرخين [1] ، ان الاسكندر الاكبر لعب دورا قياديا فى خلق العبادة الجديدة والاله الجديد سرابيس ، فانه حينما دخل مصر ذهب الى منف لتقديم القرابين للآلهة المصرية والاله آبيس .

ولكن رغم ذلك من الصعب جدا ان نساند هذا الرأى القائل بأن الاسكندر لعب دورا قياديا فى خلق هذه الديانة الجديدة

(1) Otto, Priester und Tempel II p. 261 .

والاله الجديد . ذلك لأن تمثالا لآبيس من البرونز [1] عثر عليه فى الدلتا، موضوعا على قاعدة يحوى نقشا دوريا اهداء الى Πανάε من عمل سوكيديدس ، ولعل تاريخه يرجع الى الفترة المبكرة للقرن الخامس ق . م . ، يوضح ان الاستقرار الاغريقى المبكر فى مصر ساعدهم على أن يألفوا عبادة العجل المقدس أبيس . ولذلك فأنه من الطبيعى أيضا أن يألف الاغريق عبادة العجل المقدس بعد مماته ليصبح اوزيرابيس ، قبل الفترة البطلمية أو على الأقل قبل تأسيس عبادة سرابوس ووصول الاسكندر

*

أن بردية تحوى لعنة أرتميزيا [2] ابنة أمازيس على والد ابنتها المتوفاة ، وتاريخها يرجع الى نهاية القرن الرابع [3] ق . م . توضح هذه النظرية .

ان دعوة ارتميزيا – التى سبقت الاشارة اليها – موجهة ليس الى سرابيس ولكن الى أوزيرابيس والآلهه التى تجلس معه .

---

(1) Fraser, Ptol. Alex., ch. 5 . p. 250. n. 473: Jeffery Archaic Scripts, p. 355.1

يذكر فيلكن ان تفسير اسم Ἆπις يعتريه الشك لكن على أى حال فان التمثال البرونزى يوضح عبادة يونانية للاله أبيس فى القرن السادس ق . م .

U.P.Z.I. p. 25;

Cults. & (2) U.P.Z.I. 1 (IV cent B.c.), s. B. 5103. H.I. Bell, Creeds, pp. 3-4

(3) Fraser, Ptol. Alex., Ch.5. n. 474. U.p.z. I., pp. 97-8

ان هذه السيدة التى تدعى ارتميزيا كانت من أصل يونانى ومن بين اللذين يدعون هيلينوممفيتس أو كاروممفيتس ، وهم من نسل الجنود المرتزقة اللذين أحضرهم ابسماتيك الأول ، ومنذ عصر أمازيس وهم مستقرون فى منف "[1] .

ورغم أنها يونانية الا أنها توجهت بالدعاء الى الاله اوزيرابيس المصرى . وفى هذا أقوى دليل على أن الاغريق الفوا عبادة العجل المقدس أوزيرابيس قبل الفترة البطلمية وقبل تأسيس عبادة سرابيس ووصول الاسكندر .

على أى الأحوال لقد نسب القدماء خلق الاله الجديد الى بطلميوس سوتر . ويبدو أن بطليموس انشأ هذه العبادة ليبرر سلطته المطلقة فى نظر رعاياه الاغريق ، لأنه باعتباره خليفة للاسكندر فى حكم مصر ، تصبح سلطته ، بعد تأليه الاسكندر ، مستمدة من مصدر الهى . ويضيف أوتو[2] أنه أراد أن يوحد بين قلوب المصريين واليونانيين . ولتوضيح المعقول الذى يقوله فريزر هو أن سوتر فى خلقه للعبادة الجديدة كان يهدف الى اعطاء

(1) Diod. 1. 67 :
(2) Fraser, Ptol. Alex., p. 252: .

العنصر اليونانى الها حاميا وهذا ما كانوا يفتقدونه [1] .

ان خلق العبادة الجديدة بالنسبة لاغريق مصر يجب ألا يجعلنا نتخطى حقيقة هامة ، وهى أن اليونانيين قد اصبحوا في ذلك الوقت أساسا جوهريا في ولاية مصر ، فكان لابد وأن يكونوا أيضا اساسا جوهريا فى طبيعة هذا الاله الجديد .

واذا ما وضعنا فى اعتبارنا ان للمصريين ديانة موروثة راسخة القدم ، والاغريق احضروا معهم ديانتهم ومذاهبهم ، الا أن الاغريق درجوا منذ عهد هيرودوت على تشبيه الآلهة المصرية بالآلهة الاغريقية [2] . فلقد تركت الديانة المصرية فى نفوس الاغريق أثرا واضحا بسبب قدم عهدها وغموض أسرارها . هذا بالاضافة الى أن الاغريق درجوا على اظهار اجلالهم لآلهة البلاد الاجنبية التى يزورونها [3] .

وهنا يجب أن نوضح – من خلال ما أمكن العثور عليه من نصوص – أصل الاله الجديد [4] وعبادته فى سيرابيون منف ، وأى علاقة نشأت بينه وبين اوزيريس أبيس المصرى . وهل سرابيس اتى من خارج البلاد أو أنه خلق

(1) Fraser, Ptol. Alex., p. 252. H.I. Bell. Cults & Creeds, p. 15;

(2) Herod. II. 42, 123, 144;

(3)H.I. Bell, Cults & Creeds, p. 9;

(٤) ظل الأصل الذى استقت منه هذه العبارة محل نقاش وخلاف كبيرين ففى كتابات المؤرخون القدماء ان بطلميوس الاول هو الذى احضر التمثال وهذه العبادة من سينوبى . وربما كان ذلك باعثا الى تطرق البحث عن مصدر اسيوى ترجع اليه هذه العبادة . وفى قول آخر فان سرابيس كان هو الاله البابلى شاريسى U.P.Z.I. pp. 77.ff. ولكن الابحاث الطويلة التى قدمها فيلكن اثبتت غير ذلك

U.P.Z.I. pp. 25-29;.

من اوزيريس أبيس فى منف أو أنه خلق جديد ، ثم قد تسأل لماذا وكيف اختير اله منف ليكون أصل الاله الجديد ؟ .

عندما فتح الاسكندر مصر اكتسبت مذاهب منف أهمية عظيمة بين الناس ، فاذا أريد اقامة ديانة جديدة على أسس قوية ، كان لابد من اختيار معبود هذه الديانة من بين الهه منف . ثم أن منف كانت مركزا من أهم واكبر المراكز الدينية فى مصر وعاصمة المملكة القديمة ، لذلك كان اله منف مناسبا ليحتل هذه المنزلة .

ويذكر تاكيتوس [1] انه فى رأى بعض الناس أن العبادة خلقت فى منف ونقلت الى الاسكندرية بواسطة بوارجتيس الأول. وهذا الرأى يحوى فى معناه حقيقة ان سرابيس يدين بأصله الى عبادة منف .

كان العجل أبيس الحى المقدس فى منف ، يوضع فى هيكل فى المدينة يدعى أبيون Apeum ويتصل بمعبد بتاح ، وكان يقرن أحيانا فى حياته بالاله بتاح الاله المحلى لمدينة منف [2] . وعند وفاته يشبه أوزوريس ويصبح اوزيريس آبيس أو أوزيرابيس ، ويعبد فى المعبد الجنائزى ، السيرابيون بالقرب من منف . وكانت كل مصر تشترك فى الحداد عليه الذى يدوم سبعين يوما [3] . وتقوم بالعويل والبكاء والقريب من الجثة فى منف تؤاما منف

---

(1) Fraser, Ptol. Alex., Ch.5. p. 250. n. 447;.. alii auctore m eundem ptolemaeum, sedem ex quatransierit Memplim perhibent, inclutam olim et veteris Aegypti columen.
(2) Ibid., p. 250;
(3) Pliny, N. H. VIII. 71. Diod. I, 84 - 85;

المشهورتان اللتان تمثلان الالهتين الاختين ايزيس ونفتيس [1] .

وفي معبد السيرابيون مكان دفن العجول ، توضع أجسادها المحنطة في دهاليز تحت الأرض ، قام بنائها أمينوفيس الثالث ووسعها أبسماتيك الأول ، وتشمل توابيت حجرية لاعداد كثيرة من العجول المعبودة . وقد استمرت عبادته في الفترة اليونانية والرومانية [2] .

ويعتبر المتعبدون اوزيريس أبيس اله العالم الآخر ، له شكل بشرى لعله كان شكل اوزيريس جالساً على عرش وله رأس عجل [3] . لكن اوزيريس آبيس كان يصور للاغريق في شكل يناسب آراءهم ومعتقداتهم [4] وكما سبق أن ذكرت ، فان اوزيرأبيس كان يتمتع بمكانة كبيرة بين اغريق مصر ، قبل الفتح المقدوني وقبل خلق وتأسيس عبادة سرابيس .

ويرى فيلكن [5] ان سرابيس كان اله العالم الآثار ، الذى يعبد في المعبد المقام فوق مقابر العجول المحنطة بالقرب من منف .

لقد كان اله سيرابيون منف الها مصريا ، الا أنه في أحد هياكل هذا المعبد كان يوجد تمثال لهذا الاله في شكله الاغريقى أى الصورة البشرية التي قدم بها للاغريق لكى يقبلوا على عبادته . وهذا يوضح أن المصريين والاغريق كانوا يعبدون الاله نفسه دائما ، ولكن في صورتين مختلفتين تناسب كل صورة منهما معتقدات كل منهما . أى أن سرابيس كان يعبد

(1) Otto, Priester und Tempel. pp. 116-118;.
(2) Fraser, Ptol. Alex., p. 250;.
(3) Ibid.
(4) Bevan, Egypt, pp. 41-43.
(5) U.P.Z. I. pp. 85 ff.

في شكله الاغريقي أى الصورة البشرية التى قدم بها للاغريق لكى يقبلوا على عبادته . وهذا يوضح ان المصريين والاغريق كانوا يعبدون الاله نفسه دائما ، ولكن في صورتين مختلفتين تناسب كل صورة منهما معتقدات كل منهما . أى أن سرابيس كان يعبد في شكله الاغريقي ، في نفس المعبد الذى يعبد فيه النموذج المصرى الأصلي . وان برديات هذا المعبد التى ترجع الى سيرابيون واحد ، توضح أنها تنتمى الى المعبد المصرى القديم الخاص باوزيريس آبيس [1] .

ولكن رغم ذلك فان ابته [2] يؤكد ان المصريين الاصليين لم يوافقوا موافقة صادقة على سرابوس الذى يحتل الصورة اليونانية للاله أو بمعنى آخر أن هذه الديانة الجديدة لن تجد في نفوسهم صدى صادقا .

ولعلنا نجد دليلا على ذلك في برديات السيرابيون التى ترجع الى القرن الثانى والقرن الأول ق . م . التى ذكرت اسم الاله اوزيرابيس [3] كثيرا .

ولكى يظهر التأثير الحضارى المزدوج لامتزاج الآلهة المصرية والآلهة اليونانية اضيف لمعبد سرابيس بعض الزخرفة اليونانية لتعبر عن الطبيعة الاساسية للاله الجديد وخاصة ارتباطه مع الاه ديونيسوس اليونانى [4] .

---

(1) Fraser, Plot. Alex. p. 253 U.P.Z.I. pp. 15ff.
(2) Sethe, Sarapis, p. 15;.
(3) Sethe, Sarapis, P. 11;.

يرى زيته ان اوزيرابيس المذكور في برديات السيرابيون يوضح فقط التور المتوفى - بينما سرابيس يوضح اله العالم السفلى . ولكن هذا يصعب تصديقه الا في حالة واحدة فقط وهى البردية التى تحوى لعنة ارتميزيا حيث انها أى ارتميزيا توجهت بالدعاء الى اوزيرابيس قبل خلق وتأسيس عبادة سرابيس فان البردية ترجع الى القرن الرابع ق . م .

U.P.Z.I. (IV Cent. B.C.).
(4) Fraser, Ptol. Alex., p. 253;

ولقد لعبت منف دورا هاما فى خلق عبادة سرابيس [1] . فان الاله سرابيس يدين بأصله الى عبادة منف ، فقد خلقت العبادة فى منف ونقلت الى الاسكندرية فى عصر يوارجتيس الأول [2] .

ثم بمن قرن الاله سرابيس ليقدم الصورة الاغريقية والتعبير الاغريقى للجالية اليونانية ؟

ان صفات سرابيس المأخوذة من اوزيريس كآله العالم السفلى جعلت له شبيهين أو نظيرين يونانيين . الاله الاغريقى ديونيسيوس, وهاديس أو بلوتون[3] .

---

(1) Ibid., Ch. 5. pp. 253 - 254, notes 500, 501;

لعبت منف ايضا دورا هاما فى الانتشار المبكر لعبادة سرابيس خارج مصر . ففى نصب عثر عليه فى ديلوس يرجع تاريخه الى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد . كتبه شاعر غير معروف يطلق عليه مايستاس، جاء فيه : ان جد الكاهن ابولونيوس يعرف بأنه رجل مصرى اتى من مصر حاملا الاله ;LL.2- 4

LL. 37-39; ثم أنه اتى من منف

(2) Ibid., p. 250;.

(3) Fraser, Ptol. Alex., p. 255; U.P.Z.I., p. 30;.

عن تشبيه سرابيس بالآله بلوتون اليونانى لايوجد أى دليل له فى النصوص . ولكن فيلكن يذكر انه ربما بعد معرفة ما جاء فى البردية رقم ١٢٢ التى تذكر ان مزارعا ملكيا تعود ان يحج سنويا الى السيرابيوم من أجل تقديم القرابين للآله سرابيس – ربما كان فى ذلك دليلاً على ان سرابيس اتخذ صفة الخصوبة الخاصة بالاله بلوتون .

ان تشبيه سرابيس بهذين الالاهين ناغ من اتحاد سرابيس مع اوزيريس أو بالاصح مع اوزيرابيس

لقد مزج ديونيسوس مع سرابيس . ونستطيع ان نتبين هذه الحقيقة مع مظهر هام . فقد كان معبد السيرابيون فى منف ، مكان خلق وظهور سرابيس ، منينا بسخاء من تماثيل ديونيسوس . فان الدروموس الذى يصل معبد نكتانبو – من ملوك الأسرة الثلاثين – مع هيكل أبيس ، كان محاطا على الجانبين بمصطبة وضع عليهما تماثيل منحوته تمثل ديونيسوس طفلا ومعه الحيوانات المختلفة التى اندمجت فى عبادته مثل الأسد والطاووس [1] .

هذه المجموعة اليونانية الخالصة ، منحوته من الحجر الجيرى ، ولكنها اختفت تماما وتاريخها يعتريه بعض التردد . وربما يرجع الى بداية عهد البطالمة . ويمكن الاستدلال على ذلك من امضاء أحد الفنانين عثر عليه فى الدروموس ويوضح ان بعض على الاقل من هذه التماثيل يرجع الى هذا التاريخ [2] .

ان أصل سرابيس الذى يوضحه اوزيريس ، وعن طرقه أدمج مع ديونيسوس وهاديس أو بلوتون ، يؤلف العنصر الأساسى فى شكل الاله الجديد المركب .

تطورت العبادة فى منف فى اتجهات مختلفة كنتيجة للاتحاد المبكر والدائم مع اوزير آبيس .

(1) Fraser, Ptol. Alex., Ch. 5, p. 255, no. 511;.
(2) Ibid., n. 512;.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولاكتساب سرابيس مكانة عظمى ، نشر بين الناس ان هذا الاله يقوم بمعجزات عظيمة لأنه يشفى المرض ، وكان من بين من شفاهم أشخاص عظماء . فقيل ان ديمتريوس الفاليرى مستشار بطلميوس الأول ، اصابه العمى ولم يسترد بصره الا بفضل سرابيس [1] لذلك ظهر سرابيس فى منف كالاه للشفاء ، وهذا ينهض أو يقود الى التشبيه مع أسكلبيوس اله الشفاء لدى اليونانيين . ولذلك وجدت بينه وبين ايمحوتب [2] - اله الشفاء المصرى - رابطة قوية ويقول فريزر أن امتزاج ايمحوتب وأسكليبوس لم يكن امتزاجا قويا واضحا ، بقدر ما كان تقاربا فى الخصائص الوظيفية لكل منهما [3] .

وشخصية سرابيس كآله للشفاء واضح من اهداء بطلمى آخر ، وهو اهداء مبنى ليخنابسيون [4] Lychnaption فى السيرابيون . وقد أهداه رجل يونانى من أجل شكر الاله الذى شفاه بعد أن فشلت معه جميع الطرق العلاجية . وهو بناه على الطراز اليونانى ويعد مكانا للمصابيح المقدسة ، ويرجع تاريخه الى بداية القرن الثالث ق .م .

تتضح شخصية سرابيس كآله للشفاء مرة أخرى من بردية من منتصف القرن الثالث ق . م . وهى تحكى قصة « زويلوس » ، الذى وعده الاله بالشفاء من مرضه اذا هو حقق رغبات الاله . وفى نفس هذه الرسالة فهو يحمس ابولونيوس - وزير المالية - بتلبية رغبات الاله حتى يكون سرابيس

---

(1) Fraser, Plot. Alex., Ch. 5 n. 522;.

(2) U.PZ.I. pp. 38 - 41 ;.

(3) Fraser, Plot. Alex., p. 256;.

(4) Ibid., Ch. 5, p. 255, n. 498;.

كريما معه ويحميه ويحمى صحته .

اذن لقد مزج اليونانيون آلههم أسكابيوس بالاله ابمحوتب [١] بن بتاح كبير آلهه منف . وفى الواقع لقد ذكر الاله اسكلبيوس [٢] كثيرا فى برديات السيرابيون فان وجود معبد للاله اسكلبيوس فى السبرابيون يفسر خاصية الشفاء التى اكتسبها سرابيس بعد ذلك .

وفى اجدى الوثائق تطلب التوأمتان المقيمتان فى السيرابيون العظيم التمييز الخص بهما من معبد أسكلبيوس لقاء قيامهما بخدماتهما هناك .

أشرك مع سرابيس الهان مصريان وهما ايزيس وحربقراط وهؤلاء الثلاثة كونوا معا ثالوثا مقدسا ، وفى هذا الدليل آخر على الآثر المصرى فى هذه العبادة الجديدة . فان فكرة الثالوث قديمة العهد فى الديانة المصرية ، بل ترجع الى أقدم العصور . كان يوجد فى كل اقليم فى مصر ثالوث مقدس يتألف من أب وأم وابن . وفى منف كان الثالوث يتألف من بتاح وزوجه سخمت وابنهما نفرتوم ، هذا بالاضافة الى آنوبيس التابع الأمين

---

(١) ابمحوتب شخصية تاريخية عرف أنه بانى هرم زوسر من الأسرة الثالثة واشتهر بحكمته ومهارته الطبية ومن هنا عبده المصريون فى عصور متأخرة على أنه آله الطب بن بتاح العظيم .

(2) U.P.Z.I. 42 (162 B.C.) L.7.
..45 (162 / 161 B.c) L.17;
46 (162 / 161 B.C) L.16;
57 (161 B.C ?) L.5.
125 (89 B.c) L.9.

الذى ينقل الي اوزيريس أرواح الموتى"[1] .

ومثل سرابيس قدمت ايزيس للاغريق فى صورة اغريقية ، لكنها تختلف عن سرابيس فى أن الشكل الذى قدمت به للاغريق كان أكثر تمصرا منه . اعتقد المصريون فى ايزيس القديمة بينما اليونانيون فى ايزيس الجديدة ذات الشكل الاغريقى"[2] .

عبدت ايزيس الى جانب سرابيس فى معبد السيرابيون وقد عبدها المصريون واليونانيون كل حسب معتقداته .

واستمرار شخصية العبادات الاجنبية فى منف ، يتضح فى أكثر من نص ، فنجد احتفاظ الالهه عشترت باسمها وعبادتها . داخل السيرابيون حيث عثر على معبد لعشترت هناك .

ويطلق هيرودوت على عشترت افروديت الاجنبية

وهيكل عشترت فى السيرابيون يعد فرعا من معبد عشترت الذى يوجد فى منف ، ويقع جنوب معبد بتاح فى معسكر الصوربون ، ومعروف من

(1) Fraser, Plol . Alex., p.259.
(2) U.P.Z.I. P.29.
Wiedemann, Herodot II., P.433, P.S.I.531 (III Cent B.C.)

زمن قديم [1] وربما يوضح ذلك ان عبادة عشترت في السيرابيون كانت عبادة مصرية ذلك لأن الالهة الفينيقية عرفت منذ الأسرة ١٨ . اذن فعبادتها بدأت في العصر الفرعوني وليس البطلمي . وقد مزجها المصريون مع الالهه سخمت كالهه للحرب ، وبالتالي صورت أفروديت على نصب من منف من الاسرة ١٩ كالهه حاملة الدرع [2] .

كان هذا مزجا مركبا . فقد مزج اليونانيون عشترت مع أفروديت ثم مزجها ايضا المصريون مع الالهه سخمت وحتحور وايزيس ، على أى الأحوال لقد ذكر معبد عشترت كثيرا في نصوص السيرابيون [3] . وهو أيضا يحمل اسم أفروديسيون نسبه الى مزجها مع الالهه أفروديت [4] .

لاشك أنه بجانب تلك العبادات التي حافظت على شخصيتها الأجنبية في داخل هذا المعبد العظيم المترامي الأطراف ، وجدت أيضا آلهة مصرية ، احتفظت باسمائها المصرية مثل الاله بس الذى أقبل عليه ايضا اغريق مصر .

(1) Wiedemann, Herodot II. P.433, P.S.I.531 (III Cent. B. C.).
(2) Petrie, Memphis I.P.8. pl. XV n.37.
U.P.Z.I.5. (163 B.C.)L.9.
6.(162 B.C.)L.8.
7.(163 and 161.B.C).L.10.
8.(161 B.C.)L.9.
15.(156 B.C.) L.11.
(3) U.P.Z.I.116 (III Cent. B.C.)L.18.
119(156 B.C.) L.21.
120 (II Cent. B.C.) L.6
(4)
U.P.Z.I.P.43 Weber, Terrakotten, p. 131.fn.19.
يوضح ان الالهه بس عبدت على انها الهه الحب ، لأنها صورت عارية وبالتالي امتزجت مع الالهة افروديت الاجنبية .

ايضا عبدت بوباستيس [1] هناك ، حيث يؤكد فيلكن أنه فى جنوب معبد الانوبيون فى الجهة اليسارية يوجد مقابر عديدة لقطط وهى الحيوانات المقدسة لبوباستيس .

من خلال هذا النص يمكن القول ان عبادة بوباستيس وجدت أيضا هناك. هذا وقد ذكر أيضا الاله آمون وعبادته ، فربما وجدت عبادته أيضا فى السيرابيون .

ثم يحدثنا نص آخر بأن اونوغريس يعمل فى السيرابيون كمربى للأبيس .

وبذلك يمكن القول ان عبادة تحوت حيث كانت الابيس قدسة له ، وجدت طريقها فى السيرابيون [2] .

ثم أيضا عبادة ناويجومنيفيس ، والدلائل والاشارات على ذلك كثيرة - ففى أحد النصوص يذكر بتزيس انه كان عليه تحنيط اوزيرابيس واوزير منيفيس . ولأن اوزيرآبيس يوجد فى السيرابيون وليس فى منف لذلك كان بتزيس يقوم بهذه الخدمات فى السيرابيون .

حقا اذا كنا لم نجد بعد دليلا قويا واضحا على امتزاج الديانتين الاغريقية والمصرية ، فانه لايجوز الاستنتاج ان كل اله مصرى كان له شبيهه اليونانى . أو أن كل اله مصرى كان يعبد فى معبده فلابد وان نجد الى

(1) U.P.Z.I.43.
(2) U.P.Z.I. P.42.

جانبه اله اغريقى . فى الواع لقد عبد المصريون الاله سرابيس ولكن فى ثوبه المصرى ، ولأنه ايضا بالنسبة لهم كان فى عداد الآلهة التى ظلوا على ولائهم لها . كذلك كان موقف الاغريق من العبادة الجديدة . لقد اعتنق الاغريق العبادة الجديدة لأن آلهتها قدمت لهم فى ثوب اغريقى وأنها شبيه بآلهتهم . ولقد وجدوا أن تلك الآلهة المصرية لاتفترق فى كثير من الهتهم ، وكان لزاما عليهم احترام آلهة الارض التى أصبحت وطنا ثانيا لهم .

وعلى كل حال فلاشك أن تشبيه الآلهة الاغريقية بالآلهه المصرية فى المعبد العظيم معبد السرابيون بجوار منف ، لم يكن الا تشبيها سطحيا لم ينفذ الى اعماق عواطف الاغريق الدينية بحيث تحل الآلهة المصرية محل الآلهة الاغريقية وهذا ما نستطيع ان نؤكده من أن الاسكندر الأكبر والبطالمة شيدوا معابد مختلفة لكل من آلهة الاغريق وآلهة المصريين [1]

وظل سرابيس نحو قرن ونصف تقريبا منذ خلقه ، الها رسميا بعيدا عن قلوب المصريين ومشاعرهم الدينية حتى أواخر العصر البطلمى حيث بدأت شعبيته تزداد تدريجيا ، حتى أصبح فى العصر الرومانى أهم وأشهر الآلهة المصرية . ولقد استرد سرابيس شخصيته المصرية فى معبد السيرابيون بالاسكندرية فأقيمت له به تماثيل على هيئة العجل التى عثر على واحد منها وهو تمثال كامل مجمل من الجرانيت الأسود للعجل أبيس ، ويعود الى زمن الامبراطور هادريان فى العصر الرومانى ومحفوظ فى المتحف اليونانى

(1) Fraser, Ptol. Alex., p.260.

والروماني بالاسكندرية [1] .

ثانيا - السياسة الخارجية للبطالمة :

تتأثر سياسة مصر الخارجية بمجموعتين من العوامل احداهما العوامل الطبيعية التي جعلت مصر أولا جزءا من وادى النيل ، وفيرة الخيرات فى بعض النواحي وفقيرة فى بعض النواحي الأخرى ، ومصر حلقة الاتصال بين افريقيا واسيا وأوربا ولذلك كان على مصر أن تسعى لتصريف مايفيض على الحاجة من منتجاتها واستيراد ماتفتقر اليه وان يكون لنشاط السياسة المصرية ثلاث جبهات احداهما افريقية والأخرى أسيوية والثالثة اوروبية أما المجموعة الثانية من العوامل فهى تلك الظروف الدولية التى تتكيف بها سياسة مصر الخارجية [2] .

وعلى عهد البطالمة كانت الظروف الدولية المحيطة بمصر قد تغيرت تغيرا محسوسا . اذ أنه حين كانت الحضارات الشرقية أخذه فى الاضمحلال كانت حضارة الاغريق تصل الى ذروة المجد وأصبح بحر ايجه أهم مراكز الحضارة في العالم القديم . وقد ازدادت دعائم هذا المركز رسوخا حين أنشأ الاسكندر قبل أن ينظم وراثة العرش وطبيعة الحكم فى الامبراطورية وانتهت بأن اقتسمها قواده ، كان لذلك عدة نتائج .

أولا : ان عرش مصر ال الى اسرة مقدونية الأصل اغريقية الحضارة .

ثانيا : نشوب صراع عنيف بين هؤلاء القواد دام أربعين عاما ادى آخر الأمر الى قيام ثلاث دول قوية على انقاض الامبراطورية المقدونية : وهى دولة

---

(1)Breccia, Alexandria ad Asgyptum, p.115.

(٢) د ابراهيم نصحى : دراسات فى تاريخ مصر ص ٧٣ .

البطالمة فى مصر ودولة السليوكيين فى سوريا وبابل ، دولة مقدونيا .

ثالثا : قيام المنافسة بين هذه القوى الثلاث ، ولاسيما بين البطالمة والسلوكيين .

وحين كان خلفاء الاسكندر يتصارعون فى شرق البحر الابيض المتوسط كانت روما تجد فى بسط سيطرتها على الحوض الغربى لهذا البحر وهكذا ظهر عامل آخر جديد له خطره فى افق السياسة الدولية . ولاشك أن كل هذه العوامل اثرت فى سياسة مصر الخارجية .

ووسط مطامع القواد خلفاء الاسكندر ، كان فوز بطلميوس باستقلال مصر والمحافظة على هذا الاستقلال واحراز مكانة هامة فى السياسة الدولية وكان كل ذلك يتطلب تجنيد جيش قوى وبناء اسطول كبير – كما سبق القول – ولما كانت وفرة المال شرطا اساسيا لبناء الجيوش والاساطيل وكانت مصر مع غنى مواردها الطبيعية لاتستطيع مواجهة المطالب الجديدة اذا بقيت شئونها الادارية وحالتها الاقتصادية على ما كانت عليه عند الفتح المقدونى ، كان لابد من اعادة تنظيم شئون الادارة للنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها استغلالا منظما دقيقا وتصدير أكبر قدر ممكن من منتجاتها . وللقيام بهذه الاعمال الواسعة شعر بطلميوس وخلفاؤه بالحاجة الى رؤوس اموال واعوان مخلصين ومعنى ذلك انهم كانوا فى حاجة الى الاغريق لبناء جيوشهم واساطيلهم ولاعادة تنظيم شئون البلاد الادارية والاقتصادية ، فقد توافرت لديهم رؤوس الاموال وكذلك الخبرة بأحدث الاساليب الاقتصادية ونظم التجارة .

وكذلك الحاجة الى السيطرة على الطرق البحرية لحماية مصر وتنشيط

تجارتها الخارجية .

وازاء كل هذه العوامل نجد أن بطلميوس قد انسلخ عن الامبراطورية المقدونية واعلن نفسه ملكا على مصر .[1] استولى على برقة لحماية حدود مصر الغربية[2] واستولى ايضا على جوف سوريا[3] (فلسطين وفينيقيا وجزء من سوريا) وقبرص وبعض الاقاليم الواقعة على شواطىء اسيا الصغرى فى كيليكيا وكاريا . وذلك حماية لحدود مصر الشرقية والحصول على المعادن والاخشاب التى تفتقر اليها مصر .

وهكذا يتضح لنا انه على عهد بطلميوس الأول اتجهت سياسة مصر الخارجية اتجاها جديدا . وعندما تولى عرش مصر بطلميوس الثانى كانت دولته اقوى دولة فى العالم الهيلينيستى وكانت تليها دولة السليوكيين التى كانت تشمل ولايات امبراطورية الاسكندر فى بلاد ما بين النهرين وجانبا كبيرا من آسيا الصغرى وسوريا (فيما عدا جوف سوريا) وكانت الدولة الثالثة وهى مقدونيا وكانت تسيطر على بعض المدن الاغريقية فى شبه جزيرة البلقان .

وقد كانت لكل دولة من هذه الدول أهدافها ، أما مصر فان - بطلميوس الثانى كان ينشد الهدف الاساسى نفسه الذى كان ابوه ينشده وهو الدفاع عن استقلال مصر الكامل ولعب الدور الاول فى السياسة والاقتصاد فى العالم الهيلينستى .

---

(1) Bevan op cit p.27-8.
(2) B ouc he Leclercq Ipid. pp.16-17. IBid.
(3) B ouche Leclercq IPid. pp.28ff.

لكن كان طبيعيا الا يسلم السليوكيون باستيلاء البطالمة على جوف سوريا وشواطيء آسيا الصغرى ، لأن ذلك كان يحول دون أن يكون لهم اسطول كبير ويحرفهم منافذ الطرق الهامة الحربية والتجارية والقادمة من امبراطوريتهم الاسيوية فيترتب على كل ذلك ان تصبح دولتهم مملكة شرقية منعزلة عن العالم الاغريقى . وذلك لم يكن هناك مفر من أن يصطدم السليوكيون بالبطالمة .

كذلك لم يكن فى وسع مقدونيا الاعتراف بسيطرة البطالمة على بحر ايجه لأنه كان يترتب على ذلك حرمانها السيادة على هذا البحر وتبعا لذلك انتقال السيطرة على مؤنة بلاد الاغريق من قبضة مقدونيا الى قبضة عداء شديدا . وهكذا لم يكن فى وسع بطلميوس الثانى تحقيق اهداف السياسة الخارجية التى وضع ابوه اساسها دون القيام بمجهود عنيف ، وقد تمكن هذا الملك من توطيد حدود مصر الغربية واهتم بالطرق التى تربط وادى النيل بالبحر الأحمر ، ووطد حدود مصر الجنوبية واهتم بطرق اعالى النيل .

كذلك دعم سلطان مصر فى جوف سوريا واسترد ممتلكات مصر على شاطيء آسيا الصغرى الجنوبى وكان ابوه قد فقدها فى عام ٣٠٦ق . م . واضاف اليها ممتلكات جديدة على شاطيء آسيا الصغرى وبسط نفوذه على كريت وعلى بعض جزر بحر ايجه .

غير أن الهزيمة التى نزلت ببطلميوس الثانى فى خلال الحرب السورية الثانية سلبته سيادته البحار وكل ممتلكاته فى آسيا الصغرى وبحر ايجه .

يتضح لنا اذن أن الاتجاهين اللذين ظهرا فى افق السياسة المصرية على

عهد بطلميوس الاول قد استمرا مسيطرين على هذه السياسة فى عده بطلميوس الثانى أيضا .

لكن لعهد بطلميوس الثانى ميزة أخرى ، ففى عهده ، بدأ اتجاه جديد فى سياسة مصر الخارجية لأن مصر فى عهده كانت أول دولة انشأت علاقات سياسية مع روما [1] ففى عام ٢٧٣ ق . م ارسل بطلميوس الثانى بعثة الى روما تمخضت عن عقد اتفاق بين الدولتين . ومن المحتمل أن الدوافع التى لطمت على بطلميوس الثانى سياسته الغربية كانت دوافع اقتصادية لأن الاسواق الغربية كانت تستطيع المساهمة بقدر كبير فى رخاء ممتلكته .

ان السياسة الخارجية التى وضع بطلميوس الاول اساسها وسار بطلميوس الثانى على نهجها اصبحت سياسة تقليدية لدى ملوك البطالمة الاوائل . وآية ذلك أن بطلميوس الثالث حين ارتقى العرش وضع نصب عينيه تحقيق الاهداف التى أراد ابوه وجده تحقيقها . ولاجدال فى أن امبراطورية البطالمة قد وصلت فى عهد بطلميوس الثالث الى اقصى اتساعها لكنها لم تكن الا امبراطورية بحرية ولكنه على أن حال نفذ خطوات ابيه فى اتجاهات السياسة الخارجية نحو الشمال والشرق والغرب .

وعندما تولى بطلميوس الرابع عرش مصر اعتقد انتيوخوس الثالث ان الفرصة قد سنحت لسلب مصر جوف سوريا ، غير أن بطلميوس اعاد تنظيم الجيش وادمج فى قواته عددا كبيرا من المصريين يعزى اليهم الفضل الاكبر فى الانتصار فى موقعة رفح عام ٢١٧ ق . م . على جيوش انتيوخوس

---

(1) C.A.H. VII. p.823.

الاغريقية [1] وعاد الملك المهزوم ليعمل بنشاط من اجل اعادة ميناء امبراطوريته وسلب البطالمة جوف سوريا . ذلك الاقليم الذى اصبح منذ عهد بطلميوس الاول - سببا دائما للنزاع بين هاتين المملكتين .

وقد اتفق المؤرخون على اعتبار موقعة رفح حدا فاصلا بين العهد الذى بلغت فيه دولة البطالمة اقصى اتساعها واومج مجدها . والعهد الذى اخذت فيه عوامل الضعف والاضمحلال تدب اليها . فقدت املاكها فى الخارج وتزعزع سلطانها فى الداخل واصبحت تتناوبها الغزوات والثورات الى ان انتهى بها الأمر الى زوال استقلالها .

ويلاحظ انه منذ موقعة رفح عام ٢١٧ ق . م حتى موقعة اكتيوم عام ٣١ ق . م قد مرت سياسة مصر الخارجية فى ثلاثة مراحل .

المرحلة الاولى :

من موقعة رفح عام ٢١٧ ق . م حتى وفاة بطلميوس الخامس فى عام ١٨٠ ق . م حين اثار مخاوف مصر محاولة انتيوخوس الثالث لم شمل امبراطوريته وتوسيع رفعتها ، عملت مصر على التقرب من مقدونيا وروما [2] ولكن اضطرابات مصر الداخلية وفاة حكامها شجعت اصحاب المطامع . فانه فى نفس الوقت الذى احس فيه فيليب المقدونى استقبال بعثة مصرية اوفدت لتعقد معه معاهدة تتضمن شروطها زواج ابنته من بطلميوس الخامس ومساعدة فيليب لمصر ضد انتيوخوس ، عقد فيليب مع انتيوخوس فى عام ٢٠٣/٢٠٢ ق . م - معاهدة اقتسما بمقتضاها ممتلكات مصر

(1) Polyp. V,63.

(2) B ouche Leclercq IBid pp.342 ff.

الخارجية [١] وهكذا سرعان ما فقدت [٢] مصر ممتلكاتها فى آسيا الصغرى وجوف سوريا ولم يبعد لها من ممتلكاتها سوى قبرص وبرقة . فى الوقت الذى بدأ فيه فيليب وانتيوخوس الاستيلاء على ممتلكات مصر . اخافت هذه الأطماع روما والرومان لأنهم لم يأمنوا يوما جانب الدول الهيلينستية الشرقية ، فقد كانت لها تقاليد حربية وموطن اعظم الاختراعات فى فنون القتال ، ولذلك لم يضيع الرومان وقت طويلا قبل ان يشتبكوا مع فيليب ثم انتيوخوس ويهزمونهما الاول فى عام ١٩٧ ق . م و١٨٩ وذلك بحجة الدفاع عن حرية الاغريق واملاك بطلميوس المسلوبة [٣] .

ولما لم يكن من صالح روما ان ترى مصر قوية شديدة البأس فأنها عندما هزمت انتيوخوس وكان قد استولى على الجانب الاكبر من امبراطورية البطالمة وزعت بمقتضى معاهدة اباميا [٤] كل ما انتزعته منه بين رودس وبرجام ، لتتخذ منهما اداة لتنفيذ سياستها ولتوجد توازنا بين القوى فى الشرق باضعاف مصر وسوريا وتقوية رودس وبرجام ، وكذلك لتنشر الفرقة والانقسام بين القوى التى كان من الممكن ان تتحد ضد روما بدافع الخوف على كيانها ازاء ازدياد الاطماع الرومانية . ولذلك فان مصر فقدت اغلب ممتلكاتها واتجهت الى روما لحمايتها من انتيوخوس مما أدى الى ضياع استقلالها الذى كانت لاتزال تتمتع به شكلا وفعلا .

---

(1) Polyp. xv.20.
(2) C.A.. vIII. p.p.150-1.
(3) Rostovtzeff,SEHHHW. pp.52ff.
(٤) انظر شروط المعاهدة فى Diod. xxIx 10.

المرحلة الثانية

فهى مند تولى بطلميوس السادس فيلوميتور عرش مصر فى عام ١٨٠ حتى وفاة بطلميوس التاسع سوتير الثانى عام ٨٠ ق م

مهدت الظروف فى هده المرحلة لكى نبسط روما سلطانها الفعلى على مصر وان احتفظت مصر باستقلالها ويرجع تدخل النفود الرومانى فى مصر الى عاملين احدهما عندما عزا انتيوخوس الرابع مصر نفسها ، ولم ينقذها منه الا تدخل روما التى ارغمت الملك السورى على لانسحاب من مصر ورد قبرص اليها

اذ لم يكن فى وسع روما السماح لامبراطورية السليوكيين بالاتساع بحيث تضم مصريين جوانبها لأنه دلك كان يهدد مركز روما فى شرق البحر الابيض المتوسط . والعامل الآخر هو اشتداد النزاع بين بطلميوس السادس واخيه الاصغر بطلميوس الثامن واتخادهما روما حكما فى النزاع بينهما والذى استغلته روما لتحقيق اغراضها

وبرغم هذه الاحداث الداخلية ، وتدخل النفود الرومانى فان مصر لم تنس جوف سوريا وحاولت مرارا استغلال الاضطرابات التى كانت داخل سوريا لاستعادة هذا الجزء من ممتلكاتها لكنها باءت بالفشل وفضلا عن ذلك بفأنها ايضا فقدت برقة ، اذ أن بطلميوس ثامن (يوارجتيس الثانى) كان قد تنازل عنها لابنه غير الشرعى بطلميوس ابيون وهدا اورثها الى روما فى عام ٩٦ ق م

المرحلة الثالثة

وهى منذ وفاة بطلميوس التاسع (سوتير الثانى) فى عام ٨٠ ق . م حتى موقعة اكتيوم فى عام ٣١ ق . م .

بلغ من ازدياد نفوذ روما فى مصر انه منذ وفاة بطلميوس التاسع فى عام ٨٠ ق م أصبح مصيرها متعلقا بمصير الصراع الحزبى فى روما لأن زعماء حرب الشعب كانوا يطالبون بضم مصر الى الامبراطورية الرومانية استنادا الى وصية زعموا أن بطلميوس الحادى عشر أورث مصر وقبرص بمقتضاها للامة الرومانية

وقد بقى مصير عرش بطلميوس الثانى عشر (الزمار) متأرجحا الى أن ابتاع تأييد الزعيم الشعبى يوليوس قيصر بمبلغ كبير من المال فصدر قانون تعترف فيه روما بهذا الرجل ملكا على مصر وحليفا وصديقا للشعب الرومانى . لكن روما لم تلبث ان ساتولت على قبرص . وبضمها الى روما بعد برقة لم يبق من دولة البطالمة الا مصر ، وحتى مصر لم يبق لها الا استقلالا شكليا .

وحين وصلت مكانة أسرة البطالمة الى الانهيار، ارتقت عرش مصر كليوباترة السابعة وسرعان ما رأت سلطانها لايمتد على ممتلكات البطالمة القديمة فحسب ، بل كذلك على اقاليم لم يحلم بها أحد من البطالمة الثلثاة الاوائل لكن الان وعندما لم تعد لقوة مصر الحربية قيمة تذكر الى جانب قوة روما ، وعندما لم يعد فى وسع أى ملك متربع على عرش مصر انقاذ دولته المتداعية بأى قوة يملكها استخدمت كليوباترة فى السياسة ،الحرب سلاح المرأة الفاتنة التى تمكنت من استخدام قوة روما أداة لتنفيذ

اعراضها

اوصى بطلميوس (الزمار) بان يتولى العرش من بعده ابنته كليوباترا السابعة واخوها بطليموس الثالث عشر ، على أن يقوم الرومان بتنفيذ الوصية والاشراف على تحقيقها . وبعد وفاته بدأت كليوباترا فى ممارسة الحكم مع أخيه الاصغر وفى اثناء ذلك قامت الحرب الاهلية فى روما بين بومبيوس وقيصر ، فاحتاج الاول الى قوات لمواجهة الثانى ، واستطاع ان يجمع اسطولا من عدة دول من بينها مصر ، كما طلب مبالغا كبيرة من الاموال من بلاد كثيرة .

وفى عام ٤٨ انتصر قيصر على بومبيوس فى معركة فارسالوس ، فلجأ بومبيوس الى الاسكندرية واثقا انه سيجد الحماية هناك ، ولكن على العكس من ذلك بيت القائمون بأمور القصد الملكى النية لقتلة ، وغرضهم من ذلك تحاشى غضب قيصر ونشوب قتال بين الطرفين تكون مصر ميدانا له ؛ وقد تم قتلة على يد جندى رومانى سبق أن خدم تحت قياد مبومبيوس نفسه .

عندما جاء قيصر الى مصر متتبعا بومبيوس ، وعلم بمقتله ، لم يكن ينوى الرحيل بسرعة منها ، فقد جاء الى اغنى بلاد العالم وهو فى حاجة شديدة الى المال مؤكدا ان الحكومة المصرية تدين له بمبلغ كبير ولايخالج أحد الشك فى أنه كان يعوزه المال لمتابعة معركته ضد ابناء ومؤيدى بومبيوس وقد جاء على لسان الشاعر « لوكانوس » ان قيصر رأى ثروة مصر بعيون شرهة وقد اعلن قيصر بانه سيبقى فى مصر ليفصل بين الاخوين - كليوباترا واخيها المتصارعين على السلطة

وقد جمع قيصر بطلميوس الثالث عشر وكليوباترا السابعة وعلى عليهما

وصية بطلميوس (الزمار) وامرهما ان يعيشا سويا تبعا للتقاليد المصرية وان يكون الشعب الرومانى وصيا عليهما .

ولكن ماذا كان من أمر الاسكندريين (أهل اسكندرية) ازاء قدوم قيصر الى مصر وظهوره كوصى على الملكين الصغيرين ؟ لقد كان الاسكندريون يكنون كراهية شديدة للرومان وذلك منذ عهد يوارجنيس الثانى بطلميوس الثامن عندما كانوا يشعرون بأنه يستمد قوته من تقربه الى الرومان وتزلفة اليهم . وقد عبروا عن كراهيتهم هذه من خلال عدد من الاحداث . منها قتلهم للاسكندر الثانى الذى اختارته روما ليكون ملكا على مصر ، وطردهم لبطلميوس اوليتيس الذى اعتمد على السناتو لتشبيه على عرشه ، وثورتهم على رابيروس - المرابى الرومانى الذى اقرض بطلميوس (الزمار) الكثير من الأموال اثناء اقامته فى زوما والذى وضعه الملك فى منصب وزير المالية حتى يوفى ديونه .

أدى سلوك قيصر الى اثارة كل العواطف المعادية للرومان سواء فى الحكومة أو بين السكان ومن بينهم الفرق العسكرية الملكية فاعلنوا حربا ضده عرفت باسم حرب الاسكندرية وكان الفوز فيها حليفا لقيصر على الرغم من عنف المعركة وقوتها . وقد ساعد على الفوز انضمام اليهود اليه . وبعد الحرب اعلن قيصر على عرش مصر كليوباترا السابعة واخاها بطلميوس الثالث عشر فى الوقت الذى كان يستطيع فيه ان يضم مصر الى الحكم الرومانى . ووفقا لرواية سويتونيوس فان السبب الذى منعه من ضم مصر هو الخوف من أن يتولى حكم مصر عندما تصبح ولاية رومانية حاكم قوى يستطيع ان يستخدم هذه الدولة المركزية القوية كمركز لاشعال الثورات ضد

روما ، ولايفوتنا أن نبين ان خوف روما المستمر من هذه الفكرة قد ظهر بعد ضم مصر في العصر الروماني . اذ اتهم اول والى لها بأنه تجاوز حدوده وتم عزله من منصبه لذلك ترك قيصر كليوباترا ملكة على مصر وهو واثق من ولائها له . اذ انه لم يكن هناك روماني واحد يأمن له قيصر ويجعله حاكما لمصر خاصة في ظروف الحرب الأهلية وتخطيط ابناء بومبيوس لتكملة معاركه .

وقد اعلن قيصر اعادة قبرص الى الحكم البطلمي ، وسعى من وراء ذلك الى كسب تأييد الاسكندريين اما كليوباترا والتي سعت منذ البداية الى كسب قيصر الى جانبها فلم تعد تخشى شيئا طالما تحظى بتأييد اعظم الرومان شانا . وطالما تخلصت من منافسيها بطلميوس الثالث عشر بوفاته غرقا وارسينوى الرابعة ترحيلها مع الأسرى الى روما . وقد انجبت كليوباترا من قيصر ابنا دعاه الاسكندريون « قيصرون » بقصد السخرية وليس من المستبعد ان الآمال راودت كليوباترا في أن تصبح امبراطورة على الامبراطورية الرومانية نفسها [illegible] الزواج من قيصر . ولكن خابت أمالها عندما بدأت الاشاعات تنتشر في روما حول رغبة قيصر في تحويل الجمهورية الى ملكية يجلس [illegible] على عرشها . لذلك دبرت مؤامرة تم فيها اغتياله واغتيال أمال وتطلعات كليوباترا ، فاضطرت الى القناعة بعرش مصر وضمت [illegible] قيصر معها في الحكم .

انتهت الحرب الأهلية التي قامت بعد مقتل قيصر بفوز اكتافيانوس وماركوس انطونيوس وقد اقتسم الطرفان الامبراطورية ، فكانت الولايات الغربية من نصيب الاول والولايات الشرقية من نصيب الثاني . وقد أرسل

انطونيوس فى استدعاء كليوباترا مستنكرا عدم مساعدتها لهم ضد اعداء قيصر . وقد تجلت مظاهر الثروة والعظمة فى رحلة كليوباترا لتقدم لانطونيوس البرهان على عظم ثروة مصر . وقد التقت مصالح انطونيوس وكليوباترا . فهو يريد الكنوز والأموال التى ظن ان بمصر معينا منها لاينضب ، وهى بالمثل كانت تريد منه أن يعمل على توطيد عرشها وتحقيق اغراضها ، ومطامعها السياسية .

امضى انطونيوس مع كليوباترا الشتاء التالى ، واسفرت علاقاتهما عن ميلاد تؤامين ، وعلى الرغم من كراهية الاسكندريين للرومان الا أن انطونيوس استطاع ان يكسب حبهم . ولعل ذلك راجع الى احترامهم لكليوباترا وقبولهم للمكانة العالية التى اضفتها عليه .

وفى اثناء ذلك عرف انطونيوس عن غزو البارتيية للشرق وعن ثورة زوجته الاولى واخيه ضد اوكتافيانوس . وقد لفت نظره الى خطورة الموقف جماعة من الجنود الايطاليين الموجودين بالاسكندرية فسافر فى النهاية الى ايطاليا وكانت زوجته قد توفيت وهناك تم عقد صلح بين انطونيوس واكتاڤيانوس فى ٤٠ ق . م على أن يظل انطونيوس حاكما على الممالك الشرقية وان يبدأ حربه مع البارثيين . وضمانا لتحقيق المعاهدة زواجه من اخت اكتافيانوس . وقد سرت هذه المعاهدة الرومان فى الوقت الذى اغضبت فيه كليوباترا .

وقد سعت إكتاڤيا بعد زواجها من انطونيوس الى الحد من الخلاف بين زوجها واخيها والتقريب بينهما . وفى عام ٣٧ ق . م ذهب انطونيوس شرقا

لملاقاة البارثيين وقد صاحبته فى رحلته زوجته اكتافيا ولكنه اعادها ثانية الى ايطاليا . وبمجرد وصوله الى سوريا أرسل فى استدعاء كليوباترا فقد كان فى حاجة الى معونة اغنى بلاد الشرق .

ولعل انطونيوس اضطر فى ذلك الوقت الى أن يعلن زواجه من كليوباترا ويهبها البلاد التى فتحها فى مقابل ان تضع تحت تصرفه كل ثروة بلادها . فقد اهداها هى وابنائها فنيقيا وجوف سوريا وقبرص وجزء كبير من كليكيا . وبحصول كليوباترا على هذه الأراضى تكون قد استردت املاكها التى كانت لها أيام ملوك البطالمة الاولين وبخاصة على عهد كل من بطلميوس الثانى وبطلميوس الثالث وكان الرومان قد استولوا على بعضها فى عهد الملوك المستضعفين من هذه الأسرة . ولذلك فانه كليوباترا تستحق ان تقوم بهذا النصر . لأنها استردت املاك مصر ومجدها الذى كان لها أيام اعظم اجدادها .

وقد وصف بعض المؤرخين القدامى كليوباترا بالبقاء واتهموها بالسيطرة الكامل على انطونيوس ويحدثنا ديوكاسيوس بان انطونيوس احب كليوباترا حين رآها . وجعلته يصير وفق هواها . فلم يعد يهتم بالاعمال الاخلاقية ولكن اصبح عبدا للملكة وكرس نفسه لحبهاهما ادى الى قيامه باعمال كثيرة مثيرة للاشمئزاز ولع وصف الكاتب تأثر بالدعاية التى شنها أوكتافيوس ضد انطونيوس . فان كليوباترا لم تكن مجرد محظية أو لعبة فى ايدى الرومان . بل لاشك أنها هدفت من علاقتها بانطونيوس الى المحافظة على استقلال مصر وتوسيع حدودها والاحتفاظ بالعرش من بعدها لابنائها ولعل كليوباترا كانت فى نظر الكثيرين من الشرقيين رمزا لمقاومة روما وضمانا للخلاص من

استعبادها .

فى عام ٣٤ ق . م خرج انطونيوس فى حملته على ارمينيا وبعد اخضاعها عاد الى الاسكندرية ليحتفل بمهرجان انتصاره على غير العادة التى تقضى بأن يكون الاحتفال فى روما .

وقد أعلن فى هذا الاحتفال ان كليوباترا ملكة مصر وقبرص وليبيا ووادى سوريا ويشاركها ابنها قيصرون واعلن ان ابناءه منها هم ملوك وقسم بينهم الولايات الشرقية .

بدأ اكتافياتوس بعد طلاق اخته من انطونيوس فى حملة التشهير ضده . وارتكز فى هذه الحملة على افعال انطونيوس للممالك الشرقية التابعة للامبراطورية الرومانية على كليوباتره وابنائها ، واحتفاله بانتصاراته كقائد رومانى فى الاسكندرية بدلا من روما . وزواجه بزوجة اجنبية وجعله قيصرون وريثا مع امه كليوباترا وكانت نتيجة هذه الحملة ان اعلن الرومان الحرب على كليوباترا ملكة مصر . فأن روما التى لم تخشى أى شعب من شعوب العالم ، آثارها الفزع مرتين طوال تاريخها . كانت المرة الاولى من هانيبال والثانية من كليوباترا .

لذلك كان الرومان يكنون لكليوباترا الكراهية الشديدة فهى بعلاقتها مع قيصر كانت تسعى الى أن تصبح ملكة على روما فرفضوا أن تتحول الامبراطورية الى مملكة تحكمهم من فوق عرشها الملكية المصرية التى بمقتوها وبخشوها فى نفس الوقت .

فدبروا لاغتيال قيصر وتمكنوا بذلك من القضاء على احلام كليوباترا والخلاص منها . ولكن ان تعود كليوباترا لتسيطر للمرة الثانية على انطونيوس .

أكبر القواد الرومان والذى يتولى أمر نصف ولايات الامبراطورية — ثم تحمله على توزيع هذه الولايات عليها وعلى ابنائها فكان أمرا مهينا لايطاق وخيانة علنية لاتغتفر لذلك اعلن أكتافيانوس هو والرومان الحرب ضد كليوباترا عداوة الشعب الرومانى فكانت حربا قوميا ضد الخطر الاجنبى وعلى الرغم من أن كليوباترا قدمت الكثير من الاموال والعتاد والسفن من أجل المعركة ، وعلى الرغم من الجهد الذى بذله انطونيوس فى قيادة الجند ، الا أن النصر فى النهاية كان حليف اكتافيانوس فى موقعة اكتيوم سنة ٣١ق . م واضطر انطونيوس — وكليوباترا الى الانسحاب والانتحار فى آخر الأمر .

وهكذا انتهت فترة حكم البطالمة بانتحار كليوباترا التى كان طموحها أكبر من طموح الملوك البطالمة جميعا ، فبعد أن كانت مصر على وشك الوقوع فى ايدى الرومان وبالتالى تصبح ولاية رومانية ،أصبح الرومان يخشون بأس الملكة المصرية ويخافون من أن تصبح يوما ملكة على روما نفسها .

وكانت كليوباترا تخطط دائما لتحقيق هذا الأمل بل واعلنت ذلك صراحة ولكن شاءت الاقدار أن يحالفها سوء الحظ مرتين ، واضطرت الى أن تضع حد لحياتها وخاتمة للعصر البطلمى الذى امتد طيلة ثلاثة قرون وتحولت مصر من دولة مستقلة تحت حكم البطالمة الى ولاية رومانية تتبع امبراطور روما . ولكن كليوباترا بقيت اسطورة ترددها الالسن فى كل مكان ويستلهمها الكتاب والشعراء على مر العصور .

الفصل الرابع

معالم النظم والحضارة فى مصر

العصر البطلمى



البنـــاء الاجتمـــاعى



أ - البناء الاجتماعي :

من النادر أن نجد مجتمعا متحضرا خاليا من الاجانب في أي فترة من فترات تاريخه ، فمصر الفرعونية كما سبق القول - كانت قبلة انظار الشعوب واستقر بها خليط غريب من السكان ينتمون الى شتى الأمم القديمة ، كما حدثنا هيرودوت[1] في كتابة حيث قال « ان بنصر صوريين وقورينائيين وليبيين ويونانيين وفارسيين وغيرهم » .

يقابلنا في مصر تأثيرات ذلك الاختلاط والامتزاج الاجتماعي ، لهذا كان من الضروري معرفة نبذة صغيرة عن تلك المجموعات التي حضرت الى مصر قبل تأسيس دولة البطالمة ، والتي كان من شأنها ان اثرت على طبيعة تكوين مجتمع منف ، وطبيعة الاعمال التي كانوا يقومون بها.

يمكن ارجاع تاريخ استقرار العناصر اليونانية الأولى في مصر الى القرن السابع قبل الميلاد حين اتخذ منهم بسماتيك جنودا مرتزقة[2] .

ثم كان احتلال الفرس لمصر مدة قرنين ، ولذلك كان من المسلم به انهم وجدوا في مصر بل لقد امتزجوا مع المصريين هناك[3] .

وحينما دخل الاسكندر الأكبر مصر في ٣٣٢ ق . م وجد بها عناصر اجنبية مختلفة . واقدم الوثائق البردية[4] التي حدثتنا عن هذا الامتزاج الاجتماعي هي ما يطلق عليها لعنة ارتميزيا . وتاريخ الوثيقة يرجع الى القرن الرابع ق . م . وارتميزيا صاحبة الرسالة كانت من اصل يوناني ومن بين

(1) Herod; 11 . 112.
(2) F. Kienitz. Die Politikc Geschichte, Agyptens, P. 36.
(3) Herod., 111. 97.
(4) U.P.Z. 1 .

الذين يدعون هليينوممفيتس ، أو كاروممفيتس ، وهؤلاء من نسل الجنود المرتزقة الذين احضرهم بسماتيك الأول ، ومنذ عصر امازيس وهم مستقرون في منف .

من ذلك يمكن لنا استنتاج طبيعة تكوين المجتمع المصرى قبل تأسيس دولة البطالمة فمنذ هذه الفترة استقر خليط عجيب من العناصر الاجنبية فى مصر ثم نجد ان مجتمع مصر فى العصر البطلمى يضم الى جانب المصريين وهم العنصر الاصلى للوطنيين ، هلينيين وفارسيين وفينيقيين وطراقيين ويهود ومقدونيين وغيرهم .

فان الفترة البطلمية خلقت عالما جديدا وحضارة جديدة نشأت من اتحاد عناصر شرقية بعناصر غربية ويمكن القول ان اتحاد كل العناصر البشرية الموجودة لم يكن فقط اتحادا سياسيا ، ولكنه كان امتزاجا لحضارة الشرق والغرب وامتزاجا اجتماعيا بين الشعوب .

رغم كل ما امكن معرفتة عن هذا الامتزاج الاجتماعى وعن المجتمع المصرى شديد الاختلاط ، لكن لسوء الحظ ليس لدينا احصاءات نوعية عن كل عنصر من هذه العناصر يبين نسبة عدد بعضها الى بعض ، ولا النسبة العددية بينهم وبين المصريين [1] .

وكل ما لدينا من الاحصاءات هو رقم اجمالى عن عدد سكان مصر ، فيذكر جوزيفوس الذى عاش فى بداية العصر الرومانى ان عدد سكان مصر – عدا أهل الاسكندرية الذين كان لهم سجل خاص بهم – هو سبعة

---

(١) د . مصطفى العبادى : مصر من الاسكندر الأكبر ص ١٠٩ وما بعدها .

ملايين ونصف مليون نسمة ونحن نستطيع ان نثق في صحة هذا الرقم نظرا لأن الادارة اليونانية والرومانية كانت تحتفظ باحصاءات دقيقة عن عدد السكان ، كما كانت تسجل المواليد والوفيات بانتظام نظرا لارتباط ذلك بالضرائب التي كانت تجبى على الافراد . ولدينا رقما آخر عن الاسكندرية يسد النقص في رقم جوزيفوس ، فيذكر ديودور الصقلي ان عدد سكان الاسكندرية من الافرد في العصر الأخير من الحكم البطلمي هو ثلاثمائة الف شخصا ونحن لانعرف على وجه التحديد ماذا يعني ديودور بلفظ احرار ولكن اذا - فرضنا انه وجد بالاسكندرية مائتا الف آخرون ممن لم يسجلوا ضمن السكان-ديودور مثل العبيد وبعض الاهالى النازحين من الريف دون ان يكونوا مقيدين رسميا ، ضمن اهالى الاسكندرية فان مجموع سكان الاسكندرية يكون خمسمائة الف شخص تقريبا .

ومن الممكن ايضا ان نعتمد على وثيقة بردية في محاولة لتحديد عدد سكان منف العاصمة القديمة دون التقيد بنوعية العناصر المكونة للمجتمع نفسه لصعوبة تحقيق ذلك .

هذه الوثيقة يرجع تاريخها الى سنة ٢٣٥ ق . م جاء بها بيان دخل منف من السمك ، ثم تناولت البردية مصاريف النقل والضرائب حيث ان الصناعة السمكية كانت صناعية محتكرة في العصر البطلمي .

وهذا ما سجله لنا النص « ان دخل السمك الذى بيع في منف يقدر ٣ تالنتات .... في الاقاليم ٤٠٠٠ دراخما ، في الاسكندرية ٨ تالنتات .

ذلك في الواقع يعد نسبة كبيرة من السمك يتم توزيعها على الاماكن التي جاء ذكرها في النص ، وخاصة منف والاسكندرية ، فان دل على شيء

فانما يدل على ضخامة سكان تلك الاماكن وعلى مدى عناية واهتمام الدولة بها .

واذا ما حاولنا مقارنة دخل منف من السمك ودخل الاسكندرية وارجاع ذلك الى النسبة العددية لسكان كل منهما ، نجد أن دخل منف يشكل اقل من النصف بثالث واحد . وهذا يعد مبلغا كبيرا . واذا كنا نعرف ان سكان الاسكندرية فى العصر الاخير من الحكم البطلمى بلغوا ٥٠٠,٠٠٠ نسمة تقريبا . اذن قياسا الى دخل كل منهما من السمك يمكن القول بان سكان منف بلغوا تقريبا ٢٠٠,٠٠٠ نسمة من عناصر بشرية مختلفة فاذا كان هذا الرقم لايوضح التعداد الصحيح لسكان منف فانه على الاقل يمثل الحد الاقرب الى الحقيقة لسكان منف فى القرن الثالث ق . م وخاصة اننا نعرف من استرابون [1] بان منف كانت تعتبر المدينة الثانية فى مصر بعد الاسكندرية من حيث عدد السكان الذين كانوا من جنسيات مختلفة .

ولكن لنا أن نسأل الان كيف كانت تعيش تلك الاجناس المختلفة فى المجتمع المصرى ؟ ان هذا العدد الكبير المختلط كان فى حاجة الى تنظيم دقيق . فهل وجد فى مصر نظام سياسى موحد يضم الجاليات المختلفة وينظم شئونها واعمالها ويعمل على الاستفادة منها ؟

نحن لانعرف تفاصيل سياسة البطالمة لاستقدام مهاجرين من اليونان للعمل فى بناء الدولة الجديدة فى مجالات الجيش والادارة والاقتصاد . ومن المحتمل ان بطلميوس الأول لجأ الى اتباع سياسة منظمة لاستقدام مواطنين من المدن اليونانية . مثلما فعل انتيجونوس حينما استقدم مواطنين من المدن

(1) Strabo, xvII, 32.

اليونانية . مثلما فعل انتيجونوس حينما استقدم اعدادا من الاثينيين والمقدونيين ليقيمهم في مدينته الجديدة انتيجونيا في سوريا . ولكننا لانمتلك مايفيد ان أحد البطالمة فعل ذلك . ومع ذلك فيبدوا ان البطالمة لم يضطروا الى أن يحيدوا انفسهم كثيرا ليجذبوا الى مملكتهم الجديدة اعدادا كبيرة من الاغريق وغير الاغريق . فبالاضافة الى الحامية والجالية التى كان قد تركها الاسكندر . والاغريق المستقرين في مصر قبل مجيء الاسكندر فلابد من بطلميوس الاول عندما عين حاكما على مصر احضر معه قوة عسكرية ايضا . ولكن رغم ذلك فان هذه الاعداد لم تكن تكفى حاجات انشاء الدولة الجديدة ، ومن أجل تشجيع وتنظيم مزيد من هجرة الاغريق الى مصر ، اتبع بطلميوس سياسة كانت معروفة في مصر من قبل وهى منح الجنود قطعا من الأرض تسمى « كليروى » يمكنهم ان يقيموا عليها ويستثمروها بدلا من نظام دفع الرواتب نقدا ، وهو مالم يكن ممارسا فى ذلك الوقت . ومن دلائل تطبيق ونجاح هذه السياسة مايرويه ديودور الصقلى ان بطلميوس الاول حين انتصر على ايمرتيوس في معركة غزة سنة ٣١٢ ق . م أسر من الجيش المنهزم ٨٠٠٠ جندى وارسلهم الى مصر وأمر بأن يوزعوا بين النومات . لهذا كانت انتصارات بطلميوس الحربية يجلب له عددا من الجنود المقدونيين والاغريق فى حين ان هزائمه لم تكن تفقده الكثير لأن جنوده كانوا يرفضون الانضواء تحت لواء خصمة وكانوا يحاولون الفرار الى مصر حيث لهم ارض وأهل .

على أى حال لم يجد بطلميوس مشقة فى الحصول على اعداد كبيرة من الاغريق فان اشتهار مصر بالغنى واشتهار بطلميوس بالكرم جعل

جماعات كبيرة منهم تأتى الى مصر[1] .

اذن جاء هؤلاء المهاجرون الى مصر سعيا وراء الثراء وكثير منهم جاء ليحصل على الثروة عن طريق الارتزاق بالجندية ، ولكن اعدادا كبيرة وجدت طريقها الى الارتزاق عن طريق القيام بشتى انواع العمل والنشاط الاخرى فى المدينة ، فمنهم رجال الحاشية الملكية والقصر والموظفون ورجال الفنون والاداب والعلم ورجال التجارة والصناعة واصحاب السفن وكثير من هؤلاء اصبحوا تدريجيا اصحاب ارض منحها لهم الملك - كما سبق القول . أو اشتروها بما اكتسبوا من مال .

فى الواقع ان الاغريق كانوا قد ألفوا فى بلادهم نظام المدينة اليونانية بحيث كان من العسير عليهم - حتى فى المهجر أن يعيشوا بغير نظام المدينة، وقد فعلوا ذلك فى المستعمرات التى اقاموها لانفسهم فى جميع هجراتهم السابقة الى شواطىء بالبحرين الاسود والابيض . أما فى مصر فلم يشجع الملك البطلمى هذا الاتجاه ، لأن نظام المدينة وما يتبعه من الاستقلال الذاتى على الاقل كان يتعارض مع مبدأ الحكم المطلق الذى اقامه البطالمة فى مصر . ولكن ارضاء لشعور الاغريق القوى بالانتماء الاجتماعى سمح لهم الملك البطلمى بتكوين اتحادات أو منظمات تسمى « بوليتوما » ، تضم كل واحدة منها ابناء الموطن الاغريقى الواحد .

والبوليتوما هيئة مستقلة ذات تنظيم خاص يغلب عليه الطابع العسكرى ولكن كان لها ايضا أوجه نشاط اخرى اجتماعية ودينية . ومامن شك

(1) Rostovtzeff SEHHW p. 409.

د / مصطفى العبادى ، مجتمع الاسكندرية عبر العصور ص ٣١ .

انهما كانت خاضعة للملك مباشرة فمن المرجح ان السبب في انشائها هو أن كل بوليتيوما تضم مجموعة الجنود المرتزقة الذين من موطن واحد اصلا بحيث يمكن تنظيمهم في وقت السلم حين ينتشرون في الريف ومستقرون في مزارعهم ليسهل حصرهم واستدعاؤهم بسرعة عند الحاجة . واذا كانت كل بوليتيوما في أول الأمر قاصرة على ابناء موطن واحد فانها فقدت هذه الصفة بمرور الزمن .

ونستطيع ان تميز من بين جميع العناصر الاجنبية عنصرا واحدا نشعر انه كان يتمتع بمنزلة ومكانة خاصة ، ذلك هو العنصر المقدوني . فمن وجهه النظر الاغريقية لم يكن المقدونيون اغريقيا ، رغم انهم كانوا يسيرون نحو الاصطباغ بالصبغة الاغريقية بخطوات سريعة . ولكن نظرا لأنهم كانوا ينتمون الى عنصر الاسكندر الاكبر أولا ثم الملك بطلميوس بعد ذلك ، ونظرا لأنهم كانوا يعتبرون ارقى وحدات الجيش واهم عناصره ، فلم يكن غريبا ان شعروا بشىء من الاعتزاز والفخر بمكانتهم في الجيش . ويبدوا فعلا ان الاسكندر ومن بعده بطلميوس اولوا العناصر المقدونية عناية واهتماما خاصا . ولقد كان بطلميوس في حاجة خاصة الى هؤلاء المقدونيين لبناء جيشه الجديد في مصر ، خاصة بعد أن اثبت الجندى المقدونى تفوقه على الجندى الاغريقى تحت قيادة فيليب وابنه الاسكندر المقدونى وقد اجزل بطلميوس لهم العطاء . ومنحهم كثيرا من الارض ليستقروا عليها في مصر زمن السلم [1] ولكن ما من شك ان حرص على استبقساء عدد كبير منهم في الاسكندرية ليكونوا القوة الاساسية في الحرس الملكي . ولقد

---

(١) د / مصطفى العبادى ، مجتمع الاسكندرية ، ص ٣٧

استمر الوضع على هذه الحال فى عصر الملوك الثلاثة الأوائل من البطلمة رغم انهم لم يتلقوا اضافات جديدة من الدم المقدونى فى القرنين الاخيرين من الدولة البطلمية .

لم يبق جميع المقدونيين جنودا فقط ، وانما ظهروا فى اعمال مدينة ودينية فمنهم من كانوا كهنة ، ومنهم من شاركوا فى جوانب من النشاط المالى والتجارى . ومنهم ايضا من تولوا مناصب المدينة الرفيعة فى حواضر الاقاليم (المتروبوليس) .

وما من شك ان العنصر المقدونى احتل مكانة رفيعة فى الفترة الاولى من الحكم البطلمى . ففى القرن الثالث ق . م . كان المقدونيون من نفس عنصر الملوك ، وكونوا أهم واقوى ،قوات الجيش ، وتمتعوا بوضع متميز على سائر الاغريق الاخرين ، كذلك يبدوا انه كان لهولاء المقدونيين تنظيم خاص بهم ، يمكنهم من الاجتماع فى جمعية عمومية (بوليتوما) وقد بقى لهذا التنظيم اهميته وتأثيره السياسى ، طالما كان العنصر المقدونى الأصل قويا فى الجيش ولكن مع نهاية القرن الثالث وطيلة القرنين الثانى والأول ق . م نجد أن – المقدونيين الجدد يصفون أنفسهم فى المصادر بأنهم من السلالة أى أنهم ليسوا من مقدونيا مباشرة . ولكنهم ولدوا فى مصر من سلالة المهاجرين – المقدونيين الاصليين . وكثير من ابناء هذه السلالة لم يجر فى عروقهم دم مقدونى خالص ، بل كانوا نتيجة زواج مختلط ، ولكنهم خلفوا اباءهم فى وحدات الجيش المقدونية واحتفظوا لأنفسهم لذلك بصفة المقدونية .

ولكن سرعان ما تناقص اعداد المقدونيين بعد ذلك لعدم امكان الحصول على مهاجرين جدد ، ولم يعد الافراد من ابناء سلالتهم يفدون لتعويض النقص ولذلك لجأ الملك البطلمى الى أن يلحق بوحدات المقدونيين ابناء الجنسيات الاخرى فى اثناء القرن الثانى .

ومن أكبر الجاليات الاجنبية التى وجدت فى مصر فى العصر البطلمى ايضا الجالية اليهودية . ونظرا لكثرتهم العددية وتميزهم الدينى الذى تمسكوا به دائما ، فقد منحهم الملك حق تكوين بوليتويما وعن طريقها يستطيعون تنظيم شئونهم وممارسة عباداتهم الخاصة . ولكن كثير من الهود . تأغرقوا تماما واصبحت اليونانية هى لغتهم الوحيدة منذ منتصف القرن الثانى ق . م لم تكن هناك أى صفة مميزة لليهود ، واعتبروا جميعا اغريقا .

لكن كيف كان حال المصريين اصحاب البلاد ؟ لقد كان المصريون هم أغلبية السكان وعماد المجتمع وتنظيمهم الاساسى كان يتم حسب حرفهم واعمالهم . فيحدثنا هيرودوت [1] ان المصريين كانوا ينقسمون الى سبع طبقات حسب اعمالهم فمنهم الكهنة والجند ، رعاة البقر ورعاة الخنازير ، التجار والمفسرون واصحاب المراكب ، بطبيعة الحال كانت هناك مئات أخرى ولكن هيرودوت لم يتعرض لها .

ولكن المصريين ، بالنسبة للعناصر الاجنبية المختلطة والتى تشكل السمة الرئيسية للمجتمع فى تلك الفترة ، كانوا فى مركز الضعف ، فهم عمال بناء ورعاة خنازير حائكون وقاطعوا الحجارة ومربو النحل وبحارة وصانعو الفخار ، وفوق كل ذلك فهم الذين يفلحون الارض أما الاغريق فكانوا

---

(1) Heirod . 11 . 163.

يشكلون الطبقة المميزة والوضع الممتاز بين رجال الملك أو الادارة أو الجيش أو الأرض .

ولكن لم يبق المصريون في مركز المغلوب على امره كثيرا ، ذلك ان انتصارهم في معركة رفح ٢١٧ ق . م للقضاء على الغزو السليوقي ، كان له آثار وردود فعل بعيده سياسيا واجتماعيا وماديا لكن لعل اثارها المعنوية بالنسبة للمصريين كانت اخطرها جميعا لقد استرد المصريون ثقتهم بأنفسهم وطالبوا بحقهم في تولي جميع المناصب ، سواء في الجيش والقصر والادارة وقد صاحب تحسن مركز المصريين وزيادة نفوذهم في الدولة ، كثرة الثورات التي قاموا بها لصد الاسرة البطلمية الحاكمة .

لقد ادرك هذه الحقيقة المؤرخ بوليبيوس[1] فعبر عنها بأن النصر في معركة رفح كان نصرا مصريا .

هذا التطور في مركز المصريين وازدياد مكانة عنصرهم تكشفه وتوضحه اشهر وثيقة في تاريخ مصر القديمة وهي حجر رشيد[2] والقرار المسجل على حجر رشيد ، يدل على ان مركز المصريين قد تغير تغيرا جوهريا ، فمن ناحية عقد مجلس الكهنة في منف العاصمة المصرية القديمة بعد انتقال العاصمة الى الاسكندرية ومن ناحية أخرى سجل النقش محاولات الملك التقرب الى الكهنة واستمالة المصريين لقد تنازلت الدولة عن بعض ديون الافراد المتأخرة للخزانة وصدور عفو شامل عن الجنود المصريين الذين انضموا للثورة وكذلك

(1) Polyp. V. 107. Dittenberger, O.G. L.S. 90 .
(2) Bevan, Egypt, pp. 262 ff.

نلحظ زيادة ظهور المصريين فى مناصب عليا فى الجيش والدولة ومكافأت سخية اعلنها الملك وتخص الجيش بعد معركة رفح .

لقد تطورت العلاقة بين القصر والمصريين وساعد ذلك على ازدياد مكانة العنصر المصرى ، وهذا ما كشفته لنا أشهر الوثائق فى تاريخ مصر .

وعلى أى حال يمكننا القول أن العناصر الاجنبية اختلطت بالمصريين ونتج عن ذلك اختلاط فى العادات والتقاليد ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك الاتجاه بمرور الزمن ، هو زيادة عنصر الاغريق وغيرهم بالتدريج .

ولكن ماذا كان تأثير هذا الخليط العجيب من الاجناس على لغة سكان المدينة فى هذا العصر ؟

كانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية ، لأنها ايضا لغة الطبقة الحاكمة والذى ساعد على انتشار اللغة اليونانية هو وجود العناصر الاجنبية المختلطة واستخدموا اللغة اليونانية . أما المصريون فقد استمروا يتحدثون اللغة المصرية القديمة ، بل أن كثير منهم لم يحاول تعلم الكتابة اليونانية وكان هذا دافعا ايضا لظهور قوانين الملاجىء والمراسيم الملكية والقوانين باللغتين المصرية واليونانية .

هكذا كان هناك فى مجتمع مصر فى العصر البطلمى الى جانب المصريين الذين يشكلون القاعدة الاساسية للمجتمع المصرى ، عناصر أخرى كثيرة أوروبية وأسيوية لكن مع ذلك فقد كان العنصران المصرى والاغريقى هما أهم هذه العناصر سواء من ناحية العدد أو من ناحية التأثير .



النشـــــاط الاقتصـــــادى



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ب - النشـــاط الاقتصادى :

ان الوضـع الاجتمـاعى الذى كانت علـيه مصر زمـن الاسـرة البطلمية يظهر بشكل واضح اذا نظرنا الى الوضع الاقتصادى لمصر فى تلك الفترة .

حقيقة لقد تم اللقاء بين العناصر الاجنبية المختلطة فى المجتمع المصرى كما سبق ان اوضحنا - ولكنه لم ينته بالتفاعل الكامل بينهما لتصبح مصر وحدة اجتماعية ذات صفة عالمية ، وذلك بسبب الموقف السياسى الذى اتخـذه البطالمة والذى وضع حدودا اجتمـاعية وقانونية بين تلك العناصر البشرية الموجودة فى المدينة .

نجد أن الوضع الاقتصـادى قد اقـترن وتأثر بفكـرة الامـتزاج الاجتماعى واصبح الطابع الدولى يضبغ نشاط مصر فى الفترة الاسرة البطلمية .

أما عن نفوذ البطالمة فى مصر ، فنحن نعرف انه كان يرتكز اساسا على استغلال موارد مصر الاقتصادية استغلالا منتظما [(١)] .

لكن هـذه الموارد واجهـت عند قدومهم الى مصر مطالب واسعة كانت حافزا لهم للعمل على تنميتها واعادة تنظيمها ، لاسيما بسبب ما حاق بها من التدهور نتيجة لاضرابات التى شهدتها مصر فى خلال القرنين الخامس والرابع ق . م ابـان حكم الفرس فى مـصر وثـورات المصريين للتخلص من

حكمـهم وذلك كـان البطالمة فى حاجة ملحة الى المال واستغل هذا النظام خبرة المصريين القديمة العهد ووسائل الاغريق الفنية الحديثة فى مجال

(١) عن سياسة البطالمة الاقتصادية راجع د / ابراهيم نصحى تاريخ مصر في عصر البطالمة حـ٢ ص ١ الى ٢٣ .

د / لطفى عبد الوهاب : دراسات فى تاريخ مصر ، عصر البطالمة ص ١٤٩ - ١٥٠ .

الانشطة المختلفة [1]

نجد أن البطالمة وجهوا اهتماما كبيرا الى الزراعة فى مصر ، ولدينا وثائق زبيون - وكل اعمال ابولونيوس وزير المالية - شدة عناية الملك بطلميوس الثانى ووزير ماليته بالتعمير والزراعة [2] .

نحاول فى جزء من هذه الدراسة أن نوضح الموقف الاقتصادى فى الفترة الاولى من حكم البطالمة فان للعناية التى بذلها البطالمة الاوائل فى سبيل تقدم المرافق الاقتصادية ، نتائج باهرة .

أولا : الارض :

كانت سياسة البطالمة فى مجال نظام الاراضى تهدف الى العمل على بناء دولة قوية تحت الحكم الملكى ثم الحرص على تيسير اقامة عدد كبير من الاغريق الذين حضروا الى مصر وكانوا العنصر الاساسى فى بناء جيشهم وادارتهم للبلد . وعلى هذا الاساس تظهر لنا الوثائق ان هذه السياسة قد تم تطبيقها منذ منتصف القرن الثالث ق . م .

كانت ملكية الارض [3] فى مصر مقسمة الى انواع مختلفة وكذلك فئات مختلفة من الارض بحسب مركز الاشخاص المسئولين عن زراعتها وعلاقتهم بالارض ويمكننا ان نميز بين النوعين من الارض على عهد

(1) Rostovzeff SEHHW pp 270 - 7 .
(2) Rostovzeff, Large Estate p. 137.

(٣) عن نظام الاراضى راجع :

د . ابراهيم نصحى : المرجع السابق جـ٣ ص ١٥٧ - ٢١٨ .

د . لطفى عبد الوهاب ، المرجع السابق ، ص ١٦٤ - ١٦٧ .

د . مصطفى العبادى ، المرجع السابق ، ص ١٢٩ - ١٣٦

البطالمة .

النـــوع الأول :

وهو ارض للملك وكان الملك يستثمرها مباشرة .

النوع الثانى :

فهو ارض العطاء وهى التى منحها الملك لاشخاص آخرين وتندرج تحت هذا القسم انواع مختلفة من الاراضى مثل ارض المعابد والاقطاعات العسكرية والاقطاعات الكبيرة لكبار الموظفين ثم الملكية الخاصة وهذا يعنى. ان الأرض وما تغله من محصول خاضع لادارة الدولة .

بالنسبة لأرض الملك فقد أخذ البطالمة فى مجال سياستهم الاقتصادية بمبدأ ملكية الدولة ممثلة فى شخص الملك ، ولهذا كانت أرض - الدولة تحتل الرقعة الكبرى من الارض الزراعية فى مصر .

أما ارض المعابد . فقد كانت المعابد المصرية واسعة الثراء نتيجة لما تجمع لها من هبات الملوك واوهداف الافراد على مر القرون . وكانت تحت اشراف الدولة المباشر فكانت الدولة هى التى تقوم باستغلال الأرض وتأجيرها وتجبى عنها الايجارات والدخول المختلفة نظير الانفاق على المعابد والكهنة .

وارض الاقطاعات العسكرية حيث كانت سياسة البطالمة الاوائل تتطلب انشاء جيوش كبيرة ، رأوا فى بداية حكمهم الا يعتمدوا فى تكوينها على المصريين لذلك تخذوا من المقدونيين والاغريق فى مصر نواة لجيوشهم . واتبعوا سياسة الاقطاعات فى مكافآتهم للاغريق والاجانب الذين خدموا فى الجيش البطلمى . ويطلق على هذه الاقطاعات اسم « كليروس » وعلى من

يمتلكها اسم « كليروخوس » واختلفت مساحات الاقطاعات العسكرية حسب مراتب الجنود والضباط .

غير أنه مع نهاية القرن الثالث ق . م بدأ البطالمة فى استخدام المصريين باعداد كبيرة فى جيوشهم وذلك من معركة رفح ٢١٧ ق . م التى أحرز فيها المصريون نصرا عظيما ومنحوا اقطاعات من الارض مثل الجنود الاغريق ولكنها من مساحات اصغر ولهذا اطلق على اصحاب هذه الاقطاعات الصغيرة من المصريين كليروخوى بينما اطلق على الاغريق « كاتويكروى » أى المستوطنين .

وتحولت الاقطاعات العسكرية بمرور الزمن من كونها منحة من الملك الى أن اصبحت ملكية خاصة فى نهاية القرن الثانى ق . م .

أما اقطاعات الموظفين ، نجد أن البطالمة لجئوا فى معاملة رجال الحكومة الى اقطاعهم مساحات من الارض بدلا من منحهم مرتبات نقدية منتظمة وهى وسيلة ناجحة فى زيادة رقعة الارض المزروعة فى مصر ، لأن هذا الاقطاعات مثلها مثل الاقطاعات العسكرية ، كانت تتكون من ارض بور فى حاجة الى استصلاح .

وبالنسبة لأرض الملكية الشخصية ، فقد نما هذا النوع تحت حكم البطالمة وذلك بسبب تحول الاقطاعات العسكرية الى ملكية شخصية ثم أيضا نتيجة لبعض مشاريع اصلاح الارض البور التى انتهجها البطالمة .

أما ارض المدن ، فان تقاليد ونظم المدن اليونانية تقضى ان كل مدينة يجب أن يتبعها مساحة من الارض الزراعية ونحن نعرف أن بمصر هنا يونانية استمر على النمط اليونانى ، فلابد أيضا أنها تمتعت بمثل هذا النظام .

وتدل المعلومات على أرض المدن أنها كانت ملكيات شخصية فى أيدى الافراد من مواطنى المدن .

من هـذه البـداية عن سياسـة البطـالمة فى مـجال نظـام الأرض ، نـنـتقل للحديث عن كيـفـية زراعة وتنظيم هذه المساحات الواسعة من الاراضى .

كـان الملك البطلمى من الناحية النظرية - هو المالك الوحيد للأرض الزراعية والواقع ان جزءا كبيرا من أجود الاراضى كان يظل تحت اشرافه مـزارعى الاراضى للملكية ، التى تؤجر الفلاحين يعرفون باسم مزارعى الارضى الملكية ، وكانت عقود الايجار اختيارية ، لكن لجأ البطالمة بعد ذلك الى الاكراه حينما كان يـهرب المستأجرين من الالتزامات التى تكبلهم.

وكان مزارعو الملك أحرارا ، ولكن هذه الحرية كان تخضع لبعض القيود فهم لايستطيعون ترك اراضيهم فى خلال الموسم الزراعى ، كما نسمع عن نقل مزارعى الارضى الملكية الى اماكن اخرى لاستصلاح اراض جديدة . وكان من حق الملك أن يلغى عقود الايجار فى أى وقت يشاء . وان تنقل الارض ، الى مستأجر آخر يقدم عرضا أعلى منه ، لقد كان الملك المالك الوحيد للاراضى .

وهناك اراضى التى لاتخضع لرقابة الملك وادارته المباشرة ، ومن هذا النوع ارض المعابد برغم ان البطالمة تولوا ادارتها الا أنها كـانت تستغل لصالح المعابد .

ثم كـانت هناك ايضا اراض الاقطاعات العسكرية ، فـقد اتبع البطالمة سياسة الاقطاعات فى مكافأتهم للاعداد الكثيرة من الاغريق والاجانب الذين

خدموا فى الجيش البطلمى .

ومما دفع البطالمة الى هذه الوسيلة هو عدة دوافع اقتصادية وسياسية . ذلك أن مصر كانت وقتذاك بارا نقل فيه النقود ومن ثم لايكون هناك غير سبيلين لدفع المرتبات ، هما استغلال قطعة من الارض وزاعتها أو استغلال دخل بعض الضرائب . وفضل البطالمة الطريقة الأولى لأنها ذات فائدة مزدوجة فهى تضمن ارتباط المتطوعين بالأرض التى منحت لهم فيتخذون من مصر وطنا لهم ، وتنشأ بينهم وبين ملوكها علاقات قوية دائمة بحيث يستطيع هؤلاء للملوك تجنيدهم كلما بدأ القتال . كما يستطيعون الاعتماد عليهم فى تأييد ملكهم ونشر لواء الحضارة الاغريقية فى انحاء البلاد ومن ناحية اخرى ، هيأت طريقة منح الاقطاعات للبطالمة فرصة ادخال وسائل اقتصادية جديدة فى البلاد ، فضلا عن كونها تزيد عدد الايدى العاملة [1] .

هكذا منح البطالمة الاقطاعات لرجال قواتهم البرية والبحرية من الاغريق والمقدونيين ، أما المحاربون المصريون فجعلوا اقطاعاتهم صغيرة المساحة بالقياس الى اقطاعات الاجانب ، ولكنها كانت أكثر عددا، وكذلك منحت الاقطاعات لفريق من المرتزقة الذين فضلوا الاقامة فى وادى النيل ، كما منحت احيانا للاسرى الذين اعتبروا ثروة بشرية قادرة على الانتاج وعلى اصلاح الأراضى واستغلالها . واخذت مساحة الاراضى الممنوحة اقطاعات تزداد على مر الايام تبعا لتزايد الجيوش التى تتطلبها الحروب . ولدينا وثيقة بردية توضح أن مساحة الاقطاعات العسكرية فى قرية كوركيوزيرس (اقليم

(1) Preaux, LEC. Roy. pp. 465-466.

الفيوم) بلغت [٣] ١٣٤ اوروا فى عهد بطلميوس الرابع ، ثم وصلت الى [١١] ١٥٨١ [٢٢] أوروا خلال حكم الملك بطلميوس الثامن . وما من شك في اننا [٢٢] نستطيع اعتبار هذه الحالة مثلا لما حدث فى اقاليم مصر الاخرى ، ولاريب ان ذلك التوسع المطرد فى مساحة الاقطاعات العسكرية ادى الى حدوث نقص مطرد فى مساحة الاراضى الملكية ، وبالتالى فى الدخل الملكى الذى انكمش كثيرا بعد أن فقدت مصر اغلب ممتلكاتها الخارجية ، ولم تنضم اليها ولايات جديدة تدر عليها دخلا يساعدها على سد نفقات الجيش الباهظة .

وكانت القاعدة المتبعة خلال القرن الثالث هى منح الاقطاعات العسكرية من الأراضى التى اصلحتها الدولة على نفقتها وايضا الاراضى التى قام أصحاب الاقطاعات الى ملكيات خاصة ، حرم الملوك مساحات كبيرة من الاراضى الملكية ولهذا تقرر خلال القرن الثانى الا يمنح الجنود اقطاعات من الاراضى الصالحة للزراعة التى تدر دخلا للدولة ، وان يقتصر المنح على الاراضى التى اصبحت بسبب ما خلال سنوات الاضطراب ضعيفة الانتاج أو غير منتجة .

ولعل الغرض من السياسة التى اتبعها البطالمة مع اصحاب الاقطاعات العسكرية يمثل نفس الغرض مع الضياع الكبيرة التى منحت لكبار الموظفين . وقد خضعت هذه الاراضى لشرط استصلاح الاجزاء البور وهذه الضياع التى كانت تمنح لصاحبها مدى حياته فقط ثم يستردها الملك بعد ذلك .

وبالنسبة لاراضى الامتلاك الخاصة ، فهى تتألف عامة من البساتين

ومزارع الخضروات والنخيل والكروم وكانت هذه تزرع كلها فى اراضى تتطلب قسطا من الاصلاح ولكنها لاتلائم زراعته القمح والغلال واغلب الظن انها كانت تمنح لاصحابها بموجب عقود ايجار طويلة الأجل ، أو عقود وراثية . وبرغم ان القانون كان يسمح بانتقال ملكية هذه الاراضى من شخص الى آخر الا أننا لانرجح ان اصحابها قد امتلكوها امتلاكا فعليا ، وهذا ما يؤكده أحد المؤرخين حين قال أن الاراضى الخاصة فى عهد البطالمة لم تكن املاكا حرة بالمعنى المعروف انما كانت تستغل استغلالا حرا.

وبفضل هذه السياسة اضاق البطالمة مساحات ساشعة للارض المزروعة فى مصر فقد استخدمت امكانيات الهندسة الاغريقية جميعها للقيام بأعمال الرى والاصلاح واتباع الاساليب العلمية فى الزراعة . وقد تنوعت ايضا المحاصيل الزراعية فى مصر تنوعا كبيرا بفضل ادخال انواع جديدة منها كما زرعت المحاصيل القديمة على نطاق واسع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ضيعـــة أيولونيوس :

لعلة من المناسب ان نتناول بالبحث ضيعة ابولونيوس فى نوموس منف ، كمثال هام يجذب انتباهنا للنظام الاقتصادى للضيعة ، ولنظام منح اقطاعات للموظفين فى مصر على عهد البطالمة .

تحدثنا وثائق زينون بمعلومات كافية عن ضيعة أبولونيوس – الدى،يكتيس لمعروف زمن بطلميوس فيلادلفوس – وهى ضيعة Owpsd كبيرة تقع فى نوموس منف .

أحدى هذه الوثائق مؤرخ بسنة ٢٥٣ ق . م ، وهى رسالة من كليناكس. الى زينون ليقوم بنقل البغال الخاصة به الى ضيعة أبولونيوس فى منف [١]

P.C.Z. 59240 (253 B.C.) L.1. 4.

لكن قبل ان اتعرض لارض الضيعة ونشاطها ، وما تغله من محاصيل زراعية وأعمال رعوية ، لابد أن اذكر أن أغلب المعلومات التى حدثتنا عنها وثائق زينون البردية فى هذا المجال متصلة بضيعة أبولونيوس – الديويكتيس خاصة وان زينون كان وكيل أعمال ابولونيوس ، وشارك بنصيب كبير فى الاشراف على نظان العمل فى هذه الضيعة .

(1) Preaux, Les Grecs en Egypte d' apres les archives de zenon, p. 8. Rostovtzeff, Large Estate, pp. 35 - 55 .

بعد هذه المقدمة البسيطة ننتقل للحديث عن نشاط ضيعة أبولونيوس [١]
أول مشكلة يمكن أن تقابلنا فى دراسة هذه الضيعة هى محاولة تحديد مكانها .

يتضح مما تجمع من مادة أوراق البردى التى نلتزم بها ، أن الضيعة تتكون من قطع متناثرة من الأرض ليس بينها رابطة مكانية واحدة . وهى بذلك تختلف عن ضيعة أبولونيوس فى فيلادلفيا التى نعرف أنها تتكون من قطعة واحدة من الأرض بلغت مساحتها ١٠,٠٠٠ أرورا [٢] .

ولكن كيف يمكننا الوصول من خلال هذه الوثائق الى مكان الضيعة ، هل كانت داخل مدينة منف ذاتها أم متناثرة فى قراها ؟

المادة المعروفة عن هذا الموضوع تبرز لنا مجموعتين من أوراق البردى ، مجموعة أولى يتعلق بجزء من الضيعة فى مدينة منف ، ومجموعة ثانية يتعلق بالقرى المتناثرة على أبعاد مختلفة من المدينة . يتضح من ذلك اذن أن نوموس منف تتكون من عدد من القرى تبلغ ٣٨ قرية [٣] . وانتشرت الضيعة فى خمس قرى منها ، عدا قريتين يعتريهما بعض الشك فى تبعيتهما لضيعة ابولونيوس ، هذا بالاضافة الى جزء الضيعة الذى يقع فى المدينة ذاتها .

---

(١) لقد أفدت كثيرا فى دراستى لهذه الضية من مقالة كتبتها « ايفا فيسهكا » وتعرضت فيها لكل جوانب الانشطة المختلفة الخاصة بالضيعة .

Ewa Wipszycka, Klio, 39, 1961, The of Apollonios the Dioeketes in the Memphite Nome,

(2) Rostovtzeff, Large Estate, p., 62.

(٣) ما أمكن جمعه من الوثائق هو اسماء ٣٨ قرية فى نوموس منف لكن لعلها كانت تتكون من أكثر من ذلك .

أول وثيقة يمكن الاعتماد عليها في محاولة تحديد مكان الضيعة يرجع تاريخها الى ٢٥٦ ق . م وهى رسالة الى زينون من أبولونيوس يطلب منه امداد الجوارى في منف بالكميات اللازمة من الصوف من أجل نسجها في المصنع .

P.C.Z. 59142 (256 B.C.) L.2.

اذا كانت هذه الجملة ترينا وجود البنات العاملات في مصنع الصوف في منف ، فانها توضح ان هذا المصنع يقع فى العاصمة ذاتها وليس فى قراها .

وجاء في طلب مرسل من أبولونيوس الى زينون ليحضر براعم كمثرى وشتل فاكهة من حديقته ومن القصر الملكى [1] فى منف .

Select. Pap. Zenon, 94 (256 B.C.) LL. 1-3.

يتضح مما جاء بالنص ان أبولونيوس يمتلك حديقة في منف ، أى فى المدينة ذاتها .

ثم تحدثنا وثائق أخرى عن انتشار ضيعة أبولونيوس فى قرى نوموس منف . احدى هذه الوثائق يرجع تاريخها الى (٢٥٨ - ٢٥٧ ق . م) أرسل آدايوس مذكرة الى زينون من فلاحى تايتارو Taitaro يسألونه عن اقامة السدود كما فى بقية الاماكن .

P.S.I., 486 (258 / 7 B.C.) LL. 4 - 6 .

---

(١) يبدو أن هذا القصر هو نفسه الذى ذكره استرابون ، وقد رآه خرابا عندما زار منف .
Strabo, XVII. 32 .

هـذا النص يـبرز لنا تبـعية قريـة تايتارو لضيعة أبولونيوس ، حيث أنه كان يهتـم باقـامة الســدود وحفـر القنـوات وغير ذلك من اعـمال الرى فى كـــل أرض ضــيعته . وهذا ما توضـحه كلـمة « فى بقية الاماكن » ولعلها تشير الى بقية أماكن ضيعته .

وعرفت قرية أخرى من رسائل زينون هى قرية تابترا Tapteia ، وجـاء ذكرها فى أكثر من وثيقة .

P.C.Z. 59130 (256 B.C.) L. 17 .

ولعل هؤلاء المزارعين تأخروا فى دفع مايستـحق عليـهـم من ضـرائب ، ولكن ابولونيوس يفضل عدم مضايقتهم لحين حضـور جـامعى الضرائب ، حتى لايأخر العمل فيتسبب فى فساد المحصول . والنص يشير أيضا الى تبعية قرية تابتيا لضيعة ابولونيوس .

وجاء فى وثيـقة ثانية يرجع تاريخـها الى ٢٥٥ ق . م وهى مذكرة من ارتيارموتوس مرسلة الى زينون ليقوم بقياس الأرض فى تابتيا .

P.C.Z. 59188. (255 B.C.) LL. 1 - 5 .

يتضح من وثيقة ثالثة ، ان قيمة تابتيا تقع على النيل مباشرة أو على قناة نهرية ، حيث ان مراكب أبولونيوس كانت ترسو هناك .

P.C.Z. 59176 (255 B.C.) L.8.

وهكـذا تشـير النصـوص الســابقـة الى تبعـيـة قـرية تابتـرا لضــيـعـة أبولونيوس .

(١) ذكر اسم نيكانور على أساس صلته بضيعة أبولونيوس فى منف . ولكن ليس واضحا ماذا كان يعمل . راجع :

Eea Wipssycka, The Δωρεα of Apollonios, pp 168 - 9.

أما القرية الثالثة فهي قرية مويثيمس Moithymis[1] .

تحدثنا وثيقة[2] عن مويثيميس ، جاء بها أن باسس بن بايس يستأخر بها ٨٨٠ أرورا . ومما يبرز تبعيتها لضيعة أبولونيوس هو أنه طلب أن يقتطع من هذه الأرض ٢٤٠ أرورا الى سرابيس وأسكلبيوس ، والى زيوس ١٢٠ أرورا والى اجيساجوراس والد ياسون ١٠٠ أرورا ، والى حورس حارس الايبيس ٥ أرورات .

بالاضافة الى ما تبرزه الوثيقة السابقة عن تبعية قرية مويثيميس لضيعة أبولونيوس فهي ترينا مظهرا هاما من خلق ابولونيوس ، ذلك أنه كان حريصا على اظهار ولائه لآلهه الاغريق وآلهة مصر على حد سواء ، فخصص جانبا من ضيعته لبعض هذه الآلهة . لقد كان ابولونيوس رجل دولة أدرك أهمية اهتمامه بالنواحي الدينية في بلد عرف عن أهله رسوخ عقائدهم الدينية .

ثمة دليل[3] آخر ، فنسمع ان اسكلبيادس الكليروخوس يستأجر قطعة أرض في مويثيميس ، وكان يفلح الارض عمال زينون .

ونسمع من برديات كثيرة ، عن قرية رابعة تتبع ضيعة منف وهي تاسكرو[4] .

وهذا دليل ثان على تبعية تاسكور لضيعة أبولونيوس ، ففي وثيقة مؤرخة

(١) اختلف اسم القرية من وثيقة الى اخرى .

P.C.Z. 59257 (252 B.C.), 59094 (257 B.C.)
59176 (255 B.C.), 59337 (248 B.C.).
P.C.Z. 59783 (not deted)
P.C.Z. 59407 (not dated).

(2) P. Mich. Z. 31 (256 / 255 B.C.) LL. 1 - 8 .

(3) P.C.Z. 59257 (252 B.C.).

(4) P. Tebt. III. 2.889 (early 2nd cent. B.C,) L.13 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢٥٠ - ٢٤٩ ق . م . جاء بها أن ديمتريوس يطلب من زينون تسليمه المركب الموجودة في تاسكرو .

P.S.I. 374 (250 / 491 B.C.) LL. 3-5, 12 - 14 .

بالاضافة الى مانعرفه من هذه الوثيقة عن تبعية قرية تاسكرو لضيعة ابولونيوس ، فهي توضح أيضا انها كانت تقع عل النيل مباشرة أو على قناة نهرية .

أما قرية سوفتيس Sophthis تحدثنا عنها بردية يرجع تاريخها الى ٢٥٦ ق . م جاء بها ان سفراجس احدى العاملات في مصنع الصوف الذى يمتلكه ابولونيوس في منف ذهبت الى قرية سوفتيس في نوموس منف من أجل الحصول على الصوف.

Select. Pap. Zenon, 25 (256 B.C.) LL. 6-7.

ان حصول سفراجس على الصوف الخام من هذه القرية يوضح تبعيتها لضيعة ابولونيوس حيث يتم نسجه في مصنعه بمنف . يبدو أن ضيعة ابولونيوس كانت تربطها رابطة اقتصادية واحدة ، حيث يتم التبادل الاقتصادى بين قرى الضيعة ، وفى هذا دليل على أن أبولونيوس لم يكن رجل دولة فحسب ، بل كان كذلك على دراية كافية بنظم النشاط الاقتصادى ويعمل على ربط ضيعته بروابط اقتصادية واحدة ، وعلى الاكتفاء الذاتى بين أجزاءها .

أما القريتان اللتان يعتريهما بعض الشم فى تبعيتهما للضيعة هما أكانثوبوليس Akanthopolis وتبقى Tephi .

تذكر ايفافيبسيكا [1] فى مقالتها انها لم تعثر على دليل قوى يرجح تبعية القريتين أبولونيوس . بالنسبة لاكانثوبوليس جاءت فى وثيقة [2] للأسف غير مؤرخة ، جاء بها ان رجال ثرامسون يقومون بأعمال الرى فى قرية أكانثوبوليس ، نحن نعرف أن ثراسون [3] يعمل لدى أبولونيوس فى ضيعته بمنف ، ولكن فى الواقع ليس من الحكمة الاعتماد على هذا النص نظرا لعدم صلاحيته .

أما قرية تيفى ، فقد عرفت لنا من بردية [4] واحدة فقط يرجع تاريخها الى ٢٤٨ - ٢٤٧ ق .م ، جاء بها ان بليس قبطان المركب يخبر زينون بأنه سلم أرتميدوريوس فى منف ٥٠٠ أردبا من القمح من

1) Ewa Wipszycka, The Δωρεα of Apollonios p. 172.
(2) P. Mich. Zenon, 92 (not dated).
(3) P.C.Z. 59130 (256 / 254 B.C.);
Select. Pap. Zenon, 90 (256 B.C.).
(4) P. Mich. Zenon, 60 (248 / 47 B.c.).

تيفى . ربما أتى هذا القمح من حقول ابولونيوس ، ولكن ربما أيضا كان مجرد صفقة تجارية ولذلك لانستطيع الجزم بتبعيتها لضيعة منف .

P. Mich. Zenon, 60 (248 or 247 B.C.) LL. 3-5.

مما سبق نستخلص من البرديات السابقة أن ضيعة ابولونيوس تكونت من مساحات مختلفة من الارض تناثرت فى قرى النوموس . ولكن وجدت أيضا بعض مساحات من الضيعة فى المدينة ذاتها . وان بعض القرى التى اشتملت عليها الضيعة يبلغ خمس قرى ، عدا قريتين لانستطيع القطع بأنهما تتبعان الضيعة . ورغم ما حدثتنا به الوثائق عن قرى الضيعة فاننا لانستطيع التأكيد بأن كل قرى هذه الضيعة قد ذكرت فى الوثائق لكن لعلها تمثل على الأقل جانبا من ضيعة أبولونيوس .

على أى حال لعلها محاولة لها أهمية خاصة ، لأنها تلقى الضوء على طبيعة هذه الضيعة ومدى اختلافها عن تلك التى فى فيلادلفيا ، فانها توضح ان ضيعة ابولونيوس شغلت مساحات متناثرة فى عدد من القرى ، ولم يكن لها وحدة أو رابطة مكانية واحدة . ورغم ما تجمع من مادة ، فاننا للاسف لايمكننا تحديد مساحة الضيعة ، ولكنها على أى حال كانت ولاشك مساحة كبيرة .

ولكن كيف كان يتم العمل فى هذه الضيعة الكبيرة ، سواء من ناحية طرق الزراعة والمحاصيل الزراعية ، أو أعمال الرى واقامة السدود ، ثم المراعى وغير ذلك من الأنشطة المختلفة .

من أهم البرديات [1] التى حدثتنا عن ضيعة أبولونيوس ، عن محاصيلها الزراعية وعن طرق استغلال ارضها هى بردية طويلة ، لكن للاسف لم تصل الينا كاملة ، ويبدو أن ماوصل الينا هو نهاية البردية فقط يرجع تاريخها الى سنة ٢٥٦ أو ٢٥٥ ق . م وترجمة النص كما يلى :

« السنة ٣٠ - حسابات أرض أبولونيوس - يقدمها « موسى » [2] .

باسس بن بايس من مويثيمس يستأخر ٨٨٠ أروا ، كل أروا نصيبه منها ٥ أرادب من القمح بالجمع ٤٩٥٠ أردبا .

وهذه المساحة قسمت تبعا لوسائل ابولونيوس الى سرابيس وأسكلبيوس ٢٤٠ أروا ، والى زيوس لابراندايوس [3] ١٢٠ أرورا والى اجيساجوراس والد ياسون ١٠٠ أرورا والى حورس حارس الايبس ٥ أرورات ، خصص لهم من كل أرورا ٥/٨ ٥ ارادب من القمح بالجمع ٥/٨ ٢٦١٥ اردبا .

ويتبقى لباسس ٤١٥ أرورا نصيبه من كل أرورا ٥/٨ ٥ ارادب من القمح بالجمع ٣/٨ ٢٣٣٤ وقد تسلم ايضا بذور من أدليوس .

---

(1) P. Mich Zenon 31 (256 0 255 B. C .).

(٢) كان يشرف على اعمال الزراعة والرعى اثناء عمله بالضيعة .
P. Mich Zenon 31 (256 / 255 B.C.).
P.C.Z. 59086 (257 B.C.).

(٣) الاله المحلى للكاربين
C.C. Edgar, P. Mich Zenon , Introduction, p. 95.

وسلم الينا برسيم ٢٩,٨٠٠ ربطة .١٤٩ اردبا من القمح . بالاضافة الى ١٣٤ دراخمة ١,٥ أوبل من البرسيم المباع .

بيع قشر القمح فى الجرن بما يساوى ٢٧ دراخمة ، والاينكوس (نوع من الفول) ٢٠ دراخمة .

أما ترجمة الجزء الثانى من نفس الوثيقة السابقة فهو كما يلى :

« نسبة من الحساب يقدمها موس عن الارض التى تبلغ مساحتها ١٠٠ أرورا – ارض ياسون تبلغ ١٠٠ أرورا . منها ١٣ أرورا تنتج برسيم ، ولهذه الارض ١,٥ اردبا من البذور لكل أرورا ، بالجمع ١٦,٥ ارادب . ويعطى الى الزراع اوبل لكل أرورا ، بالجمع ٢ دراخمة وأوبل .

أما انتاج الاراكوس المزروع على مساحة ١٦,٥ أروا ، باعه موس بما يسلوى ٧ دراخمة للارورا بالجمع ١١٦ دراخمة ٣ أوبل [1] وتسلم المبلغ .

ولهذه الأرض ١,٥ أردب لبذور الاراكوس وتسلم مبلغا من المال ولم يدخل فى حسابات باولونيوس .. أجر العمال ... دراخمة ، ٥ أوبل ، للعمل فى السد ٢٠ دراخمة ، للاراكوس ٢٠ دراخمة ٢ أوبل ، ثمن الشعير .... دراخمة ٥,٥ أوبل ، ويتبقى ما تسلمه حارس المراعى» .

يمكننا أن نستخلص من هذه الوثيقة عدة أشياء ، أولها انها تحدثنا عن قطعة أرض بلغت مساحتها ٨٨٠ أرورا فى ضيعة أبولونيوس بقرية

---

(١) العدد الصحيح هو : ١١٥ د. ٣ أوبل .

موبثيميس [1] فى تومـوس منف. واستـأجـر بامس بن بايس هذه الأرض ، ويبدو أنه هو المسئول عن زراعتها رعما تغله من محاصيل .

ونستخلص كذلك من الجزء الأول منها ، وهو حساب الأرض الذى يقدمه موس ، كيفية استغلال وكيفية التعامل بين الضيعة والمستأجر ، فيلاحظ أن ابولونيوس نظم استغلال هذه الارض تنظيما دقيقا وكانت علاقة ابولونيوس بالمستأجر ترتكز - فى الغالب - على عقود مكتوبة تحتم عليهم زراعـة الأرض التى استـأجـرها ، ويشـرف على الأرض وزراعتـهـا وعـمـل الحسابات اللازمة موظف لدى ابولونيوس .

وما تشير اليه البردية ايضا ان المستأجر كان له نصف المحصول . فانه من المرجح ان متوسط غلة الارور من الارض تبلغ حوالى عشرة أرادب . وهنا نصيب باسس - مستأجر الارض - يبلغ $\frac{٥}{٨}$ ٥ أردب من القمح لكل أرورا . لقد بلع نصيبه $\frac{٣}{٨}$ ٢٣٣٤ اردبا من ٤١٥ أرورا بعد ان اقتطع أبولونيوس اجزاء من ضيعته لبعض الالهه والافراد . ويبدو أن ذلك كان يمثل نصف انتاج الارض ، أما النصف الأخر فيذهب لابواونيوس . ويزرع فى هذه الارض القمح والبرسيم والاراكوس ، كذلك جزء منها يستغل لرعى الماشية التى يبيعها باس ويسلم ثمنها الى موس .

لكن ليس واضحا اذا كان المستأجر حرا فى زراعة أرضه ، ولعله كان

---

(1) C.C. Edgar, P. Mich. Zenon, Introduction, p. 95.

وشكله ادخار فى تبعية هذه الارض لضيعة أبولونيوس ولكن هذه الوثيقة تبرز تبعيتها حيث أنها تقع فى قرية موبثيموس ، وهذه تتبع ضيعة ابولونيوس كما سبق القول .

يقترض البذور من ابولونيوس ، الذى كان يعجل لضمان حسن استغلال اراضى الضيعة ، حيث يوفر الماشية والبذور الى جانب الاهتمام بمشروعات الرى المختلفة .

ويقوم المزارع بنقل المحصول بعد ذلك الى الجرن ليدرس ، ويتم بعد ذلك بيع قشر القمح أيضا

واذا كنا لانعرف مساحة ضيعة أبولونيوس فى منف فاننا نستخلص من هذه البردية ان مساحة الضيعة كانت ولاشك مساحة كبيرة ، فعلى الاقل مستأخر واحد بها كان يستأجر فى بادىء الامر ٨٨٠ أرورا .

أما الجزء الثانى من نفس البردية فيحدثنا عن مساحة ١٠٠ أرورا استأجرها ياسون [1] وقدم موس الحساب . ولم يذكر شيئا فى الجزء الأول عن هذه الارض الا اذا كانت هى نفسها التى تخص والد ياسون وذكرت فى الجزء الاول . لكن لعلها لاتشكل جزءا من ٨٨٠ أرورا ، ولكن ١٠٠ أرورا أخرى استأجرها آخر .

هذه البردية تبرز لنا كيفية التعامل الذى يتم بين المستأجر وصاحب الضيعة . ويلاحظ ان استغلال ارض الضيعة يشبه الى حد كبير استغلال ارض الملك وربما ايضا تدفع كل ماهو مفروض على ارض الملك من ايجار وضرائب وكان ابولونيوس صاحب الضيعة بمثابة وسيط بين المزارعين

---

(١) ربما كان ياسون هذا هو نفسه الذى كان يمتلك كليروس فى نوموس منف .
P.C.Z. 59789 (not dated) L.L. 16 - 18 .

والملك ، فهو الذى يؤجر الارض للمزارعين ويمدهم بالبذور والماشية ويأخذ منهم الايجار .

لكن يبدو أنه كان لصاحب الضيعة الحق فى أن يستغلها كما يشاء .

يمكننا بعد ذلك ان نميز ثلاثة أقسام نظمت بها زراعة ارض الضيعة . أما القسم الاول فيوضح ان الارض كانت تقسيم الى مساحات – فى الغالب – كبيرة يستأجرها مستأجرون مستقلون .

ونعرف من الوثيقة السابقة ان باسس بن بايس كان يستأجر ٨٨٠ أرورا فى قرية مويثيميس ، ثم بعد أن منح ابولونيوس اجزاء من ضيعته للآلهه كان لايزال يستأجر بها مساحة كبيرة بلغت ٤١٥ أرورا .

أما القسم الثانى فكان يستأجره فلاحون مستقلون مسئولون مسئولية كاملة عما يتم فى أرضهم من اعمال . هذا ما توضحه وثيقة [١] جاء بها ان ادايوس أحد مديرى الضيعة تسلم مذكرة من فلاحى تايتارو ، يسألونه فيها عن اعمال الرى فى الارض التى يستأجرونها . فلو أن هؤلاء كانوا فلاحين يشرف عليهم مستأجرون لما استطاعوا ان يرسلوا مذكرتهم مباشرة الى مديرى الضيعة . ويبدو أن هذا القسم كانت أرضه تتكون من مساحات اصغر من القسم الاول .

أما بقية الارض فكان يستأجرها عمال تشرف عليهم ادارة الضيعة . والبردية [٢] التى تحدثنا عن هذا النوع هى رسالة من موس بخصوص سيمبوتس ، الذى أعطى قطعة من الارض ، ولكنه يرفض ضمها اليه ولم

(1) P.S.I. 486 (257 B.C.).
(2) P.C.Z. 29132 (256 B.C).

يقم بحصاد محصولها. ولذلك فان موس يخشى فساد المحصول باعتباره المسئول عنه .

لعل هذه البردية توضح القسم الثالث من تقسيم أرض الضيعة ، ان مسئولية حصاد المحصول وعدم فساده ، ومسئولية الارض كاملة ، تقع على عاتق ادارة الضيعة ولاتقع على عاتق زارع الارض .

وبذلك يمكننا ان نجمل القول بأن نظام تقسيم أرض منف يشبه الى حد كبير النظام الذى طبق فى فيلادلفيا كما يذكر وسترمان [1] . فانه يوضح ثلاثة اقسام من الارض .

١- أرض تسلم الى مستأجرين غالبا ما يكونون مقدونيين .

٢- أرض يزرعها صغار الفلاحين

٣- ارض تزرع تحت اشراف زينون ووكلائه

وبمقارنة تقسيم أرض فيلادلفيا بأرض منف نجد أن مستأجرى الارض ذات المساحات الكبيرة فى منف ، كانوا مصريين بينما فى فيلادلفيا نجدهم مقدونيين ولعل ذلك يرجع الى الاستقرار الواضح للعناصر الاجنبية فى فيلادلفيا .

وتوجد بردية ثانية [2] يمكننا الاعتماد عليها فى توضيح طرق زراعة ارض منف . تؤرخ البردية بسنة ٢٥٠ ق . م . وجاء بها ان هناك نوعين من طرق

---

(1) W.L. Westermann. A Lease of the estate of Apollinion in Memoirs of the American Academy in Rome 6. 1927 sqq.
Apud : Ewa Wipszycka, The Δωρεα of Apollonios in the Memphite Nome. p. 175 .

(2) P.C.Z. 59292 (250 B.C.).

الزراعـة ، النوع الاول وهو الذى يزرع تحت اشـراف زينون ووكـلائه ويتم تسليم البذور الى المزارعين .

النوع الثانى وهى الارض التى تؤجر الى صغار الفلاحين

ومن أجل تنظيم العمل فى هذه الضيعة الكبيرة كان لابد لابولونيوس من زيادة اهتمامه بالاصلاحات الاقتصادية حتى يستطيع الافادة افادة كاملة من زراعة الارض واستغلالها .

نرى أن لابولونيوس اهتماما خاصا ببناء السدود وأعمال الرى المختلفة التى نسمع عنها من وثائق كثيرة [1] . لكن أفضل الوثائق تعبيرا عن أعمال الرى هى التى يرجع تاريخها الى ٢٥٧ ق . م . جاء بها ان الفلاحين العاملين فى أرض ابولونيوس فى تاتيارو يسألونه عن بناء السد فى الأرض كما فى بقية الأماكن .

ويتلخص عمـل ابولونيوس فـى اقـامـة السدود وشـق الـقنوات فى كل ارض ضـيعته ، فـفـى نـص يرجـع الـى (٢٥٦ - ٢٥٥ ق . م) جـاء بـه ان مـوس دفـع لمزارع ٢٠ دراخـمـة من أجـل العـمـل فى السـد .

---

(1)P.S.I.486 (258/257 B.C.).
P.S.I.488 (258/257 B.C.),
P.S.I.595 (no dated).
P. Mich. Zenon,31 (256/255 B.C.).

P. Mich. Zenon31 (256/255 B.C.) L.33.

وتسمع من وثيقة [١] اخرى عن حفر قنوات فى مزرعة العنب .

ونتيجة لهذا الاهتمام قدمت ضيعة ابولونيوس فى منف محاصيل متنوعة كبيرة . ولكن أهمها جميعا هو القمح [٢] ثم الشعير [٣] والذرة [٤] ونبات العدس [٥] والاراكوس (نوع من الفول)[٦] لكن للاسف لايمكننا تحديد كمية الانتاج السنوى للضيعة نظرا لأننا لانعرف مساحتها.

أما الجزء الخاص من الضيعة المخصص لانتاج الفاكهة فقد كان يتطلب عناية كبيرة ، اذ أن رسائل ابولونيوس ترينا انه كان دائما يذكر زيون بموسم غرس براعم الفاكهة ، ويطلب اليه الحصول على اكبر عدد ممكن من صغار الاشجار من منف [٧] لزراعتها فى فيلادلفيا . وقد ورد فى الرسائل ذكر الكروم والزيتون وبالتفاح والكمثرى . وفى رسالة من ابولونيوس الى زينون يخبره فيها بانه موسم زراعة العنب والزيتون ، ويعده بامداده بكل ماهو مفيد من براعم الفاكهة من منف ليقوم بزراعتها فى ضيعته بفيلادلفيا .

(1) P.C.I. 595 (not dated) . L.7.
(2) P.Mich. Zenon, 31 (256/255 B.C.). L.9.
(3) P.S.I. 492 (258/ 257B.C.), L.1.
(4) Ibid., L.2.
(5) P.C.Z. 59147 (256/255 B.C.). L.16.
(6) P. Mich. Zenon, 31 (256 / 255 B.C.). L. 16.
(7) S.B. 6811 (2[illegible] B.C.).

وفى رسالة أخرى يرجع تاريخها الى ٢٥٦ ق . م يطلب ابولونيوس من زينون ان يقوم بزرع شجر الكمثرى [1] بعد أخذ النبات من حديقته فى منف.

مما سبق يتضح لنا ان منف كانت تغد كمشتل يخدم ضيعة ابولونيوس فى فيلادلفيا وذلك لجودة وخصوبة أرضها .

وثيقة أخرى تحدثنا عن وجود زراعة الزيتون فى منف ، جاء بها ان ابولونيوس يطلب الى زينون ان يأخذ من الحديقة فى منف مالا يقل عن ٣٠٠٠ ، ويطلب منه أن يجمع محصول الزيتون ويفرزه.

يبرز لنا هذا النص ان الزيتون كان يزرع فى منف ابكميات هائلة .

أما عن مزارع العنب فقد انتشرت فى كل نوموس منف سواء فى ضيعة أبولونيوس أو خارجها ، نسمع من وثيقة [2] غير مؤرخة عن حديقة عنب تقع فى كيركه KerKe بنوموس منف وان المزارع (اسمه غير موجود بالوثيقة) يخبر زينون ان هذا العنب يتم تصنيعه الى خمر

ونعرف من وثيقة أخرى عن فرض الضرائب على مزارع العنب ، جاء

(1) P. S. I. 567 (not dated).

بها أن ياسون يبلغ زينون ، بان ليون فرض ضريبة على مزرعة العنب الحديقة ، وهى ضريبة متأخرة عن خمس سنوات مضت وقدرت الضريبة على أساس ٣ دراخمات لكل أرورا.

وفى موضع [١] آخر من نفس الوثيقة يتضح انه حينما لايتم دفع الضرائب المفروضة على مزرعة العنب كان جامعوا الضرائب يفرضون الحجز على النبيذ حتى يتم تسليم المبلغ المستحق .

وثيقة أخرى [٢] - غير مؤرخة - تتحدث عن بيع ٢٩ متريتس من الخمر من قرية تاسكرو فى ضيعة ابولونيوس .

كذلك غرست فى الضيعة صفوف من اشجار الصنوبر من أجل استغلال اخشابها وتحسين منظر الاقليم .

فى رسالة من [٣] أبولونيوس الى زينون يطلب منه غرسى مالا يقل عن ٣٠٠ شجرة من الصنوبر فى كل المزرعة وحول مزرعة العنب . ان هذه الوثيقة توضح الاهتمام بغرس أشجار الصنوبر ، ولكنها لاتذكر مكان غرس الاشجار ، ولكن يمكننا القول ان غرس هذا النوع كان يتم فى منف وليس فى فيلادلفيا ، لأنه يتضح من وثائق أخرى أهمية قرية ميا [٤] Mea فى نوموس منف فى انتاج الاخشاب ، بل وتصديره الى فيلادلفيا . اذن نستخلص من ذلك ان البردية السابقة كانت بالتأكيد تخص منف وليس فيلادلفيا [٥] .

(1) Select. Pap. Zenon,52 (250B.C.) LL.10-12.
(2) P.S.I.682 (not dated).
(3)P.C.Z.59157 (256 B.C.) L 1.
(4)Select Pap Zenon,45 (256 B.C.), L4.
(5) P.C.Z.59449 (not dated).

وتشير الوثائق الخاصة بضيعة أبولونيوس فى منف الى ان الأراضى الصالحة للزراعة كانت تدفع ضرائب للحكومة وهذا ما نستخلصه من وثيقة مؤرخة [1] بسنة ٢٥٦ ق .م أو ٢٥٤ ق . م . وهى مذكرة الى زينون ليتم العفو عن أحد الفلاحين من قرية تابتيا الذى لم يدفع الضريبة المستحقة عليه الى ان يأتى جامعو الضرائب [2] حتى يشارك فى فلاحة الارض .

يتضح من بردية اخرى هامة ان هناك منحا من نوع الكايروى فى اقليم منف مثل تلك الممنوحة اباسون ، كما سبق القول لكن بالاضافة الى ذلك فهى تشير الى حقيقة هامة ، وهى ان ابولونيوس كان يستأجر هذه الارض لحسابه من الكلدروخوس ، ويفلحها مزارعون من رجاله والنص كمايلى :

ومما يجعلنا نرجح هذا الرأى هو أن ارتميدووس يعمل فى ضيعة أبولونيوس، كذلك فان ياسون هو نفسه الذى ذكر فى نصر [3] آخر وقد منح ١٠٠ أرورا فى أرض ابولونيوس فى قرية موبثيميس .

وترينا خطابات ابولونيوس اهتماما بتربية الماشية لايقل عن اهتمامه بغرس أشجار الفاكهة وزراعة الحبوب ، وكان ابولونيوس يمتلك قطعانا كبيرة من الماشية والاغنام والماعز والخنازير . كذلك كان يوجد قطيع من اغنام مليتوس عنى بها ابولونيوس عناية كبيرة حتى أنه يقال ان ابولونيوس أحضر معها رعاة

(1) P.C.Z.59130 (256/154 B.C.). Select. Pap. Zenon,90 (256 B.C. ?).

(٢) يقوم رجال أبولونيوس مثل بوريالوس وسبندائس بجمع الضرائب المستحقة على الارض للحكومة من الفلاحين ثم يسلموها الى جامعى الضرائب من قبل الحكومة .
Select. Pap. Zenon,90 (256 B.C.?).

(3) P. Mich. Zenon.31 (256/255 B.C.).

ملحين بفن تربيتها والعناية بها من آسيا الصغرى [1] . ولأصواف هذه الاغنام قيمة كبيرة جدا ، الى حد أنها كانت تغطى بالجلود لرقايتها وأنها كانت تنزع منها بدلا من أن تجز [2] .

ولكن هل كانت هذه الاغنام تخص ابولونيوس ، أو أنها كانت ملكية خاصة لزينون ؟ لقد كان زينون يمتلك كذلك قطعانا كبيرة من الماشية والاغنام ، لكن ليس من السهل دائما التفرقة بين ما يمتلكه ابولونيوس أو زينون .

ويرى أحدى النصوص الى ملكية زينون لبعض الاغنام وثلاثة خيول [3] .وفى وثيقة أخرى [4] ووضح بها بيان مقدم الى زينون بعدد الماعز التى ذهبت الى منف ، قدمه أحد الرعاة ويدعى هرمياس .

هكذا تشير النصوص السابقة الى نتيجة هامة وهى أن أبولونيوس قد اعتنى بتربية الماشية عناية كبيرة ، ثم بالاضافة الى ذلك اعتنى باحضار انواع من ماشية مايتوس ، وذلك لتحسين الانواع وبالتالى الحصول على أفضل الإصواف وهو الصوف المايتى من اجل تصنيعه فى مصنعه بمنف ، الذى كان يحتاج الى امدادات مستمرة من الصوف الخام .

كذلك كانت الطيور مثل الدجاج والأوز تربى بكثرة فى ضيعة

---

(1) P.C.Z,59195 (254 B.C.) Preaux, Ec. Roy. p.107.
(2) C.C. Edgar, Pap. Mich, Zenon, P.159. P.C.Z.59430 (not dated).
(3) P.S.I.372,377 (250/249 B.C.).
(4) P.C.Z.59429 (not dated).

ابولونيوس [1]

ومن أهم ما اعتنى به ابولونيوس هو تربية الخيول . نجد فى وثيقة يرجع تاريخها الى ٢٥٠ق . م . دليلا على قيام أبولونيوس بتربية الخيول فى منف. جاء بها ان فيليب سايس الخيل يذهب بها من منف الى فيلادلفيا.

يبدو أن اهتمام ابولونيوس بتربية الخيول يرجع الى انها تعد تجارة رابحة، هذا بالاضافة الى أنه كان رجل الدولة ، أدرك الأهمية العسكرية للخيول فى مشاركتها لسلاح الفرسان ، ومن هنا كان اهتمامه بتربية الخيول.

ومن الطريف ان تعلم ايضا ان الفيلة [2] كانت تربى فى منف ، ويحدثنا بترى عن شحن كمية هائلة من الحبوب على مركب خاصة حمولتها ٩٠٠ اردب الى منف من أجل الفيلة .

ما كان مكلفا به من أعمال وتعدد مجال نشاطه . ولكن يلاحظ انه اذا حاولنا تقسيم اعماله ، يتعذر علينا معرفة متى كان يباشر بعض هذه الاعمال بوصفه وكيل اعمال ابولونيوس ومتى كان يؤدى واجبات عامة ، ومتى كان يباشر اعمالا خاصة به شخصياً .

نستخلص مما تقدم من مجموعة أوراق البردى التى حدثتنا عن ضيعة ابولونيوس فى نوموس منف ، ان هذه الضيعة لعبت دورا كبيرا وعظيما فى مجال الاقتصاد المصرى . وتوحى الادلة بأن منح الضياع ظهر لأول مرة فى

(1) P.C.Z.59266 (mid. III cent. B.C.).
(2) Preaux, EC. Roy. PP. 34 - 36 .

عهد بطلميوس فيلادلفوس [1] وكان تطورا هاما فى مجال الاقتصاد المصرى.

فقد كان نظام الضيعة نظاما جديدا فى مجال الرى والزراعة ، أما بالنسبة للرعى فقد ظهرت نظم فنية جديدة أدت الى تجميع سلالة الماشية وبالتالى الى جودة الصوف .

وعلى أى حال فان نظام الضيعة يدفعنا للنظر فى أصل هذا المظهر الاقتصادى الذى كان نتيجة لغزو المقدونيين واليونانيون أرض مصر .

ثانيا : الصناعة :

كان طبيعيا ان تكون مصر عريقة الحضارة وفيرة الحاصلات ، أهلة بالجنسيات المختلطة وطنا لعدة صناعات مختلفة ، كذلك تمخضت فتوحات الاسكندر عن فتح افاق واسعة أمام النشاط الاغريقى هذا الى جانب ،ماعرف عن مصر من تقدم ملحوظ فى مجال الصناعات المختلفة فى عصر الفراعنة .

لكن للاسف نجد أن معلوماتنا بالنسبة للصناعة قليلة عادة وان نظام الاحتكار الملكى الذى طبقة البطالمة فى مصر وهو النظام الذى لم يكن موحدا تجاه أوجه الانشطة المختلفة ساعد على ازدياد الامر صعوبة . وذلك لأن الاساس الذى قامت عليه سياسة البطالمة هو سيطرة الدولة على اقتصاد البلاد . لكن اختلفت درجات هذه السيطرة بين الاحتكار التام والاشراف الجزئى [1] .

---
(1) Rostovtzeff. Large Estate, P.122.
(2) Preaux, EC. Roy. pp. . ff

فلقد اقتضت سياسة البطالمة تنويع الاحتكار الحكومى ليتفق والاحتياجات المختلفة للدولة ، لذلك احتكر البطالمة صناعة الزيت والملح احتكارا كاملا- وكان الاشراف الجزئى على صناعة المنسوجات فلم يطبق عليها البطالمة سياسة الاحتكار الكامل ولكن اكتفت الدولة بأن يكون لها مصانعها وسمحت بوجود مصانع أخرى خاصة تعمل تحت اشرافها . وبفضل هذه الاحتكارات حصل البطالمة على دخل هائل .

أما الاحتكار الذى نعرف عنه أكثر المعلومات مكان احتكار الزيت وكانت مصر تزرع النباتات الزيتية مثل السمسم والخروع وبذر الكتان . وعلى عهد البطالمة فرضت وكان صارمة على زراعة هذه النباتات ، فحدوث الحكومة مساحة الارضى التى تزرع بها فى كل اقليم ، وراقبت زراعتها وحصادها مراقبة دقيقة . وكانت الحكومة التى هى تمد البذور ، ثم يحصر المحصول حصرا دقيقا ويقدم ربعه لضريبة للحكومة بينما يقوم الزراع بتسليم باقى المحصول للمتعهدين باسعار محددة من قبل الملك .

يلى ذلك نقل المحصول الى معاصر الزيوت الحكومية و خاضعة لرقابة دقيقة من الحكومة ، لأن الدولة لم تسمح بوجود معاصر فى ملكية خاصة باستثناء معاصر الزيوت الخاصة بالمعابد التى كانت تعمل ولكن فى نطاق ضيق جدا . وكان عمال الزيت رغم كونهم احرارا ، الا أنهم يتبعون الحكومة وملزمون بالعمل فى معاصرها حسب الشروط التى تمليها عليهم . بعد ذلك يخرج الزيت الى محلات تجارية معينة فى المدن والقرى مرخص لها بيع الزيت ولكن باسعار مرتفعة تحددها الدولة على نحو يحقق لها الربح

أوفير قدر هذا الربح [1] بما يتراوح بين ٧٠٪ على زيت السمسم ، ٣٠٠٪ أو أكثر على زيت الحنظل ، أما زيت الزيتون فقد فرضت عليه ضريبة استيراد بلغت ٥٠٪ .

أما الاشراف الجزئى يتمثل فى سياسة مختلفة ، هو احتكار المنسوجات التى كانت تصنع من الكتان أو من الصوف أو من التيل ، وقد سمح للمعابد بالاستمرار فى صناعة منسوجاتها الكتابية الدقيقة التى اشتهرت بها لاستخدامها فى المعابد وكان عليها أن تسلم للملك كمية معينة من انتاجها . فى هذه الصناعة سمح البطالمة لقطاع ثالث يعمل فى هذا المجال وهو نسيج الافراد من اصحاب المصانع الخاصة أو الذى كان ينسج فى المنازل ، وفرضت على الافراد كما فرضت على المعابد ، ان يقدموا لها كل عام كمية معينة من المنسوجات المختلفة حسب مواصفات معينة . ثم كانت مصانع المعابد والافراد حرة فى الانتاج والتصدير .

الى جانب هذه الصناعات ازدهر فى مصر عدد من الصناعات الاخرى مثل صناعة الورق من نبات البردى وصناعة الزجاج والفخار والخمور والعطور والتوابل وصناعة الفنون الصغرى ، كما اشتهرت منف العاصمة القديمة بالصناعات الخشبية ، فقد أهتم وزير المالية بزراعة اشجار الصنوبر ليستخدم هذا الخشب فى بناء السفن ونحن نعرف أن منف اشتهرت بصناعة بناء السفن منذ العصور الفرعونية. واذا كانت لمنف فى العصر الفرعونى شهرة خاصة فى صناعة المعادن وخاصة الانية الذهبية والفضية والبرونزية ، فان هذه الصناعة انتعشت ايضا على عهد البطالمة الا اننا لانعرف بالتحديد

(1) Tarn, Hellenistic Civilization p. 167.

درجة تدخل الدولة تجاه كافة هذه الصناعات ، سواء خضعت للاحتكار التام أو الاشراف الجزئى .

وبفضل هذه الاحتكارات ، ومن ايجار الاراضى الملكية ، حصل البطالمة على دخل هائل . هذا بالاضافة الى الضرائب التي فرضها الملك . كانت هناك ضريبة على اراضى الاقطاعات ، وضريبة على الميراث ، وعلى التراخيص التى تعطى لتداوله مختلف انواع الحرف ، ضريبة على المبيعات ، ضريبة على العقارات وايضا ضريبة على الرأس ، ولكن معلوماتنا عنها لازالت قليلة . وكان هناك ايضا نظام محكم دقيق للرسوم الجمركية التى فرض بعضها لحماية المنتجات المحلية . وكان جامعو الضرائب يخضعون لرقابة صارمة فى كل خطوة حتى لاتضار مصالح الملك .

ثالثا : التجـــارة :

لقد بذل البطالمة جهدهم من اجل تنشيط التجارة الخارجية ، فبرغم ثراء مصر الزراعى ، الا أنها كانت فقيرة فى كثير من المنتجات ، وكان لزاما عليها أن تعثر على هذه المنتجات من الخارج. وعلى أى حال فان معلوماتنا عن سياسة البطالمة للتجارة الخارجية قليلة . الا أننا نستطيع القول ان من بين ما استوردته مصر على عهد البطالمة ، الاخشاب والسمك المملح ومختلف انواع الفاكهة والعبيد والخيول .

وفى مقابل ذلك كانت مصر تصدر أهم منتجاتها وهو القمح ، فقد كانت مصر أكبر منتج للغلال فى شرقى البحر الابيض المتوسط ، الا أننا لانعرف مدى احتكار الدولة لأهم صادراتها ، الا أن الادلة الوثائقية اثبتت ان الدولة اخضعت تصدير البردى لسيطرتها التامة . فقد كانت مصر تنفرد

بتصديره الى ارجاء العالم القديم . كما صدرت الكتان والزجاج ولاسيما النوع متعدد الالوان الذى اشتهرت به الاسكندرية . وكذلك المرمر وغيره من مختلف الاحجار .

لقد كانت مصر مركزا لتجارة عابرة نشيطة فمن الصومال وشرق افريقيا وبلاد العرب والهند ، كان يأتى الذهب والاحجار الكريمة واللؤلؤ والعاج والقطن والحرير ، وكانت هذه تنقل برا ومن موانى البحر الأحمر عبر الطرق الصحراوية الى فقط على النيل . ولهذا وتيسيرا للنقل الداخلى ، يحتمل أن يكون البطالمة اول من عمم استخدام الجمل فى مصر .

أما الطريق الثانى فكان القناة التى تربط فرع النيل الشرقى بالبحر الأحمر ، تلك القناة التى حفرها سيزوستريس أحد ملوك الاسرة الثانية عشرة ويقال أن حفرها اعيد فى عهد رمسيس الثانى ، وكذلك دارا الأول ، واجزر كسبس ملوك الفرس . أما الطريق الثالث فهو طريق اعالى النيل ولعله كان اقدم هذه الطرق .

وقد وجه البطالمة اهتمام كبير ليس فقط الى طرق التجارة فى بحر ايجه بل ايضا الى طرق التجارة الوافدة من افريقيا والهند وبلاد العرب والى جعل مصر الطريق الرئيسى لمرور تلك التجارة صوب الاسواق الغربية .

وقد عثر فى حوض البحر الابيض المتوسط على عدد من النقوش تثبت وجود علاقات تجارية حرة بين الاسكندرية وجزيرة ديلوس . كما شملت تجارة مصر الخارجية معظم الدول المطلة على البحر الابيض المتوسط مثل فلسطين وسوريا واسيا الصغرى . وبلاد اليونان فى الشرق وكذلك ايطاليا وشمال افريقيا فى الغرب .

اذن لقد كان لمصر فى العصر البطلمى تجارة خارجية حرة قام بها افراد من رعايا الدولة الى جانب تجار اجانب ، وان هذه التجارة شملت البحرين الابيض والمتوسط .

رابعـــا : العملة :

لم يقتصر نشاط البطالمة الاقتصادى على الميدان الزراعى والصناعى والتجارى ، وانما وضعوا نظاما اقتصاديا نقديا متكاملا فى بلد كان اساس المعاملة فيه ينهض على نظام المقايضة . لقد سك الملك بطلميوس الاول العملة ذهبية وفضية وبرونزية ، وفيما بعد ادخلت على هذه العملة تعديلات كثيرة . وكانت النسب بين العملة الذهبية والفضية وبين الفضية والبرونزية تتغير من وقت لآخر . وانشئت المصارف فى انحاء البلاد ، ونستطيع ان نتبين من وثائقنا البردية وجود نظام مصرفى متكامل لكن هذا لايعنى ان النظام الاقتصادى القديم قد اختفى تماما ، لأن ايجارات الاراضى الملكية وبعض المرتبات كانت تدفع عينا . كذلك لم تختف المقايضة من الحياة التجارية .

خامسا : استعراض الحالة الاقتصادية على عهد البطالمة المتأخرين :

ان الحكم البطلمى قد عاد على مصر فى أول عهده بتقدم عظيم فى مجال النشاط الاقتصادى . فقد أتى هذا الحكم بنظم جديدة فى مجال الزراعة والرى ادت الى انتعاش فى الزراعة والمحاصيل الزراعية ، ولقيت الصناعة تشجيعا كبيرا . فحين وجه البطالمة عنايتهم الى النهوض بمرافق مصر الاقتصادية لم يعتمدوا على خبرة المصريين المتوارثة فحسب ، بل اعتمدوا ايضا على دارية الاغريق الفنية والحركة العلمية الاغريقية . كذلك

راجت التجارة . فان البطالمة الاوائل بوجه خاص لم يدخروا وسعا فى مجهوداتهم لتقدم المرافق الاقتصادية للدولة .

لكن لم يقدر لمصر الاحتفاظ بهذا المركز العظيم ، وتعطينا وثائق القرن الثانى ق . م . صورة حية عن توتر العلاقات ، وظهور المفاسد وكثرة اعمال العنف فقد شهد عهد بطلميوس الرابع ويليه بطلميوس الخامس بداية فترة الانهيار الشديد ويدل ما ورد فى قرار حجر رشيد ١٩٦ ق . م على مدى سوء الحالة فى عهدهما .

ان دراسة حجر رشيد تعطى صورة مؤلمة لاحوال مصر فى السنوات الأخيرة من حكم بطلميوس الرابع وبداية حكم الخامس . فالى جانب قرارات العفو والامتيازات التى قدمها الملك ، نجد ضغط الضرائب ، سرعة تراكم الديون ، السجون مليئة بالمجرمين ، كثير من المجرمين منتشرين فى البلاد يعيشون على النهب السرقة ، والنتيجة المتوقعة لكل ذلك ضآلة العمل وافقار البلد من سكانه ، ترك الحقول وفساد المزروعات واهمال اعمال الرى والترع والقنوات وهذه الشرور لاتلبث ان تتفاقم زمن الحرب [1] .

واخذت الحالة تسوء دواما باطراد ، فازداد التدهور السريع فى عهد بطلميوس السادس . ويدل المنشور [2] الذى اصدره عام ١٦٤ ق . م على مجهوداته فى محاولة اصلاح شأن الحياة الاقتصادية .

وابلغ دليل على هذا التدهور هوبيان بوارجتيس الثانى . الملك بطلميوس الثامن .

(1) O.G.I.S. 1 90 Rostovzeff. SEHHW p. 714.
(2) U.P.Z.I. 110

بيان [1] يوراجتيس الثانى هو مجموعة من القرارات وضعها الملك بالاشتراك مع اخته وزوجته فى العام الثانى والخمسين من حكمه ، ويعتبر ذلك البيان من الوثائق ذات الاهمية الاولى فى برديات العصر البطلمى المتأخر ، فهو يقدم لنا صورة واضحة للحالة التى كانت قائمة فى مصر فى القرن الثانى ق . م لقد عمل الملك جاهدا حين اصدر بيان هذا الاصلاح مافسد من امور البلاد ، وقد غطى البيان الجوانب الاربعة . الدينية والاقتصادية والادارية والاجتماعية . وكانت من أهم قراراته القرار الذى تنازل فيه عن الديون المتأخرة على الجميع فقد ازاح بهذا القرار عن كاهل المدينين ثقل التزاماتهم التى عانوا منها والتى كانت سببا فى هجر البعض لاراضيهم والتجار البعض الاخر الى المعابد للحماية . وكذلك القرار الذى سمح فيه لاصحاب الاقطاعيات بتملك الارض والاحتفاظ بها أو بيعها أو توريثها ان هذا القرار كان تعميما لسياسة سابقة كانت قاصرة على الاغريق وطبقها يوارجتيس الثانى على المصريين . ان الملك البطلمى لم يضع بيانه هذا عفوا ولكنه كان يعمل على ايجاد حل لكل مشكلة واصلاح ما فسد من امور البلاد ولكن البيان رغم تنفيذ بعض ما جاء به ، الا أن باقى بنوده لم تنفذ . كذلك فان الاصلاح كان يحتاج لحزم شديد ومقدرة على الادارة اكثر مما تتوفر لشخص الملك أو لادارته فى اعقاب فترة قاسية من الانقسام والحروب الاهلية . ولكنه استطاع بهذا البيان ان يحد بعض الشيء من الفوضى التى كانت قائمة على الاقل فى خلال العامين الذين امضاهما وهو على قيد الحياة بعد صدور بيانه .

(1) P. Jept. 5 A.D. 118 .

وثيقة بردية ثالثة [1] توضح لنا زمن الاضطراب والفتن الداخلية وتصور لنا وثيقة [2] رابعة مظهر آخر من مظاهر اضطراب الاحوال فى القرن الثانى ق .م . فان أحدى الزوجات تستعطف زوجها بعد أن ترك خدمة الالهة بفى السيرابيوم ، ان يعود الى بيته رحمة بها وبلطفها ، وحماية لهما من فترات الشدة وما تبع ذلك من ارتفاع فى الاسعار .

وليس أول على سوء الاحوال واضطرابها من أن الحكومة كانت تمنح للذين يؤدون عملا له صبغة اقتصادية منشورات للحماية باسم الملك تضمن لهم الا يعتدى أحد على سلامة اشخاصهم .

يتضح لنا اذن ان مصر شهدت تقدما ملحوظا فى مجال النشاط الاقتصادى على عهد البطالمة الاوائل ، ولكن لم يقدر لها التقدم الاستمرار وانما بدأ الاضمحلال التدريجى مع ظهور فترة الحروب والفتن الداخلية من تاريخ مصر .

(1) U.P.Z. 1 . 14 .
(2) U.P.Z. 1. 59 .

النظـــم القـانـونية



ج - النظم القانونية ومصادر القانون فى العصر البطلمى :

تعدد الشرائع والنظم :

استمر القانون المصرى نافذا فى هذا العهد ، فكانت تطبق على المصريين وهم غالبية السكان ، شريعتهم الأصلية على الوجه الذى استقرت عليه بعد صدور مجموعة بوخوريس ، وقد عرفت لدى الاغريق فى هذا العهد باسم « شريعة الاقليم » أما اغريق مصر وكانوا على فئتين ، فئة مواطنى المدن الاغريقية وفئة نزلاء أنحاء مصر الاخرى ، فيبدو أن البطالمة قد استنوا للفئة الاولى تشريعات عرفت باسم « قوانين المدن » أو القوانين السياسية وهى قوانين مقتبسة على القانون الاغريقى ، ولكنها لم تكن فى كل مدينة منها مطابقة للقانون السارى فى الأخرى . أما بالنسبة للفئة الثانية من الاغريق فقد أصدر البطالمة أوامر ملكية مختلفة لتكون دستورهم وشريعتهم التى يتعاملون بمقتضاها ، ويبدو أنها كانت تحتوى فى الغالب على تلك القواعد التى تمثل الأساس المشترك للقوانين المختلفة والعادات المتعددة التى كانت سائدة فى العالم الاغريقى ، لأنه لم يكن من المستطاع بالنسبة لهؤلاء النزلاء النزلاء تطبيق قوانين مدنهم الأصلية ، نظرا لتعدد المدن التى كانوا ينتمون اليها فى الأصل . أما اليهود فقد رأينا أنهم كانوا يعيشون فى طوائفهم وفقا لعاداتهم وشريعتهم الخاصة .

اختلاف القانون باختلاف جنسية الأفراد :

يتبين مما تقدم أنه كانت تسود مصر فى عهد البطالمة عدة نظم قانونية تختلف باختلاف جنسية الافراد ، فالقانون لم يكن يطبق تطبيقا اقليما على جميع القاطنين فى مصر بل كان يطبق تطبيقا شخصيا لأنه لم يوضع الا

ليسرى على اشخاص معينيين . ولهذا كان يلدم فى كل تصرف قانونى أن يعلن المتعاملون علاوة على البيانات العادية الخاصة بأشخاصهم عن الجنسية التى ينتمون اليها ، حتى يمكن تعين القانون الواجب تطبيقه عليهم . وكانت هناك جزاءات شديدة لمعاقبة كل من يكذب فى التقرير بجنسيته ، بل كانت هذه الجزاءات توقع أيضا على كل من الموثق والمتعاقد الآخر اذا كانا على علم بهذا الغش

على أنه لما كان البطالمة قد استرشدوا بمبادىء وقواعد القانون الاغريقى فيما سانوه من القوانين وما أصدره من الأوامر ، فانه يمكن ارجاع هذه النظم المتعددة الى مصدرين اساسين هما القانون المصرى والقانون الاغريقى ، لأنهما كانا فى الواقع يقتسمان البلاد وفقا لجنسية كل فرد من الأفراد . ولكن رغما عن اختلاف هذين القانونين فى كثير من المبادىء والنظم وتطبيق كل منهما على طائفة معينة من الناس ، فاننا نجد مع ذلك أنه كان بينهما تأثير متبادل وتقارب فيما يتعلق ببعض النظم ، وأن هذه النظم تطورت حتى انتهى بها الأمر الى الخضوع لقانون واحد مختلط يمكن أن يسمى بالقانون الاغريقى المصرى.

ونحدد فيما يلى مدى اختلاف كل من القانون المصرى والقانون الاغريقى فى نظمها ومدى تأثر كل منهما بالآخر ، ثم نتكلم بعد ذلك عن نظام الأراضى ونظام القضاء ومصادر القانون فى هذا العهد .

اختلاف النظم في القانون المصرى والقانون الاغريقى

نظام الأســـرة :

كان القانون المصرى يختلف اختلافا بينا عن القانون الاغريقى فيما يتعلق بنظام الاسرة ، فان فكرة القرابة التى كانت قائمة فى القانون المصرى على أساس وحدة الدم ، والتى تربط الفرد بأسرة أبوية لم تكن معروفة فى القانون الاغريقى ، حيث كان الولد منتسبا الى أبيه وأقارب أبيه ، دون أية علاقة بأقارب أمه . كما أن المرأة المصرية كانت تتمتع بحرية وأهلية كاملة، فكانت تستطيع أنْ تتزوج بمحض ارادتها وبشروط كانت عادة ثقيلة على الزوج . اذ كانت تستطيع الانفصال عنه متى شاءت ، وأن تطالبه اذا طلقها بالصداق الذى وعدها به فى عقد الزواج وأن تتصرف فى أموالها دون الحصول على اجازته ، أما القانون الاغريقى فانه يقرر عدم أهلية المرأة لمباشرة حقوقها ويفرض عليها نوعا من الوصاية الدائمة ، فهى لاتستطيع أن تتزوج الا باجازة أبيها أو اقاربها من الأعصاب مثل أخوتها وأعمامها ، ولاتستطيع القيام بتصرف من التصرفات الاب اجازة زوجها ، كما أنها كانت تخضع بعد وفاة زوجها لوصاية أبنائها أو اقارب زوجها أو لوصى يختاره لها زوجها فى وصيته .

وكان القانون المصرى يبيح زواج الأخ من أخته ، على حين كان القانون الاغريقى يعتبر مثل هذا الزواج رجسا فاحشا ، وان كان يبيح زواج الاخوة اذا لم يكونوا من أم واحدة . وكذلك كان القانون المصرى يبيح تعدد الزوجات ، على حين كان ذلك محظورا فى القانون الاغريقى .

ولم يكن هناك اختلاف فى القانون المصرى والقانون الاغريقى فيما

يتعلق بالسلطة الأبوية ، فقد كانت سلطة رب الأسرة على ابنائه محدودة فى كلا القانونين ، بالنسبة لما كانت عليه فى القانون الرومانى ، اذ كان للابن البالغ شخصية مستقلة عن شخصية أبيه وكان يتمتع بجميع الحقوق المدنية. غير أن نظام الأموال المشتركة لم يكن معروفا فى القانون الاغريقى . ولم يكن رب الأسرة يقوم بتوزيع أمواله على ابنائه حال حياته كما كان الحال فى القانون المصرى ، كما أن الوصية لن تكن تختلط بالهبة بل كانت دائما على عكس القانون المصرى ، تصرفا مضافا الى ما بعد الوفاة .

ويلاحظ اخيرا أن القانون المصرى لم يكن يعرف نظام التبنى لأن تبنى الأولاد نوع من أنواع البيع ، وقد كان القانون المصرى يحرم على الآباء بيع ابنائهم ، كما أن تعدد الزوجات والتسرى وسهولة الطلاق ، كل ذلك وفر للمصريين وسائل متعددة للحيلولة دون انقراض النسل .

نظام الأموال :

وفيما يتعلق بنظام الاموال فأهم ما يميز القانون المثرى عن القانون الاغريقى ، أن الملكية الفردية فى القانون المصرى كانت مقصورة على الأموال المنقولة ولم تكن موجودة بالنسبة للعقار الا استثناء أى بمقتضى منحة ملكية ، لأن الأراضى كانت مملوكة للملك ولم يكن للأفراد عليها سوى حق الانتفاع . أما فى القانون الاغريقى فان حق الملكية الفردية على الأموال الثابتة كان حقا من الحقوق المقررة للمواطنين بصفة مطلقة ، وهذا ما يفسر لنا كيف أن موطنى المدن الاغريقية فى مصر كانوا يتمتعون بهذا الحق داخل اقليم مدنهم . غير أن هذا الحق كان مقصورا عليهم وحدهم ، اذ لم يتوان البطالمة على الأخذ بنظام الملكية المقرر فى القانون المصرى بالنسبة

لسائر السكان الآخرين من مصريين وأجانب .

وكذلك لم يكن نظام التقادم معروفا فى القانون المصرى على حين أن القانون الاغريقى كان يقضى بسقوط دعوى المالك بمضى ثلاث سنوات .

نظام الالزامات والعقود :

وعلى خلاف ما تقدم فانه لم يكن هناك فيما يتعلق بنظام الالتزامات والعقود اختلافا كبيرا من حيث المبدأ بين القانون الاغريقى والقانون المصرى . فقد قام هذا النظام فى القانون المصرى فى عهده الاخير على مبدأ حرية التعاقد ، كما قام فى القانون الاغريقى على ترك مجال كبيرا ن الحرية لارادة الافراد . غير أن العقود الاغريقية كانت تختلف عن العقود المصرية من حيث الآثار المترتبة عليها ، فكانت تارة عقو ملزمة للجانبين تنشىء التزامات فى جانب كل من العاقدين كالبيع ، وعقوا ملزمة لجانب واحد تنشىء التزامات فى جانب أحد المتعاقدين دون الآخر ، كالقرض . أما العقود المصرية فكانت دائما كما رأينا لجانب واحد حتى ولو كان العقد بيعا .

اثبات العقـــود :

كانت العقود لاتثبت الا بالكتابة سواء أكان ذلك فى القانون الاغريقى أم فى القانون المصرى . وكانت العقود الاغريقية على نوعين : عقود عرفية وعقود رسمية . فالعقود العرفية كانت تحرر على يد كتبة عاديين بحضور ستة من الشهور ، وكان لابد لصحتها من تسجيلها فى مكتب سجلات العقود . أما العقود الرسمية فكانت تحرر بمعرفة موثق خاص كانت له

دراية وخبرة بمثل هذه الأعمال ولم تكن هذه العقود تخضع لنظام التسجيل .

أما العقود المصرية فكانت تحرر باللغة الديموتيقية على يد كتبه من كهنة المعابد ، كما كانت تحرر أيضا بمعرفة كتبة عاديين : غير أنه كان لابد لصحة العقود المصرية من تسجيلها فى مكتب سجلات العقود ؛ سواء أكانت محررة بمعرفة الكهنة أو بمعرفة غيرهم من الكتبة .

التأثير المتبادل بين القانونين المصرى والاغريقى

السبب فى تقارب القانونين :

لايخفى أنه من الأصول المسلم بها فى تاريخ الشرائع والنظم القانونية ، انه اذا وجدت فى بلد واحد عدة نظم متغايرة ، فانها لاتلبث ان تؤثر بعضها على البعض الآخر ، وذلك على الرغم من أنها لاتطبق الا على طوائف مختلفة من السكان ، وهو أمر لامفر منه لأنه اذا سلمنا بأنه من الممكن اخضاع طوائف مختلفة من الأفراد فى دائرة الأحوال الشخصية ، كما فى الزواج والطلاق والميراث ، لنظم مختلفة وفقا لجنسيتهم أو ديانتهم ، فانه من غير المتصور اخضاعهم فيما يتعلق بدائرة الاحوال العينية لنظم قانونية متغايرة ، اذا من أن تجرى التصرفات المتعلقة بالأموال والالتزامات داخل الطائفة الواحدة ؛ بل من المحتم أن تجرى هذه التصرفات بين أشخاص ينتمون لجنسيات مختلفة لضرورة تبادل المنافع بين الناس ، ولهذا لاتلبث النظم القانونية فى دائرة الاحوال العينية على الأقل ، ان تتأثر بعضها ببعض .

ولذلك لم يكن هناك مفر من اختلاط القانون المصرى بالقانون الاغريقى

وامتزاجهما على مر الزمن ، ليس فقط فيما يتعلق بنظم الأموال والالتزامات التى انتهى الأمر بها الى الخضوع لقانون واحد مختلط يمكن تسميته بالقانون الاغريقى المصرى ، بل أيضا فيما يتعلق بنظم الاحوال الشخصية حيث نجد بعض التقارب والتأثير المبادل بين القانونين . ونبين فيما يلى الدور الذى لعبه كل منهما فى هذا التقارب والامتزاج .

التقارب فى دائرة الأحوال الشخصية :

لم يستمر طويلا تطبيق القانون المصرى والقانون الاغريقى بصورتهما الأصلية على المصريين أو على الاغريق ، وذلك فيما يتعلق بنظام الأسرة ، بل لقد طرأت عليهما بسبب تدخل الملوك أو بفعل عادة التقليد التى درج عليها المصريون المتأغرقون ، بعض التعديلات التى أدت الى تقارب كل من القانونين .

فنجد مثلا أنه عندما تزوج بطليموس الثانى من أخته تقربا الى قلوب المصريين ، اقتفى اغريق مصر خطوات البطالمة فى زواج الأخوة من أخواتهم وحذا كثير منهم حذوهم فى ذلك . غير أننا نجد من جهة أخرى أن المرأة المصرية لم تتمتع طويلا بما كان لها من حقوق بالنسبة للمرأة الاغريقية ، فقد أصدر بطليموس الرابع المحب لأبيه فى القرن الثانى قبل الميلاد ، أمرا ملكيا حظر فيه على المرأة المصرية الزواج دون اجازة وصى والتصرف فى أموالها دون اجازة وصى والتصرف فى أموالها دون اجازة زوجها . فأصبح الزواج المصرى بذلك أدنى الى الزواج الاغريقى من ذى قبل ، واختفت تدريجيا من عقود الزواج المصرية تلك الاشتراطات الثقيلة التى كانت الزوجة تشترطها قديما قبل زوجها كما نجد مصريين يستعملون طريقة الهبة للابن

الأ [illegible] ، التى كانت تقوم مقام الوصية فى القانون المصرى ، ولكنهم يشترطون فيها ألا ينتقل المال الموهوب الا بعد وفاتهم ويستدعون طريقة يستطيعون بها الرجوع فى هذا التصرف ، بل ونجد مصريين حرروا وصاياهم طبق للشكل الاغريقى البحت .

ويتبين مما تقدم مدى التقارب الذى حدث بين القانون المصرى والقانون الاغريقى فيما يتعلق بنظم الاحوال الشخصية .ويلاحظ أن هذا التقارب قد حدث فى أكثر الأحوال بتغليب مبادىء القانون الاغريقى على مبادىء القانون المصرى ، ولكنه كان على كل حال بطيئا فى سيره لأن أغلبية المصريين كانوا يعيشون فى القرى بعيدين عن الاتصال بالاغريق وكانوا شديدى التمسك بنظم البلاد وعاداتها

التقارب فى دائرة الأحوال العينية :

يجب أن نميزها بين التصرفات والعقود التى تتعلق باستغلال ثروة البلاد وهى الناحية التى تدخلت فيها الدولة ، وبين التصرفات والعقود التى تركت الدولة لارادة الأفراد تنظيمها .

ففيما يتعلق بالناحية الاولى فانه لما كان حكم البطالمة يرتكز قبل كل شىء على استغلال موارد مصر استغلالا منظما دقيقا وذلك بالحصول على أكبر ما يمكن من غله البلاد ، فانهم لم يتوانوا عن الأخذ بالقوانين التى وضعها الفراعنة لتنظيم الملكية العقارية وانتقالها وتنظيم العلاقات بين الملاك ومستأجرى الأراضى الزراعية ، لأن قواعد القانون الاغريقى لم تكن لتوافق الا مدن الاغريق المستقلة .

فقد طبقوا خارج المدن الاغريقية فيما يتعلق [illegible] قواعد القانون

المصرى التى كانت تميز بين الاراضى التى تمنح للافراد لمدة معينة نظير التزامهم بزراعة الحبوب تحت اشراف الادارة وهى الغالبية ، وبين الأراضى التى يمنح من يملكها ملكية فردية على ما سنرى فيما بعد .

أما التصرفات والعقود التى تركت الدولة للأفراد الحق فى مباشرتها دون تدخل منها ، فان نصيب القانون المصرى فى هذه الناحية لم يكن بأقل مما فى الأولى لقد كان لنظام تسجيل العقود أثر ملموس فى تغليب قواعد القانون المصرى على قواعد القانون الاغريقى ، اذ أن أكثر محررى العقود والتصرفات كانوا من أهالى البلاد ، وكانوا يدفعون الأفراد الى اتباع ماجرى عليه العرف المصرى فى تحرير العقود وصياغتها ، لأنه لم يحظر على الاغريق ان يتعاقدوا وفقا لأحكام القانون المصرى ، كما لم يحظر على المصريين أن يتعاقدوا وفقا لأحكام القانون الاغريقى اذا كان فى ذلك مصلحة لهم .

ولهذا فقد كان للقانون المصرى القديم نصيب كبير فى هذا النظام القانونى المختلط الذى كانت تخضع له نظم الأموال والالتزامات خارج المدن الاغريقية والذى يمكن أن يسمى بالقانون الاغريقى المصرى .

نظام الأراضى :

كان المبدأ السائد فى مصر أن الملك صاحب أرض مصر كلها باعتباره ابنا لحور ورع وخليفة الفراعنة ، وذلك وفقا للفكرة السياسية والدينية التى قام عليها نظام الحكم فى العهود الفرعونية . ولم يكن تملك الاراضى أو استغلالها خارج المدن الاغريقية الثلاث حقا من حقوق

الافـراد المدنـية ، وانما كان منحة من الملك يمحها لأى فرد شاء ولهذا كانت الاراضى على نوعين : الاراضى الملكية وهى الاراضى التى يستغلها الملك مباشـرة والاراضى التى يقطـع الملك حق استغلالهـا أو ملكيتهـا للأفراد .

أ - الأراضـــى الملكية :

هى العالية الكبرى من الأراضى وقد نظم استغلالها تنظيما دقيقا يرتكز على القواعد التى كانت سائدة فى عهد الفراعنة ، فكانت تؤجر على قطع لمزارعين يدعون تبعا لذلك بمزواعى الملك ، وترتكز علاقتهم بالملك على عقود تحتم عليهم زراعة الأرض التى استأجروها لقاء جانب كبير من المحصول . ولم يكن المستأجر حرا فى زراعة أرضه كما يتراءى له . بل كان مقيدا بالتعليمات الخاصة بالزراعة التى كانت الحكومة تصدرها كل عام ، كما أنه لم يكن له أن يترك قرينة خلال موسم الزراعة الى أن يوفى حقوق الملك .

وقد كانت الأراضى الملكية تؤجر بالمزاد العلنى لمدة غير محددة الى أن يعلن عن مزاد جديد، غير أنه كان للملك أن ينهى عقد الايجار فى أى وقت شاء ، دون أن يكون للمستأجر الحق فى ترك الارض أو عدم زراعتها قبل انهاء العقد من جانب الملك . ولكن رغم هده الشروط الثقيلة ، لم يكن هؤلاء المزارعون عبيدا أو تابعين ، ولم يقل مركزهم عن مركز غيرهم من المصريين ، وليس أدل على ذلك من أن بعض صغار الملاك ورجال الدين كانوا لايرون غضاضة فى استئجار أراضى الملك الى جانب مهامهم الأصلية . وفضلا عن ذلك فقد كان مزارعو الملك يؤلفون فى كل قرية

جماعة ، للدفاع عن مصالحهم وتحمل المسئولية الملقاة على عاتقهم ، وكان على رأس هذه الجماعة شيوخ القرية .

ب - الأرضى المقطعة :

هى « حقول الآلهة » ، والإقطاعات العسكرية وأراضى الهبات والأراضى التى يمنح من يملكها ملكية فردية .

١- فحقول الآلهة هى الأراضى التى منحها الملك للالهه لا للكهنة أو المعابد ، ولهذا يتولى ادارتها موظفوا الملك ، وان كان دخلها يؤول فى النهاية الى المعابد والكهنة بعد دفع الضرائب المستحقة عليها . وقد ازدادت مساحة هذه الاراضى على مر الزمن ، نتيجة لمنح البطالمة الذين أرادوا بجزل العطاء استغلال عواطف المصريين الدينية لتوطيد عرشهم ، وقد أفضت هذه المنح الى نقص دخل الملك وازدياد نفوذ الكهنة ، الى أن انتهى الأمر بالكهنة الى استرداد حق ادارة هذه الأراضى والحصول على اعفائها من التكاليف المقررة عليها ، وقد وجدت أيضا الى جانب « حقول الآلهة » بعض الأراضى التى خصص دخلها لما كانت تدره على اصحابها من دخل ثابت ، وقد تحمل الكهنة شيئا فشيئا الى استبقاء هذه المناصب فى ايديهم وصاروا يتصرفون فى الاراضى المخصصة لها بكافة أنواع التصرفات من بيع وهبة ورهن ، ويورثونها لأبنائهم بعد وفاتهم ، بحيث تحول حقهم عليها بمضى الزمن الى ملكية فردية .

٢- والاقطاعات العسكرية هى الأراضى التى كان الملك يقطعها لرجال الجيش ، النظامين منهم والمرتزقة ، ورجال الشرطة وبعض الموظفين وكانت مساحة القطع الممنوحة تبلغ بالنسبة للضباط بعض المئات من « الأراير »

وتتراوح بالنسبة للجنود بين خمسة وعشرين « أرورا » ومائة « أرورا »
وكانت الضريبة المقررة عليها تتراوح بين أردب ونصف وأردبين من
الحبوب . وهذه القطع كانت تقتطع من أملاك التاج أو من الأراضي البور
التي منحت للجنود بقصد استصلاحها .

وقد كانت هذه الاقطاعات في بادىء الأمر موقوتة بحياة المنتفع وتؤول
ثانية بعد وفاته الى الملك ، ولكنها أصبحت وراثية تؤول بعد وفاة المقطع الى
من سيخلفه من أبنائه في الجيش . على أن الملك كان يستطيع استردادها
في أى وقت اذا ارتكب المقطع جريمة أو اذا أخل بالتزاماته نحو الملك ، لأنه
كان مسئولا عن زراعة اقطاعه وخاضعا لرقابة دقيقة من رؤسائه وموظفى
الدولة. ولم يكن للمقطع كذلك في بادىء الأمر سوى حق تأجير الاقطاع ،
ولكنه أصبح يستطيع التنازل عنه لشخص آخر يلتزم بدفع الضرائب المفروضة
عليه بشرط أن يكون جنديا مثله . ولهذا سرعان ما تحول حق الجنود على
هذه الاراضى الى نوع من الملكية الفردية .

٣- وأراضى الهبات نوعان : النوع الاول عبارة عن أراضى يعتبر دخلها
بمثابة مرتب موظف الحكومة الذى منح هذه الارض ، أما النوع الثانى فهو
عبارة عن الأراضى الواسعة التى منحها البطالمة على سبيل الهبة لكبار
الموظفين المدنيين والعسكريين ورجال البلاط . وهذه الهبات كانت موقوتة
بحياة الموهوب له ولاتؤول من بعده الى ورثته ، كما ان الملك كان يستطيع
الرجوع اليها فى أى وقت شاء ، لأنها تتصل بالمنصب الذى يشغله الموهوب
له فى الدولة .

٤- أما الأراضى التى كانت مملوكة ملكية فردية فلم تكن تشمل فى

لأصل سوى أراضي البناء وبساتين الخضر والفاكهة وأراضي النخيل والأعناب . وفي عام ١١٨ ق .م أصدر بطليموس السابع بغية اصلاح الأراضي البور ، أمرا ملكيا قرر فيه أن كل من يزرع الأراضي التي غمرتها المياه أو الراضي الجافة كروما أو بساتين يكتسب ملكية هذه الارض ويعفى من الضريبة في الخمسة أعوام الأولى ، ولايطالب في الثلاث السنوات التالية الا بنصف الضريبة المقررة على الأراضي الجيدة . وقد أدى هذا الأمر الى انتشار الملكية الفردية الى حد ما في أواخر العهد البطلمي .

نظام القضاء :

كان الملك صاحب السلطة القضائية ومصدر العدالة في البلاد ، ومن المرجح أنه كان يوجد بجانبه على رأس النظام القضائي ذلك الموظف الكبير الذى يمكن تشبيهه بوزير العدل على أن الملك لم كن مصدر العدالة فحسب ، بل كان يباشر القضاء بنفسه في محكمته الخاصة التي يبدو أنها كانت محكمة استئناف عليا وأنها كانت تنظر في الظلامات التي كان الناس يرفعونها الى الملك باعتباره الملاذ الأعلى الذى يهرعون اليه كلما لحق بهم ظلم . وكانت هذه المحكمة تنعقد بالاسكندرية حيث كان يوجد بالقصر الملكي باب يدعى « باب الأحكام » ولكن يبدو أنها كانت تنتقل أيضا مع الملك أينما ذهب .

وكان الملك ينيب عنه قضاة مصريين للفصل في قضايا المصريين ، وقضاة اغريقيا للفصل في قضايا الاغريق . غير أن الشكاوى الموجهة ضد موظفي الادارة وعمال المالية ، والقضايا التي يمس موضوعها موارد الملك أو التي تتعلق بالأفراد الذين يمدون الخزانة بمواردها - مثل زراع الملك وعمال

الصناعات التى تحتكرها الحكومة – فهذه كانت لاتنظر أمام المحاكم العادية بل كان الموظفون هم الذين يعملون فيها .

وليس لدينا سوى معلومات طفيفة عن المحاكم المصرية لاتسمح لنا بأن نتبين بجلاء كيفية تشكيلها ولا مدى اختصاصها . غير أنه لما كان البطالمة قد احتفظوا بالقانون المصرى ليطبق على رعاياهم من المصريين ، فانه يحتمل أن هذه المحاكم كانت تمت بصلة الى المحاكم الفرعونية وأنها كانت تنظر فى القضايا المدنية والجنائية على السواء . على أنه من الثابت أنها كانت كغيرها من المحاكم البطلمية لاتفصل فى القضايا فحسب ، بل كان يمكن أيضا عقد الصلح أمامها بين طرفى الخصومة . ويبدو أنه كان يمكن استئناف احكامها أمام محكمة عليا يرأسها وزير العدل فى الاسكندرية أو أمام محكمة الملك الخاصة .

أما المحاكم الاغريقية فكانت محاكم متنقلة تتجول فى أنحاء الأقاليم ، وكانت مشكلة من هيئة تتألف من ثلاثة قضاة ، يرجح أنهم كانوا افرادا من نزلاء البلاد لا موظفين ، يعهد اليهم الملك بولاية القضاء لمدة معينة . وكان لكل هيئة مدعى عام وكاتب ومحضر ، ويقوم المدعى العام بتسلم كافة الالتماسات والوثائق المقدمة للمحكمة ، كما يقوم بدعوتها الى الانعقاد ، ويوقع الأحكام التى تصدرها . ولايعرف بالضبط اختصاص المحاكم الاغريقية لقلة المعلومات التى لدينا عنها ، وهل كانت أحكامها تستأنف أمام محكمة الملك الخاصة أم أمام جهة عليا أخرى .

ويلاحظ أنه لما كان من غير الميسور على الدوام تنظيم اختصاص المحاكم وفقا لجنسية الخصوم ، لأنه لم يكن هناك كثير من أن يؤدى التعامل بين

المصريين والاغريق الى منازعات يمون فيها طرفا الخصومة من جنسيتين مختلفتين ، فقد وجدت فى القرن الثالث قبل الميلاد، أى فى بداية الحكم البطلمى ، محكمة مختلطة لايعرف كيفية تشكيلها ولا مدى اختصاصها ، وانكان من المرجح أنها كانت تفصل فى القضايا المدنية بين الاغريق والمصريين . غير أنه لايوجد أثر لهذه المحكمة بعد القرن الثانى ، أى بعد تطور النظام القضائى فى أواخر عهد البطالمة ، حين عهد بالسلطة القضائية لبعض كبار الموظفين الاداريين مثل قواد المديريات ومساعديهم ، مع بقاء المحاكم المصرية والاغريقية قائمة على حالها .

ولكن يبدو أن المحاكم الاغريقية بدأت فى ذلك الوقت تعمل على توسيع اختصاصها على حساب المحاكم المصرية وذلك بالفصل فى الدعاوى التى يكون فيها طرفا الخصومة مصريين ، ولعل هذا ما دعى الملك بطليموس السابع الى اصدار أمر ملكى فى عام ١١٨ ق.م . قضى فيه بأنه اذا قام نزاع بين مصرى واغريقى نتيجة لعقد محرر بينهما ، فان لغة العقد بين الطرفين هى التى تقرر نوع المحكمة التى تفصل فى النزاع ، فاذا كان العقد مصريا فان المحاكم المصرية هى التى تختص بنظر النزاع ، وان كان اغريقيا فان المحكمة الاغريقية هى التى تفصل فى الدعوى .

وأخيرا كانت توجد محاكم للقضاة الاغريق فى المدن الاغريقية ، ولاسيما فى الاسكندرية ، ولايعرف ما اذا كانت محكمة الاسكندرية تختص بنظر قضايا العاصمة فقط ، أم أنها كانت تنظر أيضا فى قضايا بعض المديريات القريبة منها .

مصادر القانون فى هذا العهد :

كان الملك وحده هو مصدر القانون فى هذا العهد مثلما كان مصدر جميع السلطات . ولكن هذا لايعنى أن جميع القوانين التى كانت سارية فى البلاد ، قد وضعت وصدرت عن الديوان الملكى ، وانما ذلك يعنى أنه لم يكن هناك قانون مطبق فى البلاد مالم يصدق عليه الملك قبل تطبيقه ، فالقانون المصرى لم يكن من وضع البطالمة ولكننا لانعرف بأى قرار ملكى صدق عليه . وقد كانت قرارات الملك على أنواع : قوانين ، وأوامر ، ومراسيم ، ولوائح .

١- لم يرد فى الوثائق التى بين أيدينا سوى ذكر القوانين السياسية التى أصدرها البطالمة للمدن الاغريقية ، ولا يعرف ما اذا كانت هذه القوانين قد صدرت من الملك بعد موافقة المجالس النيابية التى كانت تشرف على ادارة هذه المدن أن أنها صدرت من الملك بدون موافقتها ، وهذه القوانين كانت تعتبر بمثابة دستور هذه المدن من الوجهة السياسية كما أنها كانت تتضمن قواعد النظام القانونى الذى كان ساريا فيها .

٢- والاوامر الملكية هى تشريعات بمعنى الكلمة ، أصدرها البطالمة أما لتبيان القواعد القانونية التى تطبق على الجماعات الاغريقية التى كانت تعيش فى انحاء البلاد ، وأما لاحداث جديد فى النظام القانونى ، وفى هذه الحالة كانت تسرى على الاغريق والمصريين على السواء ، أو لمنح امتيازات لفئة من السكان كالاعفاء من ضرائب معينة .

٣- والمراسيم كان يتم بمقتضاها تعيين كبار الموظفين أو تنزيههم أو اصدار أوامر موجهة اليهم أحيانا فى صورة رسائل

٤ – أما اللوائح فكان يقصد بها تنفيذ القوانين ، وكانت أما لوائح ادارية كلائحة احظر صناعة الزيت ، أو لوائح تشريعية خاصة بالقضاء التى كانت تتضمن اجراءات التقاضى وقواعد المرافعات أمام المحاكم .

وكانت المحاكم على اختلاف أنواعها ملزمة بتطبيق القوانين وسائر الملكية على جميع المسائل التى تدخل فى اختصاصها متى كان ، أما قيمة عناصر الاتراك على القضاء اتباع ما يراه .



النظـــم الادرايـــة



د - النظم الادارية .

مامن شك ان مع بداية حكم البطالمة كان الملك البطلمى هو صاحب مصر وسيد رعيته المطلق ، الذى تتركز فى يديه كل السلطات فهو الرئيس الدينى ، والقائد الاعلى للجيش والاسطول ، ورأس الاداة الحكومية ، وصاحب السلطة الادارية العليا . وكانت مصر ضيعة الملك وكبار موظفيها الاداريين يخضعون لادارة الملك ، التى كانت مصدرا لكل القوانين . وعلى هذا فان النظام الإدارى فى مصر يعتبر تابعا من شخص الملك ومرتبط بارادته[1]

ومما لاشك فيه أن البطالمة حين حضروا الى مصر ، وجدوا نظاما اداريا ساريا فى انحاء البلاد منذ العصور القديمة ، فقد كانت مصر تستغل منذ عهد مينا على قسمين مختلفين ، احدهما وادى النيل ويسمى مصر العليا والآخر هو الدلتا ويسمى مصر السفلى ، وتنقسم مصر العليا ومصر السفلى الى عدد من الاقاليم اطلق الاغريق عليها منذ عهد هيرودوت اسم نوموس ولكن هدف البطالمة كان يتجه الى اغرقة الجهاز الحكومى . ثم تطويره بما يناسب الظروف الجديدة .؟

ولذلك مع بداية عهد بطلميوس الثانى ظهر فى ادارة البلدا نظام آخر ، يشير الى احتلال البلاد بسلطة عسكرية اجنبية . ويوضع قائد استراتيجوس على كل نوموس وذلك يعتبر تطورا ادخل على نطاق الوظائف فى النوموس ، فاصبح قائدها وحكامها ذا صبغة عسكرية ، وكان الاستراتيجوس دائما من الاغريق وقد وجد الى جانبه موظف يسمى نومارخوس وهو مرؤس -

---

(١) د . ابراهيم نصحى ، مصر فى عصر البطالمة حـ٢ ص ٢٢٥ [illegible]

للاستراتيجوس ، وكان من أهم اختصاصاته الاشراف على الاعمال العامة وارض الملك .

كذلك من أهم الموظفين الذين وجدوا في ادارة النوموس هو الكاتب الملكي ويكاد يكون مسئولا عن جميع اعمال النوموس كذلك وجد المراقب وهو مختص بشئون القضاء المحلي ورئيس الشرطة ومشرف مالي يعاونه مدير مالي .

وكانت النوموس تنقسم بدورها الى مناطق تسمى توبارخيا أو نوموس ثم تنقسم النوموس الى كوندى . وكان لكل قسم من هذه الاقسام موظفوه والادارة هذه الاقسام صورة مصغرة من ادارة النوموس .

ولكن كيف نظمت علاقة النوموس بالسلطة المركزية [1] في الاسكندرية ؟ .

لقد اهتم الملك بطلميوس الاول والملك بطلميوس الثاني بالتنظيم الداخلي اهتماما كبيرا ، ومنذ نهاية عصر بطلميوس الثالث نجد أن نظام الحكم في مصر قد استكمل معظم معالمه .

اهم منصب في الحكومة المركزية في الاسكندرية عاصمة البطالمة هو وزير المالية المسمى ديويكيتس ، ورغم ان منصبه يعنى أنه المدير المالية الدولة الا أنه كان في الواقع له سلطانه كبير على جميع مرافق الدولة واليه ترفع التقارير والبيانات والاحصاءات والشارات الادارية وكان مركز هذا المنصب الخطير يختلف قوة وضعف حسب اختلاف شخصيات الملوك ووزرائهم بين

---

(١) د . مصطفى العبادى : مصر من الاسكندر الاكبر ص ١٢٠

القوة والضعف .

وكان لوزير المالية مساعدون مباشرون يحمل كل واحد منهم لقب مساعد وزير المالية . ولعل هؤلاء كانوا بمثابة رؤساء المكاتب التى تنقسم اليها ادارة الوزير بحيث ان كل مساعد لوزير المالية يختص باقليم من الاقاليم مصر . ومن كبار الموظفين ايضا رئيس الحسابات الذى كان يعاون الوزير فى اعداد الاحصاءات وتقدير الضرائب كل سنة ، وكان يساعده عدد كبير من المحاسبين فى انحاء البلاد .

الى جانب هؤلاء الموظفين كان للملك معاونون آخرون ملحقون بالقصر للاشراف على ما يمكن أن يسمى بالديوان الملكى ، ومن هؤلاء كاتب رسائل للملك ، وسكرتير خاص .

اذا كانت السلطة المحلية أو الادارة المحلية تخضع للسلطة المركزية فى الاسكندرية . حقيقة من الصعب تحديد كيف نظمت العلاقة بينهما ، الا أننا يمكن القول ان مهمة القائد للاقليم وللادارة المحلية – الاستراتيجوس انه هو الذى كان يتولى الاتصال بالسلطة المركزية .

نأتى فى نهاية حديثنا عن النظم الادارية الى حكم الممتلكات الخارجية فان مصر فى خلال القرن الثالث تمتعت بامبراطورية خارجية شملت برقة وسوريا (الجزء الجنوبى من سوريا وفينيقيا وفلسطين) ، وقبرص واجزاء من سواحل اسيا الصغرى الجنوبية والغربية ، وجزر ومناطق فى بحر ايجه . ولعل البطالمة لم يطبقوا نظاما موحدا فى جميع الاقاليم . ولكن مما لاشك فيه انهم اقاموا حاميات عسكرية فى بعض المناطق ذات الاهمية العسكرية وكان قائد الحامية العسكرية عادة ذا نفوذ كبير حتى يظن انه شغل منصب نائب

الملك في المستعمرة .

القضـــاء :

عنى البطالمة باحترم عادات المصريين وقوانينهم ، ولكنهم مع ذلك لم يفرضوها على الاجانب المقيمين فى مصر ، بل أنشئوا لهم من القوانين ما يلائمهم . ولما كان أغلب الاجانب من الاغريق ، فقد استرشد البطالمة بوجه عام فى تشريعهم الجديد بالقوانين والعادات الاغريقية .

ظل القانون المدنى القديم معمولا به بين المصريين ، وكانت محاكم القضاة الوطنيين ، تفصل فى قضايا المصريين وفقا لأحكام القوانين المصرية ومحاكم الاغريق المتنقلة تفصل فى قضايا الاغريق المقيمين خارج المدن اليونانية أما القضايا الوطنية التى تنشأ بين الاغريق والمصريين فقد شكلت لها فى خلال القرن الثالث ق . م محكمة مختلطة ولكنها الغيت فيما بعد بصدور قرار ملكى فى عام ١١٨ ق . م [١] . ينص على عرض القضايا التى تنشأ بين الاغريق والمصريين حول العقود المكتوبة باللغة اليونانية امام المحاكم الاغريقية أما القضايا التى تنشأ حول عقود محررة بالديموطيقية فتنظر امام محاكم القضاء الوطنيين .

والى جانب هذه المحاكم كان الموظفون الاداريون يقومون بالفصل فى القضايا ذات الطابع الخاص ، كتلك التى تتأثر بها الاحتكارات الملكية فان هذه المشاكل كانت لاتنظر أمام المحاكم العادية . وكانت جميع هذه القضايا تخضع لادارة الملك وهو صاحب السلطة الادارية العليا .

---

(1) P. Jept 1. 5 .

النشـــاط الثقافـــى



هـ - النشـاط الثقافي :

تظهر الناحـية الثـقافية في العصر البطلمي كـواحـدة من ابرز صـور السياسة البطلـمية ومن أكـثرها نفـعا وابعدها اثرا اذ نجد أن ملوك البطالمة قد حرصـوا على أن يجـعلوا من الاسكـندرية اعظم المراكـز الثقـافيـة في العـالم المتأغرق[1] بل وفي العـالم القـديم كـله ، ليكون لهم من ذلك قاعـدة ادبية يثبتون بها مكانتـهم ويدعمون بهـا مركـز دولتـهـم في المنطقـة.

وان عبـقرية بطلميوس الاول التي مكنته خلال فترة وجيزة لاتتجاوز العشرين عاما من ان يضع الاساس الثابت للامبراطورية البطلمية وان يواصل العمل بناء المدينة العظيمة التي ستصبح عاصمة لامبراطوريته ، لابد أنها دلته أيضا على ما يلزم اقامته ليتحتم قبولها كعاصمة عالمية ، لذلك سرعان ما استجاب طموح بطلميوس الاول في خلق مركز عظيم لمدينة الاسكندرية عاصمة ملكه وسط العالم المتأغرق لامتزاج السياسي والفيلسوفي ديمتريوس الفاليرى الذى لجأ الى مصر سنة ٢٩٥ق م . بعد سقوطه الينا في يد ديمتريوس ابن انتيجونوس سنة ٣٠٧ ق . م - بتأسيس ذلك العمل العظيم الذى لم يؤثر فحسب في العالم الهللينى ، بل بقيت له مكانته في العصور اللاحقة الا وهو الموسيون وملحقته مكتبه الاسكندرية اعظم مكتبات العالم القديم .

على أن تأسيس بطلميوس الاول للموسيون والمكتبة في الاسكندرية القـديمة اثيرت حوله بعض الشكوك ، اذ ترى بعض المصادر القـديمة ان

---

(1) Fraser,Ptol. Alex. p. 306 - 307 .

بطلميوس الثانى هو مؤسسها ، الا انه لايتفق مع هذا الرأى ماهو ثابت من أن أول من اشرف على انشائهما هو ديمتريوس الفاليرى مستشار بطلميوس الاول [1]

الموسيون (المعهد) :

الموسيون كلمة يونانية معناها معبد ربات الفنون والعلوم .

أما عن انشائه ، فقد رأينا ان بطلميوس الاول حسب اقتراح - ديمتريوس الفاليزى شرع بتأسيس مجمع علمى هو الموسيون (المعهد) وملحقته مكتبة الاسكندرية . وعين ديمتريوس مشرفا على هذا العمل ورئيسا للموسيون وامدة بالمال اللازم بشراء الكتب وجذب العلماء الى الاسكندرية لتنافس الاسكندرية عاصمة اثنيا نفسها كمركز للثقافة والعلوم فى العالم القديم .

وسرعان ماتم بناء الموسيون ، الذى يعد أحد المعالم الرئيسية فى مدينة الاسكندرية ، كان بناءا رائعا فخما ، اقيم فى منطقة القصور الملكية ، وقد اقام فيه استرابون خمس سنوات لتأليف كتابة فى الجغرافيا .

بعد أن حضر الى مصر فى أواخر القرن الاول ق .م . وان استمرار الموسيون كل هذه الفترة لدليل على قوته وعظمته وان البطالمة الاوائل قد نجحوا فعلا فيما ارادوه لعاصمتهم . وقد وصف استرابون [2] الموسيون بقوله

(1) Bouche Leclercq. Hist. d. Lag. 1. p. 119 .
(2) Strabo, xvll, 1 . 8 .

« الموسيون جزء من القصور الملكية ، ويشتمل على منتزه ورواقه به مقاعد ، وبيت كبير به قاعة لاجتماع العلماء اعضاء الموسيون» .

وكان الموسيون يتكون من عدة حجرات للنوم وقاعات للاكل واروقة وارفف ومقاعد للراحة والقراءة ، وكان يقوم فوق كل هذا لتلاميذه ، وخصوصا الباحثين من كل انحاء العالم ، المصادر التى لامثيل لها الا فى مكتبة الاسكندرية ولكل وسائل الراحة التى توفرت فى الموسيون أكبر الأثر فى اجتذاب العلماء والباحثين من جميع انحاء العالم القديم .

ان اهم الدعامات التي يجب ان يقوم عليها الموسيون بعد انشائه ، حتى يكون له اثره كمركز اشعاع للعالم المتأغرق هي العلماء ، فوجودهم هو الذى يعطى الموسيون قيمته ، وقد ادرك ذلك الملك بطلميوس الاول ومن خلفه ، لذلك استقدموا العلماء من جميع انحاء العالم المتأغرق لتعيينهم فى الموسيون والاستفادة منهم . وكان ديمتريوس الفاليرى يختص باختيار ودعوة سخية من الدجال القادرين على نشر الثقافة الادبية والعلمية الى عاصمته الجديدة ، كما انهم سكلوا لترغيبهم فى ذلك شتى الطرق ، قد اوقف البطالمة على الموسيون ملكية خاصة وكانت اقامة العلماء فيه مكفولة لهم كما منح كل عالم من علماء الموسيون راتبا سخيا منتظما ويبدو أن هذه كانت سمة من سمات البطالمة .

وكانت هذه الرواتب تدفع لهم من المنح الملكية ، كما كان لهؤلاء العلماء من اعضاء الموسيون امتيازات أخرى خاصة لهم ، منها الاعفاء من

الضرائب والاعفاء من تولى الاعمال العامة التى كان المواطنون يلزمون بها . ذلك كله بالاضافة الى توفير الكتب اللازمة للبحث والاطلاع فى المكتبة الملحقة بالموسيون والتى صارت اعظم مكتبات العالم القديم .

لم تذهب جهود البطالمة فى سبيل اجتذاب العلماء من العالم المتأغرق سوى ، سرعان ما توافز على الموسيون والمكتبة علماء وادباء ومفكرون من جميع انحاء العالم المتأغرق .

من هؤلاء العلماء « اقليدس » وهو عالم فى الهندسة ، ومؤسس البحث العلمى . كذلك « هيروفيرلوس » العالم فى التشريح ومكتشف الجهاز العصبى ، « واسستراتوس » العالم فى وظائف الاعضاء. وكذلك استرانون وهو من ابرز العلماء الذين اهتموا بدراسة علمى الحيوان والنبات .

وقد بلغ من قوة السمعة العلمية العالمية التى اشتهرت بها الاسكندرية وخاصة فيما يتعلق بمجال العلوم ، ان ذكر لنا المؤرخ « اميانوس ماركلينوس[1] مشيرا الى هذه القوة ، ان خير تزكية كان فى امكان أى طبيب ان يحصل عليها هى أن يقال عنه انه اتم دراسته فى جامعة الاسكندرية .

المكتبة[2] :

استفاد بطلميوس الاول من ثقافة ونشاط ديميزيوس الفاليرى بأن وضع على عاتقه انشاء مكتبة الاسكندرية ، ولم يبين استرابون موضع المكتبة من الموسيون فى وصفه ، لكن مما لاشك فيه انه قد الحقت بالموسيون مكتبة

(1) Ammianus Mar. xvll, 16.

(٢) د . مصطفى العبادى ، مكتبة الاسكندرية القديمة .

كبرى خاصة به يعرفها المؤرخون بالمكتبة الكبرى أو المكتبة الام تمييزا لها عن المكتبة الاصغر التى الحقت بمعبد السرابيوم .

وقد انشىء هذا المعبد للاله سيرابيس الاله الرسمى الجديد للدولة البطامية فى عصر بطلميوس الثالث ، وقد طبقت شهرة هذا المعبد الامان فى العالم القديم وكان طبيعيا ان تلحق به مكتبة ، وكانت المكتبة الملحقة به صغيرة الحجم الا أنها سرعان ما نمت وكبرت ، وخصوصا بعد أن ضاقت المكتبة الكبرى بالمكتب ، وبالتالى امتدت اليها الحركة العلمية والثقافية .

فى سبيل تركيز الاضواء على الاسكندرية عاصمة الدولة البطلمية كمركز الثقافة العالمية سعى البطالمة الى سلوك كل سبيل ممكنة لتزويد مكتبة الاسكندرية القديمة بالكتب والافائف البردية ، وكانت اول هذه الطرق هى الشراء ، ولم يدخر البطالمة جهدا أو مالا فى سبيل الحصول على الكتب اينما وجدت وكانت اكبر اسواق الكتب فى ذلك الوقت فى اثينا ورودس .

كما أن ديمتريوس ، وهو من تلاميذ ارسطو ، استطاع ان يشترى لمكتبة الاسكندرية مكتبة ارسطو بمبلغ ضخم وكانت تعتبر اكبر مكتبة فى عصره ، وبالتالى كانت اعظم الكتب التى حصلت عليها مكتبة الاسكندرية والتى اعطتها المزيد من الشهرة وهناك رواية أخرى بان بطلميوس الثانى هو الذى قام بشراء مكتبة ارسطو ، وعلى أى حال فمنهما اختلفت الاراء فيمن قام بشراء مكتبة ارسطو ، فالمهم هو ان مكتبة الاسكندرية قد حصلت عليها فعلا – وضمتها الى مقتنياتها .

وفى سبيل رفع شأن المكتبة وجذب الانتباه اليها لجأ البطالمة الى سبل كثيرة للحصول على الكتب لمكتبتهم وخاصة النسخ الاصلية منها.

يحدثنا يوسيبوس ان بطلميوس الاول طلب من سكان القدس موافاته بمخطوطاتهم مترجمة الى اللغة اليونانية ، وقد ارسلوا اليه سبعين شخصا من أكثر الناس دراية بالكتاب المقدس والمتمكنين من اللغتين العبرية واليونانية . واراد بطلميوس أن يختبر هؤلاء المترجمين الواحد عن الآخر فطلب منهم ان يقوموا بالترجمة منفردين وحتى لايخفوا شيئا من حقائق الكتاب المقدس (التوراة) او يقوموا بتحريفها .

ولقد اشتهرت هذه الترجمة بعد ذلك بالترجمة السبعينية نسبة الى عدد المترجمين الذين اشتركوا فيها . وتعد هذه الترجمة من اشهر التراجم للكتب غير اليونانية الى اليونانية وهى تعتبر اوثق نص للتوراة .

وهكذا يتضح بجلاء ان البطالمة فى سبيل خلق قاعدة ثقافية فى عاصمة ملكهم تكون مركزا للاشعاع الحضارى فى العالم المتأغرق ، بما يمثله ذلك من دعاية سياسية لحكمهم ، سلكوا كل الطرق فى سبيل تزويد مكتبة الاسكندرية القديمة بالكتب فى جميع الفروع وبأقصى قدر ممكن وبأى ثمن يستطيعونه ، حتى ولو لجأوا فى سبيل ذلك الى طرق ملتوية ، وقد نجحوا فى ذلك الى اقصى حد ، حتى صارت مكتبة الاسكندرية اعظم مكتبات العالم القديم بسره واشهرها ، بعد ان حوت اعدادا لا حصر لها من الكتب .

ففى البداية استطاع ديمتريوس الفاليرى فى فترة وجيزة ان يجمع ٢٠٠,٠٠٠ كتاب ، كما انه ذكر لبطلميوس ان فى استطاعته فى فترة بسيطة اخرى ان يجعل عدد الكتب يصل الى ٥٠٠,٠٠٠ كتاب .

كذلك عمل البطالمة على تضييق الخناق على المكتبات المنافسة لمكتبة الاسكندرية فى ذلك الوقت ، وذلك لاضعاف هذه المكتبات وخاصة مكتبة برجامة التى كانت تعتبر المنافس الاكبر لمكتبة الاسكندرية القديمة ، كما زاد تعصب الباحثين عن الكتب من أهل برجامة ، ولم يكن السوق قادرا على مد الراغبين فى الشراء بما يكفيهم ، ولزم لعدد كبير من نسخ المخطوطات كمية ضخمة من اوراق البردى لابد من استيرادها من مصر ، ووجد البطالمة فرصتهم فى ذلك لاضعاف منافستهم الكبيرة ، بحظر تصدير البردى من مصر ، حقيقة انهم انتجوا نوعا من الجلود صالحا للكتابة ، ولكن رغم ذلك ظلت مكتبة الاسكندرية هى المسيطرة الاولى على كل ما يتعلق بانتاج الكتب ، وهذا يدل على مدى الحرص من ناحية الملوك البطالمة على ان تكون مكتبة الاسكندرية المنافسة من الوسيلة السهلة لكتابة الكتب على اوراق البردى .

وسعيا وراء تركيز الاضواء على عاصمة البطالمة كمركز للثقافة العالمية عهد البطالمة بامانة المكتبة الى سلسلة من الامناء كانوا من ابرز العلماء كل فى ميدانه . وقد تعهد هؤلاء الامناء بان يقوموا بتنظيم المكتبة وتصنيف الكتب وفهرستها ، الأمر الذى يسهل عملية استعمال هذه الكتب بالنسبة للدارسين فيها فى شتى المجالات .

وهكذا نجد ان البطالمة قد نجحوا فى سياستهم من الناحية الثقافية الى

ابعد حدود النجاح ، فاصبح الموسيون أو ملحقته مكتبة الاسكندرية القديمة اعظم مراكز الاشعاع الثقافى فى العالم بأسره بما حوته من كتب عديدة فى مختلف فروع المعرفة ، وبمن انضم اليها من اشهر العلماء فى ذلك العصر ، كما اجتذبت العديد من الدارسين .

الفصل الخامس

روما والشرق الهللينستي



الفصل الخامس

رومـــا والشرق الهللينستى

أهم مصادرنا عن هذه الفترة :

ولد بوليبوس ميجالوبوليس باقليم أركاديا بالبلوبونيز . ويعتبر تاريخه المكتوب باليونانية أوثق مصدر لمعلوماتنا عن فترة التوسع الرومانى خلال القرن الثانى (٢٠٠ - ١٤٤ق .م) . كان أبوه قطبا سياسيا فبدأ بالاشتغال بالسياسة فى سن مبكرة اثناء فترة حاسمة من تاريخ بلاده وهى احتدام النزاع بين عصبة أو « حلف آخيا » والرومان . ذهب الى روما كرهينة مع ألف من بنى قومه حيث قضى عدة سنوات تعرف فيها على أخلاق الرومان ونظمهم وزعمائهم . سمحت له السلطات الرومانية بالتنقل بين أنحاء ايطاليا . وبعد تدمير كورنث (١٤٦) أسهم فى تصفية الموقف مع بلاد اليونان . وكتب بوليبيوس تاريخا عاما أو عالميا فى ٤٠ كتابا عالج فيه الفترة الممتدة من ٢٢٠ - ١٤٤ ق . م . والكتل الخمسة الأولى (١ - ٥) كاملة (وفيها يستعرض بايجاز الحرب البونية الأولى ، والأحوال فى روما وقرطاجة والشرق خلال الفترة ما بين عام ٢٦٤ وعـــام ٢١٦) ، والكتب من ٦ - ٤٠) وصلتنا فى شكل شذرات، فضلا عن مقتطفات منها وردت ضمن مؤلفات ليفيوس وديودور الصقلى وأبيانوس وبلوتارخوس .

أهلته خبرته السياسية والعسكرية لأن يكون مؤرخا كبيرا ، وقد رجع بنفسه الى السجلات الرسمية ، فضلاعن معرفته بالشخصيات الكبيرة ، والمامه بالأحداث الجارية . لقد راعه صعود نجم روما فى أفق البحر المتوسط ، وتأثر بقوتها وأعجب باستقرار نظمها السياسية ،

وبالدستور الرومانى الذى وصفه بأنه دستور متوازن يجمع بين مختلف العناصر : الملكية أو الحكم الفردى الممثل فى الامبريون القنصلى ، والارستقراطية الممثلة فى السناتو ، والديمقراطية الممثلة فى الجمعيات الشعبية ونقاء العامة . لكنه لم يفطن الى أن هذا الدستور كان قد بدأ يختل فى أيامه نتيجة للفتوحات والتوسع . أعجب بوليبيوس بأخلاق الرومان ، وعزا هذا التوسع الى صلابة هذه الأخلق ومتانة الدستور الرومانى . لكن بمرور الزمن أحس بوليبيوس بأن تغييرا طرأ على أخلاق الرومان نتيجة للتوسع ، والثروة ، والفساد فتخلى عن نظريته السابقة وبدأ يعزو هذا التوسع الى قوة خفية هى الحظ أو التوفيق .

كذلك توجد عدة نقوش معظمها يونانية نستقى منها معلومات عن هذه الفترة .

الحالة السياسية فى الشرق فى عام ٢٠٠ :

استطاعت روما فى غضون السنوات التى أعقبت معركة زاما (٢٠٢) أن تفرض سيادتها على الجانب الشرقى من حوض البحر الأبيض المتوسط مثلما فعلت فى حالة الجانب الغربى منه كنتيجة للحربين البونية الأولى والثانية ، أى أن روما بعد أن فرغت من الجانب الغربى ولت وجهها شطر الجانب الشرقى . ولكى نفهم أسباب تدخلها فى الشرق ، واتساع سلطانها بسرعة فى تلك المنطقة ينبغى أن نلقى نظرة على أحوال الممالك الهللينستية الثلاث التى كانت قد قامت على أنقاض امبراطورية الاسكندر الأكبر وهى مصر ومملكة آل سليوكوس (أو سوريا كما يسميها الرومان) ومقدونيا .

وأما عن مملكة مصر التى كانت تحكمها أسرة البطالمة المقدونية

فكانت تشمل وادى النيل ، وبرقة وساحل سوريا وقبرص وبعض المدن في جزر وسواحل بحر ايجه . وكان البطالمة أجانب يحكمون رعايا أغلبهم من المصريين . وكانوا يحتفظون بسيطرتهم عن طريق جيش قوامه من المرتزقة المقدونيين والاغريق ، وعن طريق ادارة مركزية قوية جميع مناصبها في يد الاغريق . ولما كان الملك البطلمي قد استولى على مصر بحد السيف ، فقد أعتبر نفسه المالك الوحيد الأرض – يشتغلون كمستأجرين للأراضي الملكية . وقد فرضت عليهم قيود كثيرة والتزامات جعلتهم في وضع لايختلف كثيرا عن أقنان الأرض . وكان نظام الضرائب ، والاحتكار معقدا مرهقا ، وبفضله تمكن البطالمة من تنمية الدخل واقتناء ثورة طائلة تحدث عنها الشعراء وعاشوا عيشة البذخ فى عاصمتهم الاسكندرية ، وساعدهم ذلك على متابعة سياستهم الاستعمارية .

وبعد عام ٢٦٧ كانت سياسة البطالمة تهدف الى توطيد سيادتهم فى البحر الايجى – وهو ملتقى أنظار الممالك الهللينستية الثلاث – وجنوب بلاد اليونان ، (التى كانت لاتزال قبلة أنظار ملوك العصر الهللينستى بوصفها أما روحية ، وموطنا للخبراء والجنود المرتزقة ، وأداة للدعاية) وفينيقيا الغنية بالاخشاب التي تفتقر اليها مصر . ولتحقيق هذه السياسة اضطر البطالمة الى بناء أسطول للسيطرة على مياه الجانب الشرقى من البحر المتوسط ، غير أن ذلك أدى الى اصطدامهم باستمرار بمقدونيا ومملكة سليوكوس ، اذ كانت احداهما تسعى دائما الى طرد البطالمة من البحر الايجي ، والأخرى تعمل على تطهير ساحل سوريا من نفوذهم .

في عـام ٢٤٦ تحطم الاسطول البطلمي في مـعـركـة أندروس (Andros) على يد مقدونيا فتضعضعت سيادة البطالمة البحرية ، ولكنهم لم يتنازلوا عن ممتلكاتهم في سوريا والبحر الايجى . وفي عام ٢١٧ غزا الملك السليوكي مصر من الشرق فاضطر بطليموس الرابع (فيلوباتور) هو ووزراؤه الى تجنيد المصريين في الجيش لأول مرة ، وانتهت « معركة رفح » بانتـصـار البطالمة على العـدو بفـضل المصـريين ، وزال الخطر الخارجي ، ولكن معركة رفح تعتبر نقطة تحول في تاريخ مصر البطلمية لأن هذا الانتصار زاد من اعتزاز الوطنيين بأنفسهم ودفعهم الى المطالبة بحقوق وامتيازات كانوا محرومين منها ، وانطلقت الحركة القومية فاشتد الاحتكاك بين العنصرين المصرى والاغريقي ، ونشبت الثورات ، الأمر الذى أدى الى انهاك قوى الأسرة البطلمية واضعاف مركزها ، وزادها ضعفا استحكام النزاع بين أفرادها ، وهو نزاع لم تستفد منه سوى روما التي تزايد تدخلها في شئون مصر الداخلية ، وصار البطالمة غير قادرين على حماية ممتلكاتهم في الخارج ، أو الدفاع عن مصر نفسها ضد الغزو في المستقبل .

وأما مملكة سليوكوس التى عرفها الرومان فيما بعد باسم « سوريا » فكانت عاصمتها في أول الأمر هي سلوقية التي اسست عام ٣١٢ على نهر الدجلة ثم انتقلت الى أنطاكية على نهر العاصى . وتعتبر اكبر الممالك الهلينستية وأكثرها سكانا ، وتلي مصر في الثروة . كانت في الواقع امبراطورية تمتد من البحر الايجي الى حدود الهند ، وتشمل جنوب آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين ، وفارس ، وشمال سوريا . لكن اتساع رقعتها كان عاملا من عوامل ضعفها لتباعد المسافات بين

ولاياتها المختلفة ، وعدم تجانس الشعوب التى تسكنها . كانت أسرة سليوكوس كأسرة بطليموس ، تحتفظ بسيطرتها عن طريق جيش من المرتزقة ، وعن طريق المدن الاغريقية التى أسسها الاسكندر الاكبر وخلفاؤه لتكون مراكز اشعاع للحضارة اليونانية . غير أن هذه المدن التى كانت بمثابة الجزر الصغيرة وسط بحر فسيح لم تحدث الا أثرا طفيفا ولم تنجح الا نجاحا ضئيلا فى صبغ الأهالى بالثقافة الهللينية فظلوا خاضعين للغزاة فى الولايات الشرقية ، والمنازعات بين أفراد الأسرة المالكة . هذا فضلا عن السياسة التى انتهجتها روما ازاءها لاضعافها ماديا منذ عام ١٦٨ حتى لاتقوم لها قائمة .

هذه العوامل أدت الى تمزيق أوصال الامبراطورية لفترة امتدت حتى عام ٢٢٠ عندما تحسن الموقف بفضل جهود ملك قدير عالى الهمة وهو انطيوخوس الثالث (٢٢٣ - ١٨٧) الذى أخمد ثورة حكام اقاليم ميديا وفارس وآسيا الصغرى وقام بعدة حملات موفقة (٢١٢ - ٢٠٤) استرد بها ممتلكاته الآسيوية حتى بأكتريا وهى تقابل شمال افغانستان وجزء من تركستان الروسية (حيث تقع بلخ) . وكانت قد ضاعت من يد اسلافه ، واكسبته الانتصارات لقب « الأكبر » .

وجدير بالذكر أن البحر الايجى كان موضع نزاع بين البطالمة وآل سليوكوس وكان كل من الفريقين يتطلع الى بلاد اليونان ويعمل على التودد اليها . على أن النزاع بينهما كان على أشده من أجل الساحل الفينيقى أو بالأحرى من أجل ما يعرف « بجوف سوريا » (وهو حوران وجزء من الأردن) .

وكان البطالمة - على نحو ما ذكرنا - فى حاجة شديدة الى

خشب لبنان لبناء الاسطول وأدى الصراع على « جوف سوريا » الى سلسلة من الحروب تعرف « بالحروب السورية » بين مصر وسوريا . وقد أنهكت هذه الحروب قوى الدولتين .

وأما مقدونيا - حيث كانت تحكم أسرة أنتيجونوس الملقب « بالأعور» (مات عام ٣٠١ ق . م) - فهى أصغر الممالك الهللينسيتية مساحة وأقلها سكانا وأضألها موارد . ولكنها كانت أمة قوية فى الداخل ، وأكثر تماسكا من الممالك الاخرى . وقد احتفظت أسرة انتيجونوس بطابع الملكية التقليدية ، وعملت على أحياء الروح القومية بين المقدونيين وكسب ولئهم ، وتمسكت بالنظام والتقاليد العسكرية التى كانت سائدة فى أيام فيليب الثانى وابنه الاسكندر الأكبر . وتهيأ لملوكها فرصة تكوين جيش أغلبة من المقدونيين الذين لم يفقدوا صفاتهم الحربية ، وكان هذا الجيش على صغره جيشا وطنيا قديرا . وكانت مملكة آل انتيجونوس تشمل الى جانب مقدونيا ، تيساليا وشرق بلاد الاغريق بسبب مقاومة الحلفين الآخى والأيولى اللذين كانا يتلقيان مساعدات ضخمة من البطالمة . غير أن المنازعات بين الدويلات الاغريقية أدت الى انحياز الحلف الآخى (عصبة آخيا) الى جانب مقدونيا . وفى عام ٢٢٢ تمكنت مقدونيا من توحيد وسط بلاد اليونان والبلوبونيز فى حلف أو عصبة تحت زعامتها . واستطاع فيليب الخامس (٢٢٢ - ١٧٩) ، أن يحتفظ بمركز مقدونيا فى بلاد الاغريق على الرغم من هجمات أيتوليا وبرجامون وردس من أثناء الحرب المعروفة « بالحرب المقدونية الأولى » (٢١٥ - ٢٠٥) .. وكانت بلاد اليونان ذات أهمية خاصة بالنسبة لمقدونيا لوقوعها بالقرب منها مباشرة . ومنذ أن غزا

فيليب والاسكندر بلاد اليونان لتأمين ظهره قبل قيامه بالحملة على بلاد الفرس صار لمقدونيا حق التدخل والتسلط ، ولذلك عملت على تثبيت أقدامها فى تلك البلاد باحتلال ثلاثة مراكز استراتيجية وهى ديميترياس وخاليكس وكورنثة التى اشتهرت باسم « اغلال بلاد اليونان » . يلاحظ أيضا أن محاولة تجميع بلاد اليونان فى شكل حلف انما هو تقليد قديم يرجع الى ايام فيليب الثانى الذى أنشأ عصبة كورنثة تحت زعامته الشخصية .

هكذا كانت لاوضاع فى الشرق الهللينستى عند بداية التدخل الرومانى - وسنحاول الان معرفة أسباب هذا التدخل .

فى عام ٢٠٤ (؟) مات بطليموس الرابع (فيلوباتور) فتولى عرش مصر بطليموس الخامس « ابيفانيس » (٢٠٤ - ١٨٠) وكان لايزال صبيا لم يبلغ سن الثالث (٢٢٣ - ١٨٧) على تجديد المحاولة لانتزاع ممتلكات مصر فى سوريا . وكانت انتصارات الملك السليوكى فى حملته الآسيوية (٢١٢ - ٢٠٥) التى استرد بها ما ضاع على يد أسلافه ، قد أثارت الغيرة فى قلب فيليب الخامس ، ملك مقدونيا ، فهاجم فجأة بعض مدن على ساحل طراقيا تدخل فى نطاق الحلف الآيتولى ، وبعض جزر البحر الأيجى ، وقام باحتلالها فى عام ٢٠٢ . وقد قيل فيما بعد أنه كان هناك اتفاق سرى أو تواطؤ بين أنطيوخوس وفيليب على اقتسام دولة البطالمة أو على الاقل اقتسام ممتلكاتهم الموجودة خارج افريقيا . غير أننا نشك فى أن هذا مثل هذا الاتفاق قد تم بين الملكين ، لأن مصالحهما كانت متضاربة الى حد أن قيام هذا الاتفاق يعتبر أمرا مستبعدا . ولم يأت عام ٢٠١ حتى كانت اعتداءات فيليب

على جزر البحر الايجى قد أدت الى اصطدمه ببرحامون ورودس اللتين استنجدتا بروما نظرا لعجزهما عن وقف اعتدائاته . وهذه الخطوة التى اتخذتها برجامون ورودس هى التى أدت الى تدخل روما فى شئون الشرق الهللينستى والى قيام « الحرب المقدونية الثانية » .

الحرب المقدونية الثانية (٢٠٠ - ١٩٧) :

لم يكن لروما سياسة شرقية محددة حتى عام ٢٠١ . وأما اصطدام روما مع دول أخرى كالليريا (٢١٩) ومقدونيا (٢١٥) فقد نجم عن عدوان هذه الدول عليها أو على حلفائها ، ولم ينجم عن سياسة عدوانية مرسومة من جانبها . وكانت طبقة ملاك الأراضى الارستقراطية فى روما منصرفة عن بلاد الاغريق والشرق الهللينستى ولم تدخلهما بعد فى نطاق مطامعها . وهناك أكثر من قرينة على أن روما كانت لاهية عن شئون العالم الهللينى ولاتكترث بها ولاتخشى أى خطر من جانبه ، بدليل شروط الصلح السهلة التى فرضت على فيليب الخامس بعد الحرب المقدوبية الأولى وعدم تلبية السناتو نداء يتوليا لنجدتها من عدوان فيليب فى عام ٣٠٢ ، وعدم أهتمامه بشكاوى مصر ضد انطيوخوس « الأكبر » ونواياه السيئة نحوها . غير أن السناتو بدأ يفيق من غفوته ويغير موقفه السلبى من الأحداث الجارية بالعالم الاغريقى ، بل بدأت تساوره المخاوف على المصالح الرومانية تحت تأثير ادعاءات أتالوس الأول ورودس أن فيليب وأنطيوخوس يتأمران سرا على اقتسام ممتلكات مصر . وكانت صورة الصراع القريب مع هنبيال (٢١٨ - ٢٠٢) لاتزال ماثلة فى أذهان الرومان فساورهم القلق من احتمال غزو ايطاليا مرة ثانية ، وارتابوا فى أن تكون الحملة التى يقوم بها فيليب فى طراقيا

والبحر الآيجي ليست سوى مقدمة لغزو ايطاليا نفسها بمساعدة حليفة أنوطيوس . لذلك قرروا العمل بسرعة للقضاء على فيليب الخامس قبل أن يزداد قوة . وتلمسوا ذريعة لاشهار الحرب عليه فاتهموه بالعدوان على مملكة حليفهم أتالوس دون مبرر مع أن اتالوس كان في الحقيقة هو المعتدى ، وأن فيليب كان حريصا على أن لايتحرش بحلفاء روما في العالم الاغريقي . ولم يتقتنع الجمعية المئوية بقرار اعلان الحرب الذى أوصى به السناتو ، ولم تصادق عليه الا بعد تردد ، وبعد أن أفهمها السناتو أن ايطاليا قد تتعرض لغزو جديد اذا لم يبادر بوقف عدوان فيليب . وكانت روما قد أوفت سفراء الى بلاد الاغريق لأرهاب فيليب وتشجيع أعدائه هناك ، ولم تلبث أن عهدت اليهم بتقديم انذار نهائى رسمى الى الملك المقدونى الذى استولى على مدينة ليسيماخيا عام ٢٠٢ وكان مشغولا وقتئذ بحصار « أبيدوس » على الدردنيل (٢٠١-٢٠٠) ، وتضمن الانذار المطالب التالية : الكف عن مهاجمة أى مدينة اغريقية وممتلكات بطليموس الخامس (ابيفانيس) ، وقبول مبدأ التحكيم فى نزاعه مع برجامون وردوس .

ولما رفض فيليب قبول الانذار بدأت الحرب . وعندئذ عهدت روما الى سفرائها بالاتجاه الى رودس ثم زيارة أنطيوخوس الثالث فى سوريا للتوسط لديه من أجل مصر فى الظاهر ، ولتوكيد حسن نوايا الرومان نحوه فى الواقع حتى لاينصرف عن حملته ضد مصر ، وينضم الى فيليب .

وفى أواخر عام ٢٠٠ عبر جيش رومانى البحر الأدرياتى الى الليريا . وحاول التوغل فى قلب مقدونيا ولكنه فشل فى تلك السنة والتى

بعدها على الرغم من المساعدات التى تلقاها من الحلف الآيتولى وبرجامون ورودس وأثينا ، ولم يستطيع أن يلحق بفليب هزيمة فاصلة أو أن يغزو مملكته . لكن فى عام ١٩٨ تغير الموقف بوصول القنصل فلامينينوس الذى استطاع أن يكسب الحلف آآخى الى جانب الرومان ، وأن يرغم فيليب على اخلاء مراكزه فى ابيدوس ، والانسحاب الى ثيساليا . وجرت مفاوضات لعقد الصلح انتهت بالفشل لأن الرومان أصروا على جلاء الحاميات المقدونية عن كورنثة وخالكيس وديميترياس ، وهى القلاع الثلاث التى اشتهرت بأنها « الأغلال التى كان فيليب يكبل بها بلاد اليونان » . وفى عام ١٩٧ استؤنف القتال فى ثيساليا حيث جرت معركة كينوسكفلاى التى انتصر فيها الرومان انتصارا ساحقا . ويعزى النصر الى المساعدات الكبيرة التى قدمها الحلف الآيتولى ، وبخاصة الى تفوق الفرقة الرومانية فى تشكيلها العسكرى المرن على الفيلق اليونانى الجامد . ولاذ فيليب بالفرار الى مقدونيا . وكان الحلف الآيتولى يرغب فى القضاء على فيليب قضاء تاما ، ولكن فلامينينوس أدرك أهمية مقدونيا كسياج منيع يقى حضارة العالم الاغريقى من اغارات القبائل الكلتية المتبربرة الزاحفة من حوض الدانوب الادنى ، فلم يساير الايتوليين فى رغبتهم . وأملى السناتو على فيليب شروط الصلح التى قضت باستقلال بلاد اليونان ، وتجريد مقدونيا من ممتلكاتها فى بلاد اليونان ، واالليريا ، وجزر البحر الايجى ودفعها تعويضات حربية (صغيرة) قدرها ١٠٠٠ تالنت ، وتنازلها عن كل السفن الحربية تقريبا . وأذعن فيليب لهذه الشروط (١٩٦) بل صار حليفا للرومان بعد ذلك .

وفى حفل الألعاب الدورية الذى أقيم ببلدة اسثموس (بالقرب من كورنثة) عام ١٩٦ أذاع البروقنصل فلامينينوس « تصريحه » الشهير الذى يقضى بتحرير الشعوب التى كانت خاضعة لحكم مقدونيا . وأثار التصريح موجة من الحماس الشديد فى معظم المدن اليونانية . وقضى فلامينينوس فترة ليرقب آثار تصريحه ويشرف على تنفيذ ما جاء به ، ولينظر فى مطالب المدن اليونانية . وعاد فلامينينوس الى روما فى عام ١٩٤ تاركا للاغريق حرية التصرف ، ويبدو أنه قد تأثر هو وغيره من القواد الرومان بالثقافة اليونانية . غير أن الرومان لم يكونوا مستعدين للتنازل عن ثمرات النصر التى جنوها فى الحرب الأخيرة ، وكانوا يريدون ضمانا ضد الغزو من الشرق ، وبدأوا ينظرون الى بلاد الاغريق كمنطقة نفوذ رومانية ، ويأملون فى ألا يتعارض ذلك مع الحرية التى منحوها للاغريق ، وقد توقعوا أن يجدوا فى بلاد الاغريق التى حرروها من سيطرة مقدونيا حلفاء موالين لهم ، وسياجا يقيمهم من عدوان فيليب أو أنطيوخوس .

الحرب مع أنطيوخوس :

أثار نشاط أنطيوخوس الثالث ريبة السناتو الرومانى ، وأصبح ينذر بالاحتكاك وندلاع الحرب . وكان الملك السليوكى قد أتم غزو « جوف سوريا (Coele syria) فى عام ١٩٨ ، ثم انتهز فرصة انشغال فيليب بالكفاح ضد الرومان ، وولى وجهه شطر آسيا الصغرى وطراقيا على أمل أن يسترد الممتلكات التى كانت قد يد سلفه سليوكوس الأول (نيكاتور) . وفى عام ١٩٦ عبر أنطيوخوس الدردنيل ليوطد أقدامه فى طراقيا . وحاول الرومان اقناعه بالانسحاب دون جدوى . وبعد حوالى سنتين دخل

في مفاوضات مع السناتو على أمل أن يحصل على اعتراف الرومان بحقوقه في طراقيا وبعض المدن في اسيا الصغرى التي رفضت الاعتراف بسيدته اعتمادا على تأييد روما لها . ولم يفلح في ذلك لأن الرومان كانوا يرون في احتلاله لطراقيا خطرا دائما على مصالحهم في بلاد الاغريق . وفي الحق أن أنطيوخوس كان لايضمر أى نوايا سيئة نحو روما ، ولكنه لم يكن مستعدا للتنازل عن ممتلكاته الأوربية . وبدا له أن يساعد العناصر المناوئة للرومان في بلاد الأغريق هادفا بذلك الى الضغط على روما فتسلم بمطالبه في أوروبا . وعلى ذلك فقد ستقبل انطيوخوس سفراء الايتوليين الذين كانوا يحملون وقتئذ لواء المعارضة ضد الرومان في بلاد الاغيرق . وكانوا قد حالفوا روما في الحرب المقدونية ، وبالغوا في قيمة المساعدات التي قدموها لها ، غير أنهم لم يلبثوا أن انقلبوا عليها وزداد حنقهم عليها لأنها لم توافقهم على تمزيق أوصال مقدونيا والقضاء عليها ، ولم تسمح لهم بتوسيع رقعة أراضي دولتهم الاتحادية على حساب جيرانهم . وبالاجمال كان « الحلف الآيتولي » يطمع في أن يتبوأ المركز الذى كانت مقدونيا تتبوأه بين الاغريق من قبل . وكان يرى في الحرب وسيلة مشروعة لتحقيق أطماعه ، وتنمية ثروته دون اعتبار لمصالح الغير ، وهو شيء لم تقره روما لأنه كان لايتمشى مع سياستها التي تهدف الى اقرار السلام في ربوع بلاد اليونا . وكان الأيتوليون قد بدأوا عقب معركة كينوسكفلاى يعملون على تقويض النفوذ الروماني بين الاغريق ، فلما تبين لهم موقف انطيوخوس من روما وما بينهما من جفاء وتوتر في العلاقات أخذوا يحرضونه على تحديها والاصطدام بها.

وفى عام ١٩٢ هاجم الآيتوليون بعض المدن المناصرة لروما واستولوا على قلعة ديميترياس ، وعرضوها على أنطيوخوس ، ووعدوه - على غير أساس - بالحصول على مساعدة فيليب ، ملك مقدونيا . واستنادا الى هذه الوعود عبر انطيوخوس البحر من آسيا الى بلاد الاغريق . وعند وصوله انتخبه الآيتوليون قائدا عاما لقواتهم . كذلك أخذ هنيبال - الذى كان قد اضطر الى الفرار من قرطاجة بسبب مؤمرات خصومه واللجوء الى قصر انطيوخوس عام ١٩٥ - أخذ هو الآخر يحرضه على غزو ايطاليا ولعل أنطيوخوس كان حكيما حين رفض أن يعمل بنصيحة القائد القرطاجى نظموا لتعذر تنفيذها ، ولكنه أخطأ خطأ جسيما بتفويته فرصة الانتفاع بمواهب هنيبال العسكرية . ولم يكن هنيبال أعظم قواد عصره فقط ، بل كان أيضا ألد اعداء الرومان .

ولم تقف روما مكتوفة اليدين فأنفذت فى ١٩١ جيشا عبر البحر الأدرياتى تحت قيادة القنصل جلابريو الذى نزل ببلاد الاغريق والتحم بقوات أنطيوخوس وأنزل بها الهزيمة فى موقعة ثرموبيلاى . وفر الملك السليوكى الى آسيا وقد خاب أمله فى الاغريق ، اذ عجز الايتوليون عن شد أزره وتعرضت بلادهم نفسها لخطر الغزو ، وتبين له أن وعودهم كانت جوفاء لأن فيليب والحلف الآخى وقفا الى جانب الرومان ، وانضمت سفن رودس ويومنيس الثانى ، ملك برجامون الجدى (١٩٧ - ١٦٠) الى الاسطول الرومانى .

وعندما لم يستجب أنطيوخوس لشروط الصلح التى وضعها الرومان قرر هؤلاء غزو آسيا الصغرى ، وتمكنوا من تدمير اسطوله فى معركتين بحريتين بفضل مساعدة رودس وبرجامون ، وبالتالى من السيطرة على

مياه البحر الايجى ، مما سهل لهم مهمة الدردنيل فى عام ١٩٠ . وكان الرأي فى روما يميل الى اسناد قيادة الحرب الى سكيبيو قاهر أفريقيا الأكبر .. غير أنه لم يكن من الجائز حينئذ اعادة انتخابه قنصلا ليتولى هذه الحملة ، ومن ثم فقد رأى السناتو أن يتخطى هذه العقبة بترشيح أخيه « لوكيوس » قنصلا ليتولى القيادة على أن يرافقه أخوه بوبليوس كنائب مساعد له (Legatus) ويمارس بذلك الشراف على الحملة من الناحية الفعلية .

وأحرز الرومان انتصارا حاسما فى معركة مجنيسيا فى خريف عام ١٩٠ ، وجنح الملك السليوكى للسلم ووضخ لشروط « صلح أباميا » الذى تم فى عام ١٨٨ ، وفضت بانسحابه من جميع الراضى التى تقع شمالى جبل طوروس وغربى بامفيليا ، وتسليم كل فيلة الحرب وكل اسطوله ماعدا عشر سفن ، ودفع تعويضات حربية تعتبر من أفدح الغرامات التى فرضتها روما على عدو مهزوم ، اذ بلغت ١٥,٠٠٠ تالنت، على أن تسدد على ١٢ قسطا سنويا ، والكف عن مهاجمة حلفاء روما ، وتسليم هنيبال الذى أتاح له انطيوخوس فرصة الهرب الى بروسياس ملك بيثينيا ، فلما انهزم الاخير على يد الرومان ورأى أن لامفر من تسليم هنيبال ، آثر القائد القرطاجى أن ينتحر بالسم على أن يقع فى يد أعدائه ، ومات فى سنة ١٨٢ ، أى بعد سنة واحدة من موت خصمه سكيبيو افريكانوس . ويلاحظ أن روما لم تعامل أنطيوخوس معاملتها لقرطاجة من قبل اذ تركت له حرية الدفاع عن مملكته ضد أى هجوم .

وكان من الطبيعى أن تكافىء روما حليفتيها برجامون ورودس

وتسمح لهما بتوسيع رقعة أملاكهما على حساب الملك السليوكي . ولا مراء في أن برجامون كانت المستفيدة الأولى من هذه الحرب وأن ملكها « يومنيس » هو الذى أوعز الى الرومان بضرورة طرد أنطيوخوس من آسيا الصغرى . ووزعت روما بينهما الأراضى التى انتزعت منه هناك ، فاستولت رودس على ليكيا وكاريا ، واستولت برجامون على بقية الممتلكات السليوكية فى آسيا الصغرى ، ووضعت يدها على الدردنيل (شبه جزيرة غاليوبولى) ، والمدن اليونانية التى ادعى يومنيس ملكيته لها من قبل ، وتركت المدن الأخرى محتفظة باستقلالها . وشرعت روما فى توطيد السلام فى ربوع آسيا الصغرى بأن أخضعت القبائل الكلتية فى جلاتيا ، وهم أعداء برجامون ، وأرغمتهم على دفع غرامة جربية كبيرة . وجدير بالملاحظة أن روما لم تحتفظ لنفسها بأى أراضى فى آسيا الصغرى ، بل آثرت عملا بمبدأ « فرق تسد » توزيعها بين الدويلات المتنافسة حتى لاتقوى واحدة منها فتتجرأ على تحديها أو مناوأتها فى المستقبل .

وجاء دور الآيتوليين الذين جردت روما حملة عليهم فى عام ١٩٠ سعوا بعدها الى عقد الصلح وخاصة عندما هاجمهم أيضا فيليب ملك مقدونيا . وطالبهم الرومان بالاستسلام دون قيد أو شرط . ورفضت الشروط فاستؤنف القتال . ومضى عام دون أن تتخذ روما ضدهم اجراءات حاسمة ثم أنفذت اليهم فى العام التالى (١٨٩) جيشا بقيادة القنصل نوبيليور الذى مضى فى قتالهم بهمة وشدد الحصار على قلعتهم الحصينة فى أمبراكيا . لكن ازاء مقاومة الايتوليين العنيفة ، ووساطة الأثينيين بين الطرفين ، تنازل الرومان عن طلب الاستسلام غير المشروط

، وعقد الصلح (١٨٩) الذى نص على تنازل الحلف الأيتولى عن حقه فى كل الاراضى التى استولى عليها أعداؤه فى الحرب ، وعقد محالفة دائمة مع الرومان على غير قدم المساواة مع الالتزام بمساعدة روما ضد جميع أعدائها، وتسليم قلعة أمبراكيا . وقد نهبت هذه القلعة واحتلت القوات الرومانية جزيرة كفاللينيا ، وكر القراصنة .

الحرب المقدونية الثالثة (١٧١ - ١٦٨) :

لقد وطدت المحالفة الاخيرة بين روما والحلف الأيتولى أقدامها فى بلاد الاغريق بصفة مستديمة ، وكان انتصارها فى الحرب على انطيوخوس معناه أنها تبسط نوعا من الحماية على العالم الاغريقى . ومع هذا فان السناتو لم يبد منه أنه يرغب فى نقض سياسة فلامينينوس ، فبقيت الدويلات الاغريقية سديقة لروما طالما كانت تتمتع باستقلالها السياسى . غير أن هذه العلاقات الودية لم تيتمر طويلا واعتراها فتور أعقبه توتر شديد ، مما دفع روما الى التدخل فى شئون الاغريق والقضاء فى النهاية على استقلالهم الظاهرى . وكان السبب الجوهرى فى ذلك التغيير هو أن روما كانت تفسر استقلال الاغريق بمعنى حرية التصرف بشرط الا يتعارض ذلك مع تنظيمات روما ورغباتها ، بينما كان الاغريق يفسرونه بمعنى تمتع الدويلات المستقلة بالحرية المطلقة ، ومن ثم فانهم كانوا يبغضون أى انتقاص أو مساس بحقوقهم . وازاء هذا التضارب فى وجهات النظر ، لم يكن هناك مناص من قيام المشاكل ووقوع الاصطدام .

والاسباب الرئيسية التى أدت الى تغيير سياسة روما هى المتاعب التى أثارها الحلف الآخي ، وتجدد أطماع مقدونيا . كان هذا الحلف

(أو الدولة الاتحادية) يضم دويلات كثيرة على غير ارادتها فكانت تسعى الى استرداد استقلالها ، ولكن الحلف كان يقاوم هذه النزعات الانفصالية . وقد ساءت علاقات اسبرطة بالآخيين بسبب سياستهم نحوها فى مسألة اعادة المنفيين الاسبرطيين ، مما دفعها الى الاستنجاد بروما . وقد جرح القرار الرومانى كبرياء الاتحاد الآخى دون أن يحسم هذه المشكلة وأثار تشبث الاتحاد بحقوقه حنق الرومان . وقد ظهر فى الاتحاد الآخى حزبان ، حزب يناصر سياسة روما ولا يرى غضاضة فى الأذعان لأوامرها ، وحزب قومى يصر على التمسك بحقه فى حرية التصرف . وكانت روما قد عمدت منذ عام ١٨٠ الى تقوية الاحزاب الارستقراطية فى الدويلات الاغريقية لأدراكها بأن هذه الاحزاب اثبت على الولاء لها وأكثر تمشيا مع سياسة السناتو . وترتب على ذلك أن الاحزاب الديمقراطية بدأت تبحث عن المعونة الأجنبية ، فولت وجهها شطر مقدونيا .

وفى ذلك الوقت كانت علاقات فيليب الخامس قد بدأت تسوء مع الرومان لانهم رفضوا مطالبه بضم الاراضى التى فتحها عندما كان يعاونهم ضد انطيوخوس فى الحرب السورية . وكان الرومان يخشون من توسع مقدونيا ويؤثرون بقاءها ضعيفة حتى لاتصبح خطرا عليهم مرة أخرى . ويتحول فيليب بسبب موقفهم منه الى عدو لدود ، ويكرس جهوده لقوية جيشة حتى يناوىء سيطرة الرومان فى بلاد الاغريق مرة ثانية . عير أن فيليب توفى فى عام ١٧٩ تاركا وراءه جيشا يتراوح عدده بين ٣٠,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ مقاتل ، ورصيدا فى الخزانة قدره ٦٠٠٠ تالنت . وخلفه على عرش مقدونيا ابنه برسيوس الذى ورث عنه كراهيته

للرومان ، وسياسته في توثيق العلاقات مع أعداء روما في كافة أنحاء بلاد الاغريق . ولم تخف نوايا برسيوس على السناتو (مجلس الشيوخ الروماني) الذى كان مطلعا على تدابيره ، فبادر الى افسادها قبل أن تتم والى ارغامه على القتال - مثلما أرغم أباه من قبل - قبل أن يستكمل استعداده ، وكان ملك برجامون يعمل كأبيه أتالوس الاول على تشويه سمعة ملك مقدونيا والوشاية به والايقاع بينه وبين السناتو الروماني ، ولوفد اليه السناتو سفارة رومانية لتتقدم اليه ببعض مطالب كان قبولها معناه القضاء على استقلال بلاده . وكان من الطبيعي أن يرفض برسيوس هذه المطالب . وعادت السفارة الى روما حيث أعلنت الحرب على مقدونيا في عام ١٧١ .

ولما تبين لبرسيوس أن الرومان جادون في عزمهم ، حاول تلافي الخطر بتهدئة خواطرهم واسترضائهم . ولكن بدون جدوى ، اذ نزلت قوة رومانية في بلاد الاغريق عام ١٧١ ، واتجهت نحو تساليا . لكن في حملات هذه السنة والتى تلتها لم يستطع القواد الرومان أن يحرزوا أى تقدم . كذلك لم يظهر برسيوس أى مقدرة على استغلال الفرص التى سنحت له ، وحال بخله وتقتيره دون الحصول على مساعدة قبائل الكلت والتراقيين والجيساتاى والتى تقطن على حدود مملكته . ولم يتلق سوى مساعدات ضئيلة من جمهورية ابيروس الاتحادية ، وأحد زعماء الليريا يحكم معاقل في اقليم موبوتيا . وأخيرا اسندت قيادة الجيش الروماني الى رجل قدير ، وهو القنصل آيميليوس باولوس الذى رفع روح الجنود المعنوية وانتصر على برسيوس انتصارا ساحقا في معركة بيدنا في يوم ٢٢ يونيو (حزيران) عام ١٦٨ . ولاذ الملك المقدوني بالفرار ثم ارغم على

تسليم نفسه ، ونقل الى روما حيث عومل معاملة مهينة ومات فى الأسر ، وانهارت مملكة مقدونيا ، وقسمت اراضيها الى اربع جمهوريات مستقلة منعت من تبادل حقى التعامل والزواج كامل الأهلية ، وفرضت عليها جزية قدرها ١٠٠ تالنت . واستولت روما على المناجم والضياع الملكية . واغلقت مناجم الذهب والفضة لفترة من الزمن .

وكافأت روما أنصارها وعاقبت خصومها ، وكان القتل أو النفى جزاء زعماء الاحزاب المعارضة لجا فى كل مكان (وقد وجدت السلطات الرومانية اسماءهم فى أوراق برسيوس التى سقطت فى يدها) . ومع أن الآخيين لم يبدر منهم شيء يدل على عدم ولائهم للرومان ، فقد أمرت السلطات (عام ١٦٦) بترحيل ١٠٠ زعيم من زعماء آخيا الى روما بحجة اتاحة الفرصة لهم لكى يدافعوا عن انفسهم امام مجلس الشيوخ الرومانى ، وكان من بينهم المؤرخ الشهير بوليبيوس . وكان الغرض الحقيقى هو الاحتفاظ بهم كرهائن فى ايطاليا كضمان لسلوك الحلف الآخى فى المستقبل وحتى رودس التى كانت قد حاولت التوسط بين روما وبرسيوس لحسم النزاع بالطرق السلمية ، أرغمت على التنازل عن ممتلكاتها فى آسيا الصغرى ، وأصيبت تجارتها بضربة قاصمة عندما جعل الرومان من ديلوس ميناء حرة . وأما يومنيس ملك برجامون الذى أثار بتصرفاته ارتياب الرومان فى ولائه ، فقد عاملته روما معاملة مهينة وان تركته يحتفظ بمملكته سليمة . لكن مصير ابيروس كان أسوأ ، اذ نهبت مدنها السبعين ، وبيع أهلها البالغ عددهم ٥٠,٠٠٠ فى أسواق الرقيق .

وبالاجمال صارت روما منذ ذلك الحين السيد الحقيقى فى

الجانب الشرقى من حوض البحر الأبيض المتوسط . ولم يعد حلفاؤهم وأصدقاؤها يتمتعون الا بالاستقلال المحلى ، ولا يملكون الا اطاعة أوامرها . وليس أدل على تلك الحال من قصة « دائرة بوبيليوس » ، وهى قصة شهيرة . ففى أثناء الحرب المقدونية الثالثة غزا أنطيوخوس الرابع ملك سوريا ، مصر (١٦٨) ، فلما انتهت روما من الحرب مع برسيوس، أوفدت الى مصر سفارة برئاسة بوبيلوس لايناس لكى تطلب الى الملك السليوكى الجلاء عن مصر . والتقت السفارة بالملك عند ضاحية اليوسيس (الحضرة أو النزهة) قرب الاسكندرية ، حيث سلم بوبيليوس الملك قرار السناتو . وقرأ الملك القرار ثم طلب مهلة ليتدبر الأمر مع مستشاريه . ولكن السفير الرومانى رسم بعصاه دائرة على الرمل حول الملك الواقف أمامه ، وأمره بالاجابة على رسالة السناتو قبل أن يغادر الدائرة . وذهل الملك من لجهة الأمر العنيفة ، ثم رضخ قائلا بأنه سيعمل ما أمر به السناتو . وعندئذ فقط مد بوبيليوس يده اليه مصافحا كصديق وحليف للشعب الرومانى[1] .

وقد تضخمت ثروة روما بفضل الغنائم التى استولت عليها فى الحرب المقدونية الى حد أنها ألغت منذ عام ١٦٧ ضريبة الاملاك المفروضة على المواطنين الرومان (tributum civium romanorum) . وأتاح ازدياد الدخل الناتج من كافة الامبراطورية للحكومة اعفاء المواطنين الرومان من كل الضرائب المباشرة .

---

(١) عن هذه الواقعة ، انظر« مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى » (الترجمة العربية ١٩٦٨) ص ص ٨٣ - ٨٤ .

مراحل تطور العلاقات بين روما ومصر فى العصر البطلمى

بدأت العلاقات الرومانية بمصر فى عصر الملك بطليموس الثانى فيلادلفوس وانتهت باختلال روما لمصر فى آخر عهد الملكة كليوباترة السابعة . ومرت هذه العلاقات بثلاث مراحل : اتخذت أولها صورة ودية بين مصر - الدولة القوية التى كانت فى أوهى عصورها فى عهد بطليموس الثانى وروما الدولة الفتية التى بدأت قوتها فى الظهور فى حوض البحر المتوسط فى ذلك الوقت . وقد اتخذت مصر بارسال سفارة فى سنة ٢٧٣ ق .م . ، وردت عليها روما بأن بعثت سفارة الى مصر فى نفس العام . لقد اختلفت الآراء حول الغرض من هذه السفارات ، هل كانت تهدف الى توطيد أواصر الصداقة بين البلدين ، أو كانت تهدف الى عقد محالفة سياسية بينهما ، أم أنها سعت الى تنمية العلاقات التجارية بين كل من مصر وروما . ونرجح الرأى الأخير اذ أن العملة التى سكت فى عام ٢٦٩ ق . م . فى كمبانيا كانت تشبه الى حد كبير النقود التى سكنت فى مصر بمناسبة وفاة المملكة أرسينوى زوجة بطليموس فيلادلفوس فى عام ٢٧١ ق . م . ويبدو أن جايوس فابيوس وكوينتوس أوجولينوس اللذين كانا قنصلين فى سنة ٢٦٩ ق . م وكانا من المبعوثين فى السفارة الرومانية الى مصر هما اللذان سكاها . وذلك يشير الى وجود معاملات عالية بين البلدين .

استمرت علاقات الوفاق بين مصر وروما ، حتى خرجت مصر من الحرب البونية الأولى منتصرة ، وبدأت العلاقات بين البلدين فى اتخاذ مظهر سياسى جديد حيث بدأت كل دولة تعرض خدماتها ومساعدتها للدولة الأخرى وتقف مساندة لها فى وجه خصومها . فقد أرسلت روما

سفارة الى بطليموس الثالث بوارجتيس الأول تبذل . ومن خلالها الوعود بالمساعدة ضد انتيومس ملك سوريا الذى شن عليه الحرب ، لكن بطلميوس الثالث لم يقبل العرض شاكرا لأن القتال كان قد انتبىء من الغريب أن نجد فى تلك الفترة ايطاليين من كمبانيا ، بل وأيضا من الرومان يعملون بالقوات البطلمية فى القرن الثالث ق . م مما يجعلنا نظن أن مصر قد طلبت من روما استئجار جند مرتزقة .

وفى عهد بطلميوس الرابع فيلوباتور بعثت روما تطلب القمح من مصر ويبدو أن مصر قد أجابتها الى طلبها كما سيتضح فيما بعد . ولكن من الجدير بالذكر فى هذا العهد أننا وجدنا شخصا رومانيا يدعى « لوكيوس جايسوس الرومانى » وقد أوفد من قبل الملك البطلمى فيلوباتور الى كريت ليتولى أحد المناصب الادارية هناك ، وقد كانت العادة فى ذلك الوقت أن يتولى مثل هذه الوظائف موظفين من فئة الاسكندريين وأحيانا من اليونانيين . ولكن أن يتولى أحد الأفراد الرومان مثل هذه الوظيفة وفى هذا الوقت المبكر فهو أمر غير متوقع على الاطلاق .

فى حوالى ٢٠٠ ق . م . أرسل الرومان الى بطلميوس الخامس ابيفانيس سفارة بعد انتهاء الحرب البونية الثانية ، ليعلنوا له نبأ هزيمة هانيبال وليشكروه على ولائه الذى استمر على الرغم من تخلى الأصدقاء عنهم وطالبوه أن يظل على ولائه القديم اذا ما أعلنوا الحرب على فيليب . وقد بعث بطلميوس الخامس أبيفانيس الى روما سفارة يخبرهم أن الاثنين قد سألوه المعونة عند فيليب ، وأنه على الرغم من أن أثينا حليف مشترك ، الا أنه لمن يرسل أسطولا أو جيشا للدفاع أو للهجوم دون موافقة

الشعب الرومانى ، فاذا شاء الرومان الدفاع عن حلفائها فسيظل ساكنا فى مملكته ، أما اذا أثروا ألا يتخذوا أية خطوة ما فان بطلميوس على استعداد لأن يرسل قوات فى وسعها أن تحمى أثينا من عدوان فيليب . وقد شكر السناتو الملك وأبلغه أن الشعب الرومانى قد اعتزم حماية حلفائه فإذا احتاجوا للمعونة فى تلك الحرب فسوف يخبرون بطليموس لثقتهم بأنة فى وسعهم دائما الأعتماد على موارد مملكته لسد حاجات الجمهورية .

وبذلك يمكنا أن نقول أن العلاقات بين مصر و روما مازالت تتسم بالصداقة والود وان كانت قد تخللها بعض المظاهر العسكرية فى الاستعداد لتقديم المساعدة العسكرية . وفى ظهور الدولتين كدولتين حليفتين . ويبدو أن طلب القمح السابق قد أجيب وأن مصر قد أرسلت الى روما لقمح المطلوب . فالسناتو يذكر صراحة امكانية الاعتماد على موارد مصر لتغطية احتياجات روما . واذا كان الملك البطلمى قد أرسل مبعوثيه الى روما لاستشارتها فى أمر مساعدة الاثيين ، فلعله كان هناك اتفاق بين البلدين قصد منه حفظ التوازن السياسى فى بلاد الاغريق .

بدأ بالمرحلة الثانية لتطور العلاقات الرومانية بحصر فى القرن الثانى ق . . وفيها بدأ التدخل السياسى لروما فى مصر واضحا ، وبدأت تفرض حمايتها على الملوك البطالمة ، وكان أول الأسباب الى ذلك تطلع فيليب الخامس الملك المقدرنى وانتيوخس الثالث الملك السورى الى ممتلكات مصر الخارجية ، وعملهما على تقسيم هذه الممتلكات بينهما ، فما كان من روما الا أن تدخلت بحجة حماية مصر ، ويقال أنها عينت ماركوس لبيدوس وصيا على الملك المصرى ، ولعل الغرض من ترويج

هذه الاشاعة هو ايجاد ضمانا لحماية عرش الملك المصرى وممتلكاته فى الخارج من أطماع ملوك سوريا ومقدونيا .

ولكن أثبتت الأحداث التى توالت فى الفترة التالية من حكم البطالمة أن أطماع السليفوفيبس لم يكن لها حدود . ففى عهد الملك بطلميوس السادس فيلوستور ، استغل انتيوخس الرابع الملك السورى صغر سن الملك وقرابته له وجاء الى مصر حيث احتل منف وتقدم منها بغية الاستيلاء على الاسكندرية ، وعند بلوزيو الثانى الملك السورى برسول روما وكان اللقاء مثيرا . فقد رفض السفير الرومانى الرد على تحية الملك وقدم بدلا منها قرار السناتو طالبا من الملك السورى قرائته ولاجابة عليه ، ولأن انتيوخس رغب فى المماطلة فى الرد بحجة استشارة زصدقائه ، فقد رسم المبعوث الرومانى حول الملك دائرة بفرع صغير ، وطلب منه الرد قبل الخروج منها ، فبهت انتيوخس الرابع لهذه الوقاحة ، ولكنه لم يجد مفرا من الاستسلام والرد بأنه سيفعل ما يميله عليه الرومان .

اذا كانت حادثة الملك السورى والسفير الرومانى قد كشفت بشكل واضح عن مقدار الصيف الذى وصلت اليه الدولة البطليمة ، فان فيارمتور واحتمائه بروما عندما أثار أخاه بطلميوس يوارجتيس الثانى جمهور الاسكندرية ضده ، انما بين حاجة الملوك البطالمة الى نصير بذود عن عرشهم ويؤيد حقهم فيه . وعلى مصالحهم ضد منافسيهم ، ولذلك كانوا يلجئون الى روما . فقد استرد بطلميوس السدس فيلوتور عرشه واتفق مع أخيه على تقسيم المملكة بأن يحكم هو مصر وقبرص ويحكم يوارجيتس الثانى قورنيه . وقد حضر هذا التقسيم بعثة من أعمار السناتو ، وعلى الرغم من ذلك بدأ بطلميوس الثامن يوارجتيس الثانى فى السعى

الى ضم قبرص تحت حكمه وذهب الى روما يناشد السناتو أن يحقق رجاءه . وقد وافق السناتو على طلب ملك قورنيه فقد كانت مصلحه تتفق مع مصالحهم . وأمر يضم قبرص اليه . ويوضح هذا الأمر كيف كانت روما تعمل على استمرار النزاع بين الأخوين البطلميين ، وهى تهدف من وراء ذلك الى أن تمنح لها الفرص للتدخل فى شئون مصر .

كانت تصرفات الملك يوارجتيس الثاني توحي دائما بتبعيته للرومان وتزلفه الدائم اليهم ، وأكبر دليل على ذلك أنه كتب وصية تعد الأولى من نوعها أوصى فيها بأن تؤول مملكته الى الرومان اذا لم يخلفه وريث ذكر . ولكن لعب الحظ دوره ، ولم تنفذ هذه الوصية اذ سرعان ما سقط فيلوستور فتيلا فى أحدى المعارك بسوريا ، وعاد يوارجيتس الثانى ليحكم الامبراطورية المصرية كلها ، وكان الرومان وراء عودته الى العرش . وعندما بدأت الخلافات بين بطلميوس الثامن يوارجتيس الثانى وبين كليوباترة الثامية على العرش وضع التدخل الرومانى حدا لها ، فقد ظهر في الاسكندرية الرسول الروماني ليوكيوس ثيرموس ، صديق بطلميوس ، ولم يكن ظهوره بالطبع وليد المصادفة ، فقد كان من مصلحة روما أن يتولى يوارجيتس الثانى حكم البلاد فهو يدين بالولاء الكامل لروما ، وكان قليل الشعبية فى الاسكندرية ، بلْ لقد سبق أن طرده أهلها من الحكم فهو اذن فى حاجة دائمة الى تأييد رومانى ليمكنه الاحتفاظ بعرشه مستقبلا . وهكذا كان حاكم قورنيه هو الشخص المفضل لعرش مصر فى نظر روما ، فمن خلال تمكنها السيطرة على زمام الأمور وتحريكها وفق ما تقتضيه مصالحها . يبدو طبيعها اذن

أن تسـرع رومـا الى التـدخل فى هذا الموقف بارسـال سـفـيـرها الى الاسكندرية ، متوارية خلف حجاب التوفيق بين الجهات المتخاصمة.

فى حوالى دار ١٣٦ ق . م أرسل السناتو بعثة الى الشرق بقيادة سكيبيو ايميليانوس ، جاءت البعثة الى الاسكندرية وهى تنوى معرفة كل شيء عن المملكة المصرية ، واهتمـوا بمراقبة أحوال المدينة عن قرب ، ولاحظوا أهمـيـة الفنار ، وصـعـدوا فى النيل حـتى منف ، واسـتـرعى انتباههم خصوبة التربة وفوائد فيضان النيل ، وعدد قرى ومدن مصر ، والاعداد الكبيرة من السكان ، وموقع مصر ، ووجدوا فيها من مميزات ما يضمن أمن وعظمة الامبراطورية . وقد عقب الرومان على ما شاهدوه بأن مصر يمكنها أن تشكل قوة عظيمة اذا ما حكمها حكام جديرون بها . ومن مصر رحل المبعوثون الرومان وقد حملوا معهم الى السناتو بيانا بما شاهدوه معلنين أن مصر بلد ثرى لايجب أن يبتعد عن الوصاية والحماية الرومانية . ولقد كان لزيارة سكيبيو ايميليانوس وزملائه من الرومان الى مـصـر فـعل فى الاسكندرية . فـقـد ازداد غـضـب أهل المدينة ، وأحـسـوا باعتماد ملكنهم على مساعدة الرومان ضمانا لبقائه على عرش مصر ، وكان هذا أحد أسباب ثورتهم عليه فى ١٣١- ١٣٠ ق . م وهروبه ال قبرص . ورغم خطورة موقف يوارجتيس الثانى الا أن روما لم تتدخل فى هذه المرة ، فانه لم يكن هناك اى خطر على سلطتها فى الشرق من الحرب الأهلية فى مصر ، بل على العكس فق كانت روما تسعد بهذه المعارك .

أما البحارة والتجارة الرومان الذين كانوا يقيمون فى الأسكندرية فقد عبروا عن مشاعرهم الطيبة عندما استرد الملك بطليموس يوارجيتى

المدينة وذلك على نقش فى ديلوس أهدوه إلى لوحوس بن كاليمديس قريب الملك والملكة اعترافا بفضله وخيراته ويبدو أن هؤلاء التجار كانوا مقيمين بالأسكندرية وقد أفادهم استتهاب الامن والنظام فى البلاد . ويبدو أنه كان هناك نشاط تجارى بين الاسكندرية وايطاليا ، وأنه كان هناك أعداد كبيرة من الايطاليين فى الاسكندرية فى القرن الثانى ق . م كان بعضهم يزور الاسكندرية زيارات متقطعة ، وكان البعض الآخر يقيم فيها غاية دائمة ، وكان هناك تبادل تجارى بين ديلوس والاسكندرية وبين التجار الايطاليس فى كلتيهما ، كما كانت هناك نقوش تصور العلاقات التجارية بين التجار الرومان فى ديلوس والاسكندرية . ويبدو أن لوخوس المذكور فى النقش ، والذى كان أحد قواد يوارجتيس الثانى واستراتيجوس فى طيبة فى نفس الوقت وقد ساعد التجار الرومان فى ١٢٧ ق . م . عندما استعاد يوارجتيس الثانى المدينة .

بعد بعثة كيبو ايميليانوس بدأت تتوافد على مصر شخصيات رومانية هامة فى زيارات غير رسمية ، مما يبين ازدياد اهتمام الرومان بشئون مصر ومعرفة أحوالها . وكان الزائر فى هذه المرة عضوا من السناتو وجدناه يقوم بزيارة الى الفيوم بقصد السياحة ومشاهدة المناظر الطبيعية . فقد كتب أحد كبار الموظفين بالاسكندرية الى موظف يدعى اسكلبمياديس خطابا يخبره بأن لوكيوس بميوس ، عضو السناتو الرومانى ، سيقوم برحلة من الاسكندرة الى الفيوم بغرض السياحة ، ويقدم الموظف هنا التوجيهات لاستقبال الضيف والترحيب به .

وبعد وفاة وارجتيس الثانى تولى بطلميوس أبيون – ابنه غير الشرعى – حكم قورنية حسب وصية أبيه . وقد أوصى أبيسون بدوره بأن

تؤول مملكته الى الشعب الرومانى بعد وفاته ، اذ يقول أبيانوس أن اثنتين من الممالك ق انتقلتا الى روما بطريق الوصية حيث ترك لهم نيكومديس بثينيا ، وترك لهم بطلميوس ، الملك البطلمى الذى يدعى أبيسون ، قورينه ، وكانت هذه هى أول خطوة رسمية فى تحول جزء من الدولة البطلمية الى التبعية الرومانية .

فى المرحلة الثالثة من العلاقات الرومانية المصرية ، أصبحت مصر جزءا من عالم السياسة الرومانية وأصبح التدخل الرومانى فى شئونها تدخل صريحا ، ليس بالأساليب السياسية فقط ولكن العسكرية أيضا . فعندما توفى بطلميوس سوتير الثانى الذى لم يترك وريثا لعرشه كان الاسكندر بن الاسكندر الأول مقيما فى ذلك الوقت فى روما ، فتدخل الرومان فى تحصيبه ملكا على مصر . ولكن اذا كانت روما قد اختارت ملك مصر فى ذلك الحين ، فلا يعنى ذلك أن على أهلها الاستسلام لقرارات روما . فعلى الرغم من تبعية البيت البطلمى المالك للرومان وخضوعه تماما فى هذه الفترة للأوامر الرومانية ، الا أن الاسكندريين الذين اعتادوا منذ عهد فيلوستور التدخل فى اختيار الملك الذى يحكمهم ، لم يرضخوا لأوامر روما ، وقاموا حسبما يروى أبيان بسحب الملك المتوج من قبل روما الى الجمنازيون وقتلوه ، بعد أقل من شهر من توليه الحكم ، خاصة وقد قتل الملكة بزنيكى الثالثة التى تزوجها والتى يحبها الاسكندريون .

بعد وفاة الاسكندر الثانى تولى عرش مصر بطلميوس الثانى عشر الزمار ولما كانت ولايته العرش قد تمت بغير الرجوع الى روما فقد رفضت روما فقد رفضت روما الاعتراف بالملك الجدى ، واختلفت

وصية تقول بأن الاسكندر الثانى قد أوصى بأن تؤول مصر بعد وفاته الى روما . لذلك عمل بطلميوس الزمار (أوليتيس) لكسب تأييد قيصر - الذى أصبح قنصلا فى عام ٥٩ ق . م . وساد الاعتقاد بأن برنامجه السياسى يشمل ضم مصر الى روما - وكان ذلك مقابل ٦٠٠٠ تالنت دفعها اليه ، واعترف قيصر فى مقابلها بأوليتيس ملكا على مصر ، رغم اعتراض النبلاء ، واعتبره حليفا وصديقا للشعب الرومانى .

وقد صدر فى ٥٨ ق . م . قانون رومانى يضم قبرص وجعلها ولاية رومانية ، وهكذا استولت روما على قورنية ثم على قبرص ، ولم يتبق من الامبراطورية البطلمية سوى مصر تحت حكم بطلميوس أوليتيس . وعلى الرغم من انتحار حاكم قبرص وهو أخ للملك البطلمى ، لا أنه لم يحرك ساكنا مما يجعلنا نظن أنه كان هناك ثمة اتفاق بين الملك الزبير وبين قيصر على ضم قبرص بالاضافة الى الرشوة التى سبق أن دفعها . أدى سكون أراء نيس ازاء هذا الموقف الى ثورة الاسكندريين عليه وطرده من العرش . وبالطبع لجأ الى السناتو ليعيده الى عرشه ، لكن أختلفت الآراء حول الشخص الذى سيعيده وطريقة اعادته . وفى النهاية اتفق الملك البطلمى مع جابينيوس والى سوريا ، وهو من أعوان بومبيوس ، على اعادته بالقوة الى الاسكندرية فى مقابل ١٠,٠٠٠ تالنت فخرج جابينيوس ومعه ماركوس انطونيوس والملك بطلميوس فى حملة متجهين الى مصر .

وفى هذه الحملة ، تم امداد جابينيوس ، طبقا لتعليمات هيركانوس بالقمح والسلاح والأموال بواسطة انتيباتروس الذى كسب اليهود فى بياوزيون لصفة ، وجعل منهم حلفاء يتصرفون كحراس

لمداخل مصر . وهكذا وبمساعدة اليهود تمكن جانيبيوس من اعادة بطلميوس لحمايته وليس استمرار الوضع كما أقره بالاسكندرية .

أوصى بطلميوس أوليتيس بأن يتولى العرش من بعده ابنته كليوناتره السابعة وأخوها بطلميوس الثالث عشر ، على أن يقوم الرومان بتنفيذ الوصية والاشراف على تحقيقها . وبعد وفاته بدأت كليوباتره فى ممارسة الحكم مع أخيها الأصغر ، وفى أثناء ذلك قامت الحرب الأهلية بين يومبيوس وقيصره ، فاحتاج الأول الى قوات جديدة لمواجهة الثانى ، واستطاع أن يجمع أسطولا كبيرا من عدة دول من بينها مصر ، كما طلب مبالغا كبيرة من الأموال من بلاد كثيرة . وقد تمكن أبنه من الحصول على ٥٠٠ من رجال جايمينيروس الذين تركهم مع الملك بطلميوس فحراسته فى الاسكندرية ، وتم الحصول على القمح من عدد من البلدان من بيها مصر أيضا .

وفى ٤٨ ق . م . انتصر قيصر على يومبيوس فى معركة فارسالوس فلجز يومبيوس إلى أغنى بلاد العالم وهو فى حاجة شديدة الى المال مؤكدا أن الحكومة المصرية تدين له بمبلغ كبير ، ولا يحالج أحد الشك فى أنه كان يعوزه المال لمتابعة معركته ضد أبناء ومؤيدى يومبيوس . وقد جاء على لسان الشاعر لوكانوس أن قيصر رأى ثروة مصر بعيون شرهة وكان يرغب فى التذرع بأى حجة حتى يستولى على الغنيمة . وقد أعلن قيصر أنه سيبقى فى مصر ليحقق هدف أرابتيس وليفصل بين الأخوين المتصارعين على السلطة .

وقد جمع قيصر بطلميوس الثالث عشر وكليوباترة السابعة وأعلن عليهما وصية بطلميوس أوليتيس ، وأمرهما أن يعيشا سويا تبعا للتقاليد

المصرية ، وأن يكون الشعب الروماني وصيا عليهما .

ولكن ماذا كان من أمر الاسكندريين ازاء قدوم قيصر الى مصر وظهوره كوصى على الملكين الصغيرين ؟ لقد كان الاسكندريون يكنون كراهية شديدة للرومان وذلك منذ عهد الملك يوارجتيس الثانى عندما كانوا يشعرون بأنه يستمد قوته من تقربه الى الرومان وتزلفه اليهم . وقد عبروا عن كراهيتهم هذه من خلال عدد من الأحداث : منها قتلهم للأسكندر الثاني الذى اختارته روما ليكون ملكا على مصر ، وطردهم لبطلميوس أوليتيس الذى اعتمد على السناتو لتثبيته على عرشه . وبورتهم على رابيويوس بوستوموس ، المرابى الرومانى الذى أقرض بطلميوس أوليتيس الكثير من الأموال أثناء اقامته فى روما ، والذى وضعه الملك فى منصب ديريكتيس حتى يوفى ديونه مما اضطره للفرار من الاسكندرية . كما أوضحت معاملتهم للزومانى الذى قتل احدى القطط مدى شعورهم بالحقد والخوف فى وقت واحد من روما ، فقد اندفع العامة متزاحمين أمام منزله ، ولم ينقذ الرجل من العقاب لا الموظفون الذين أرسلهم الملك ليلتمسوا العفو منه ولا الخوف من روما الذى يشعر به الجميع .

أدى سلوك قيصر الى اثارة كل العواطف المعادية للرومان سواء فى الحكومة أو بين السكان ومن بينهم الفرق العسكرية الملكية . فأعلنوا حربا ضده عرفت باسم حرب الاسكندرية . وكان الفوز فيها حليفا لقيصر على الرغم من عنف المعركة وقوتها ، وقد ساعده على الفوز انضمام اليهود اليه . وبعد الحرب أعلن قيصر على عرش مصر كليوباتره السابعة وأخاها بطلميوس الثالث عشر فى الوقت الذى كان يستطيع فيه

أن يضم مصر الى الحكم الرومانى . ووفقا لرواية سويتونيوس فان السبب الذى منعه من ضم مصر هو الخوف من أن يتولى حكم مصر عندما تصبح ولديه رومانية حاكم قوى يستطيع أن يستخدم هذه الدولة المركزية الثرية كمركز لاشعال الثورت ضد روما . وقد سبق أن ناقش قيصر هذه الفكرة مع السناتو فى سنوات سابقة . ولايفوتنا أن نبين أن خوف روما المستمر من هذه الفكرة قد ظهر بعد ضم مصر فى العصر الرومانى . اذ اتهم والى لها بأنه تجاوز حضوره ، وضم عزله من منصبه . لذلك ترك قيصر كليوباترة ملكة على مصر وهو واثق من ولائها له ، اذ أنه لم يكن هناك رومانى واحد يأمن له قيصر ويجعله حاكما لمصر ، خاصة فى ظروف الحرب لأهلية وتخطيط أبناء بومبيوس لتكملة معاركه .

وقد أعلن قيصر اعادة قبرص الى الحكم البطلمى ، وسعى من وراء ذلك الى كسب تأييد الاسكندريين . أما كليوباترة والتى سعت منذ البداية الى كسب قيصر الى جانبها فلم تعد تخشى شيئا طالما تحظى بتأييد أعظم الرومان شأنا فى عصره . وطالما تخلصت من منافسيها بطلميوس الثالث عشر بوفاته غرقا وأرسينوى الرابعة بترحيلها مع الأسرى الى روما . وقد أنجبت كليوباترة من قيصر ابنا دعاء الاسكندريون " قيصرون » بقصد السخرية . وليس من المستبعد أن الأمال راودت كليوباترة فى أن تصبح امبراطورة على الامبراطورية الرومانية وذلك بالزواج من قيصر . ولكن سرعان ما خابت آمالها عندما بدأت الاشاعات تنتشر فى روما حول رغبة قيصر فى تحويل الجمهورية الى ملكية يجلس هو على عرشها ، اذ دبرت مؤامرة ثم فيبا اغتياله آمال وتطلعات كليوباترة

فاضطرت الى القناعة بعرش مصر وضمت ابنها بطلميوس قيصر معها فى الحكم .

انتهت الحرب الأهلية التى قامت بعد مقتل قيصر بفوز اكتافيانوس وماركوس انطونيوس ., وقد اقتسم الطرفان الامبراطورية ، فكانت الولايات الغربية من نصيب الأول فى الولايات الشرقية من نصيب الثانى . وقد أرسل انطونيوس فى استدعاء كليوباترا مستنكرا عدم مساعدتها لهم ضد اعداء قيصر . وقد تجلت مظاهر الثورة والعظمة فى رحلة كليوباترة لتقدم البرهان لأنطونيوس على عظم ثروة مصر فتنمو بمظاره بثروة هذه البلاد ، وقد التقت مصالح انطونيوس مع مصالح كليوباترة ، فهو يريد الكنوز والأموال التى ظن أن بمصر معينا منها لاينضب ، وهى بالمثل كانت تريد منه أن يعمل على توطيد عرشها وتحقيق أغراضها ومطامعها السياسية .

أمضى أنطونيوس مع كليوباترة الشتاء التالى ، وأسفرت علاقتهما عن ميلاد توأمين . وعلى الرغم من كراهية الاسكندريين للرومان ، الا أن انطونيوس استطاع أن يكسب حبى ، ولعل ذلك راجع الى احترامهم لكليوباترة وقبولهم للمكانة العالية التى أضفتها عليه ، وأخيرا يرجع الى شخصيته الساحرة .

وفى أثناء ذلك عرف انطونيوس عن غزو البارثيين للشرق ، وعن ثورة زوجته الأولى بولفيا وأخيه ضد اكتافيانوس ، وقد لفت نظره الى خطورة الموقف جماعة من الجنود الايطاليين الموجودين بالاسكندرية ، فسافر فى النهاية الى ايطاليا وكانت بولفيا قد توفيت . وهناك تم عقد صلح بين أنطونيوس واكتافيانوس فى ٤٠ ق . م . على أن يظل

أنطونيوس حاكما على الممالك الشرقية ، وأن يبدأ حربه مع البارثيين . وضمانا لتحقيق المعاهدة تم زواجه من أخت اكتافيانوس وقد سرت هذه المعاهدة الرومان فى الوقت الذى أغضبت فيه كليوباترة . وقد سعت اكتافيانا بعد زواجها من انطونيوس الى الحد من الخلاف بين أخيها وزوجها والتقريب منهما . وفى عام ٣٧ق . م . ذهب انطونيوس شرقا لملاقاة البارثين ، وقد صاحبته فى رحلته زوجته أكتافيانا ، ولكنه أعادها ثانية الى ايطاليا ، وبمجرد ودراه الس سوريا ، أرسل فى استدعاء كليوباترة ، فقد كان فى حاجة الى معونة مصر ، أغنى بلاد الشرق .

ولعل انطونيوس اضطر فى ذلك الوقت الى أن يعلن زواجه من كليوباترة ويهبها البلاد التى فتحها فى مقابل أن تضع تحت تصرفه كل ثروة بلادها . فقد اهداها هى وابنائها فينيقيا وجوف سوريا وقبرص وجزء كبير من كيليكيا ، ومن البلاد العربية أهداها اقليم البلم فى يهودية وكل أقاليم النبطيين التى تنحدر ناحية البحر . وبحصول كليوباترة على هذه الأراضى تكون قد استردت أملاكها التى كانت لها أيام ملوك البطالمة الأولين وبخاصة على عهد كل من بطلميوس الثانى وبطلميوس الثالث وكان الرومان قد استولوا على بعضهما فى عهد الملوك المتضعفين من هذه الأسرة ، ولذلك كان كليوباترة تستحق أن تغبط نفسها على هذا النصر اذ استردت املاك مصر ومجدها الذى كان لها أيام أعظم أجدادها .

وقد وصف المؤرخون القدامى كليوباترة بالبغاء واتهموها بالسيطرة الكاملة على أنطونيوس ، فى حدثنا ديوكاسيوس بأن انطونيوس أحب

كليوباترة منذ رآها فى كيليكيا وجعلت يسير وفق هواها . فلم يعد يهتم بالأعمال الأخلاقية ولكن أصبح عبدا للملكة وكرس نفسه لحبها مما أدى الى قيامه بأعمال كثيرة مثيرة للاسمئزاز ، ولعل وصف الكاتب تأثر بالدعاية التى شنها أكتافيانوس عند انطونيوس ، فان كليوباترة لم تكن مجرد محظية أو لعبة فى أيدى القواد الرومان ، بل لاشك أنها هدفت من علاقته بأنطونيوس الى المحافظة على استقلال مصر وتوسيع حدودها والاحتفاظ بالعرش من بعدها لأبنائها . ولعل كليوباترة كانت فى نظر الكثيرين من الشرقيين رمزا لمقاومة روما وضمانا للخلاص من استعبادها .

فى عام ١٤ ق . م خرج انطونيوس فى حملته على ارمينيا ، وبعد اخضاعها عاد الى الاسكندرية ليحتفل بمهرجان انتصاره على غير العادة التى تقضى بأن يكون الاحتفال فى روما . وقد أعلن فى هذا الاحتفال أن كليوباترة ملكة مصر وقبرص وليبيا ووادى سوريا ويشاركها ابنها قيصرون ابن قيصر، وأعلن أن ابناءه منها هم ملوك ابناء ملوك ، وقسم بينهم الولايات الشرقية .

بدأ اكتافياس بعد طلاق أخته من أنطونيوس فى حملة التشهير ضده ، وارتكز فى هذه الحملة على أفعال أنطونيوس التى تتسم بالخيانة لروما ، ومنها تقسيم انطونيوس للممالك الشرقية التابعة للامبراطورية الرومانية على كليوباترة وأبنائها ، واحتفاله بانتصاراته كقائد رومانى فى الاسكندرية بدلا من روما ، وزواجه بزوجه أجنبية ، وجعله قيصرون من قيصر وريثا مع أمه كليوباترة . وكانت نتيجة هذه الحملة أن أعلن الرومان الحرب على كليوباترة ملكة مصر ، فان روما التى لم تخشى أى

شعب من شعوب العالم آثارها الفزع طوال تاريخها ، كانت المرة الأولى من هانيبال والثانية من امرأة وهى كليوباترة .

وقد شهدت احدى المؤرخات الحديثات الملكة كليوباترة بأنها كانت مثل اكتافيانا زوجة انطونيوس الثانية فى اخلاصها لبلادها ، ومثل فولفيا الزوجة الاولى فى قسوتها ، كما شبهتها بالملكات الهلنستيات السابقات فى طموحهن غير المحدود وبالاسكندر الاكبر فى براعته ورغبته فى تكوين امبراطورية عالمية . وقد شكلت كليوباتره تهديدا كبيرا لاكتافيانوس ولروما لأن لديها ابن قيصر الوحيد « قيصرون » ، والى جانبها ماركوس انطونيوس القائد المشهور أحد اعضاء الحكومة الثلاثية للامبراطورية الرومانية والذى كان محبوبا بين فرق الجيش والارستقراطية الرومانية . وفوق ذلك كان لدى كليوباترة وتحت امرتها ثروات مصر ومنابع خيراتها .

لذلك كان الرومان يكنون لكليوباترة الكراهية الشديدة . فهى بعلاقتها مع قيصر واعترافه ببنوه قيصرون كانت تسعى الى أن تصبح ملكة على روما فرفضوا أن تتحول الامبراطورية الى مملكة تحكمهم من فوق عرشها المملكة المصرية التى يمقتونها ويخشونها فى نفس الوقت . فدبروا لاغتيال قيصر وتمكنوا بذلك من القضاء على احلام كليوباترة والخلاص منها . ولكن أن تعود كليوباترة لتسيطر للمرة الثانية على انطونيوس أكبر القواد الرومان ، والذى يتولى أمر نصف ولايات الامبراطورية ، ثم تحمله على توزيع هذه الولايات عليها وعلى أبنائها ، فكان أمرا مهينا لايطاق ، وخيانة علنية لاتغتفره ، لذلك أعلن اكتافيانوس هو والرومان الحرب عند كليوباترة عدوة الشعب الرومانى ،

فكانت حربا قومية ضد الخطر الاجنبي وعلى الرغم من أن كليوباترة قدمت الكثير من الأموال والعناد والسفن من أجل المعركة ، وعلى الرغم من الجهد الذى بذله انطونيوس فى قيادة الجند ، الا أن النصر فى النهاية كان حليف اكمتافيانوس فى موقعة اكتيوم واضطر أنطونيوس وكليوباترة الى الانسحاب والانتحار فى آخر الأمر .

وهكذا انتهت فترة حكم البطالمة بانتحار كليوباترة التى كان طموحها أكبر من طموح الملوك البطالمة جميعا ، فبعد أن كانت مصر على وشك الوقوع فى أيدى الرومان والتحول الى مجرد ولاية رومانية ، أصبح الرومان يخشون بأس المملكة المصرية ويخافون من أن تصبح يوما ملكة على روما نفسها . فان ديوكامنيوس يذكر أن كلظيوباترة كانت تأمل فى أن تحكم الشعب الرومانى ، وقد اقسمت انها ستحكم من الكابيتول .

كانت كليوباترة تخطط دائما لتحقيق هذا الأمل ، بل وأعلنت ذلك صراحة ولكن شاءت القدار أن يحالف كليوباترة سوء الحظ مرتين ، كانت المرة الاولى عندما قتل قيصر وكانت على وشك ان تتربع الى جواره على عرش روما فلجأت الى الفرار الى مصر ، وكانت المرة الثانية عندما منيت بالهزيمة فى حربها مع انطونيوس ضد اكتافيانوس ، واضطرت الى أن تضع حدا لحياتها وخاتمة للعصر البطلمي الذى امتد طيلة ثلاثة قرون . كان هذا اذن هو الاساس الذى قام عليه وضع مصر عندما قام اكتاميان بفتح مصر عام ٣٠ ق .م . فمصر كانت دولة مستقلة بعيدة الى حد كبير عن فكرة الامبراطورية بمدلولها الشامل الدقيق . أما بعد أن تم الفتح فقد تغير وضع مصر كلها — لتصبح احدى الولايات التى تشكل فى مجموعها الامبراطورية الرومانية .

الملوك البطالمة

بطلميوس الاول (سوتير) ٣٢٣ – ٤/٢٨٥ ق . م .

بطلميوس الثانى (فيلادلفوس) ٤/٢٨٥ – ٢٤٦ ق . م .

بطلميوس الثالث (يوارجيتس) ٢٤٦ – ٢٢١ ق . م .

بطلميوس الرابع (فيلوباتور) ٢٢١ – ٢٠٤ ق . م.

بطلميوس الخامس (ابيفانس) ٢٠٤ – ١٨١ ق . م .

بطلميوس السادس (فيلومتور) ١٨١ – ٨٠ – ١٤٥ ق . م .

بطلميوس السابع (يوباتور) ١٤٥ ق . م.

بطلميوس الثامن (يوارجيتس الثانى) ١٧٠ – ٦٩ – ١٤٥ ق . م.

(بالاشتراك مع أخيه فيلومتور)

منفـــردا ١٤٥ – ١١٦ ق . م .

كليوباترا الثالثة مع ابنائها بطلميوس التاسع

سوتير الثانى

وبطلميوس العاشر (الاسكندر الاول)

بطلميوس الحادى عشر (الاسكندر الثانى)

بطلميوس العاشر (الاسكندر الاول) ١٠١ – ٨٨ ق. م. منفردا

بطلميوس التاسع (سوتير الثانى) ٨٨ – ٨٠ ق .م. منفردا

برينيكى الثالثة ٨٠ ق . م .

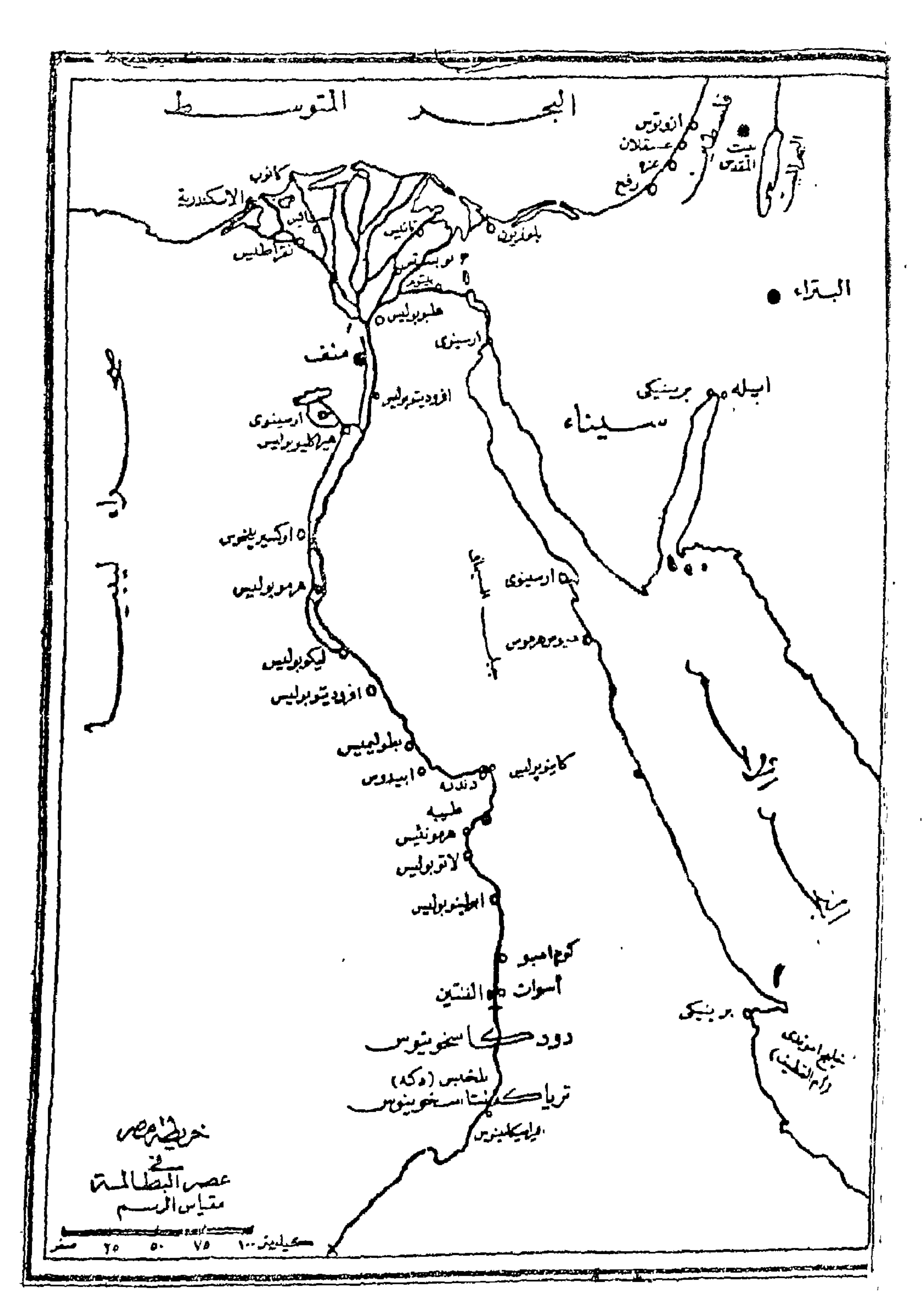
بطلميوس الثانى عشر (نيوس ديونيوس ٨٠ – ٥١ ق . م .

كليوباترا السابعة مع أخويها بطلميوس الثالث عشر

بطلميوس الخامس عشر

وابنها بطلميوس الرابع عشر ٥١ – ٣٠ ق . م

(قيصـــرون)


البحر المتوسط
فلسطين
ازوتوس
عسقلان
غزة
رفح
بيت المقدس
كانوب
الاسكندرية
نقراطيس
تانيس
بلوزيون
هليوبوليس
البتراء
منف
افروديتوبوليس
ارسينوى
هيراكليوبوليس
ارسينوى
ايله
برينيكى
سيناء
اوكسيرينخوس
هرموبوليس
ارسينوى
ميوس هرموس
ليكوبوليس
افروديتوبوليس
بطوليميس
ابيدوس
دندرة
كاينوبوليس
طيبة
هرمونثيس
لاتوبوليس
ابولينوبوليس
كوم امبو
أسوان
الفنتين
دودكاسخوينوس
برنيكى
ترياكنتاسخوينوس
خريطة مصر
في
عصر البطالمة
مقياس الرسم
كيلومتر ١٠٠ ٧٥ ٥٠ ٢٥ صفر



مصادر ومراجع الدراسة

أولا : المصادر :

Arrian : Bibliotheca Teubnerian .

Curtuis Rufus : "" ""

Diodo%siclus :. Loob.

Herodotus : Loeb.

Manetho : Loeb .

Pausanias : Loeb.

Pliny Naturalis Historia (Loeb).

Poly bius : Loeb.

Quintus Curtius.

Strabo Loeb .

ثانيا : المراجع الاجنبية :

A. Badawi : Memphis als zweites Lond haupstadt., B.I.F.A.o., 1948 .

H.I. Bell : Cults a . Greeds in Graeco - Roman Egypt, Liverpool, 1953.

H. I. Bell : Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest, Oxford 1948.

Ed. Bevan : A History of Egypt under the ptolemaic Dimasty, London, 1914.

Bouche - Leclercq : Histoires desLagides, 4vols. paris, 1903, ff.

E. Breccia : Alexandria ad Aegyptum Bergamo 1922.

J. Breasted : A History of Egypt from the earliest times the persian conquest, London, 1948.

The Cambridge Ancient History, vol. vii, the Hellen- Sistic Monarchies and the Rise of Rome, ed by. S.A. Cook, F E Adcock, M.P. Charles-worth, Cambridge 1928 .

E.Dnoton et J. Vandier, les peuples de L' orient Mediterraneen L' Egypt. Paris, 1934.

V. Eherenberg , Alexander und Agypten (Der Alte Orient Heft 7) Leipzig 1926 .

C. Figaec : Egypte Ancienne, paris 1847.

P.M. Fraser : Plolemais AlexandriaOxford, 1972.

F. Heichelheim : WirtchaftlicheSchwankunger derZeit von Alexander Bis Augustus, Jena, 1930.

" "" "" : Die Auswarige Bevolkerung in Ptollemaierzeit. Leipzig 1925.

W . W . How. a . Wells : A Commentary on Herodotus, 2 vols oxford, 1957 .

H. Junker : Die Götterlehre von Memphis, Berlin, 1340 .

B. H . Macurdy : Hellenistic QueensOxford 1932.

Mariette : Le Serapeum de Memphis 2 vols. paris 1882 .

W. Otto :Priester undTempel im hellenistischen Ägyptens. 2vols. Leipziq-Berlin 1908.

Cl. Preaux : L' Economic Royale des Lagides, Bruxelles, 1939 .

"" "" : Les Grecs en Egypte Bruxelles 1947.

M. Rostovzeff : A Large Estate in Egypt in the third century B.C. Madison, 1922.

"" "" : The Social and Economic History of Hellenistic world, 3vols. oxford 1953.

U. Wilchen : Alexander der Grosse, Leipzig, 1951 .

ثالثا : المراجع العربية :

د . ابراهيم نصحى : دراسات فى تاريخ مصر فى عهد البطالمة .

تاريخ مصر فى عصر البطالمة ٤ أجزاء .

ايدرس بــــل : مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربى

ترجمة د . محمد عواد حسين ود . عبد اللطيف أحمد .

د . لطفى عبد الوهاب يحيى : دراسات فى تاريخ مصر عصر البطالمة .

د . مصطفى عبد الحميد العبادى : مصر من الاسكندر الأكبر الى الفتح العربى . مكتبة الاسكندرية القديمة .

هيرودوت يتحدث عن مصر ترجمة الدكتور صقر خفاجه وتعليق الدكتور أحمد بدوى

كفاحنا ضد الغزاه : تأليف نخبة من الاساتذة .

مجتمع الاسكندرية عبر العصر تأليف نخبة من الاساتذة .

د . عبد اللطيف أحمد على : محاضرات فى العصر الهلينستى .

محتويات الكتاب





